

سلسلة أعلام الفكر العالمي

باريتو

تأليف: جوليان فروند ترجمة: منى النجار



ويلفريدو باريتو

سلسلة اعلام الفكر العالمي

ويلفريدو باريتو

تأليف: جوليان فروند
ترجمة: منى النجار

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ - برقياً : موكيالي، بيروت
ص . ب . ٥٤٦٠/١١ بيروت

الطبعة الاولى
١٩٨٠م - ١٤٠٠هـ

المحتويات

نبذة عن حياته

ولد ويلفريدو باريتو(Vilfredo Pareto) في باريس عام ١٨٤٥، وهو ابن لاجئ سياسي إيطالي من منطقة الليجورنة (Ligurienne) يدعى رافائيل باريتو (Raffaele Pareto) أما أمه ففرنسية تدعى ماري مينوتية (Marie Menetier).

استغلت العائلة صدور حكم بالعفو العام لتستقر من جديد في إيطاليا عام ١٨٥٠، في جنوى حيث تابع باريتو (Pareto) دراسته الثانوية، ثم في تورينو (Turin) حيث درس أولاً في الجامعة (إجازة في الرياضيات والفيزياء) ثم انتمى الى المعهد البوليتكنيكي في الفترة الممتدة بين عام ١٨٦٧، وعام ١٨٦٩ ليخرج منه مهندساً. وقد تعرضت اطروحته لقضية توازن الاجسام.

عام ١٨٧١ عمل مهندساً في فلورنسا لدى شركة الخطوط الحديدية.

قام بعدة رحلات الى النمسا، والمانيا وإنكلترا.

ثم أصبح عضواً في شركة أدم - سميث في فلورنسا وبدأ ينشر مقالاته الاقتصادية الاولى.

عام ١٨٨٢ أصبح مديراً لشركة الخطوط الحديدية.

فشل في الفوز في الانتخابات التشريعية في دائرة (Pistoia). وأصبح عضواً في المنظمة الدولية للسلام. عام ١٨٨٩ تزوج من شابة روسية السندرا باكونين (Alessandra Bakounine).

ساهم في عدة مؤتمرات لأنصار السلم ، وحرية التجارة.

منعته الحكومة الايطالية من القاء محاضرات مجانية في علم الاقتصاد السياسي. وقد عكر صفو إحدى محاضراته البوليسي.

عام ١٨٩١ تعرف الى ل. ولراس (L. Walras) وقد عقبه في منصب أستاذية علم الاقتصاد السياسي عام ١٨٩٣ في جامعة لوزان (Lausanne).

عام ١٨٩٦ - ١٨٩٧ نشر دروس علم الاقتصاد السياسي (Cours d economie Politique). واستقبل لديه في سويسرا بعض الاشتراكيين الفارين من بلادهم إثر عمليات العصيان في ميلانو (Milan).

بدأ عام ١٨٩٨ باعطاء دروس في علم الاجتماع عام ١٩٠١ استقر

في سلينيه (Celigny) قرب بحيرة جنيف ، وأعطى دروساً في معهد الدراسات العليا في باريس ، وأدار داراً للنشر نشرت أول أعمال ماكس ويبر (Max Weber) بعد ترجمتها الى الايطالية.

عام ١٩٠٣ نشر الانظمة الاشتراكية (Systemes socialistes) ونشر عام ١٩٠٧ موجـز علـم الاقتصـاد السياسي (Manuel d'economie Politique ونشر عام ١٩١٧ إسطورة الفضيلة والادب اللاأخلاقي(Le Mythe Vertuiste et la litterature immorale) .

ثم عمد الى التخلي التدريجـي عن تدريس علـم الاقتصـاد في بونينسينية (Boninsegni) للانصراف الى علم الاجتماع. عام ١٩١٦ نشرمبحث علم الاجتماع العام (Traité de Soioligie générale) عام ١٩١٧ إحتفل بيوبيل باريتو (Pareto) في جامعة لوزان.

عـام ١٩٢٠ نشر وقائـع ونظـريات Fatti et theorie) ونشر عام ١٩٢١ تحـول الديمقـراطية (La Transformation de la democratie).عام ١٩٢٢ طلب اليه تمثيل حكومة موسوليني (Musolini) لدى لجنة نزع السلاح التابعة لعصبة الامم. ويبقـى إنضمامه الى الفاشية وتأييده لها مشروطاً : كما تدل مقالاته المنشورة في مجلة (Gerarchia) . فهو يصر على إحترام الحريات الاساسية.

عام ١٩٢٣ عين سيناتور في مملكة إيطاليا. ولكن المنية وافته بعد ذلك بعدة أشهر في ١٩ آب ١٩٢٣ في سالينيه (Celigny) حيث دفن.

الفصل الاول

الفكر الوقح الصلف

الفكر الوقح الصلف:

يعتبر باريتو (Pareto) كاتباً مثيراً، يبلغ أحياناً حد الازعاج. فلم يعد بالامكان احتماله. وتعتبر نادرة الدراسات التي كرست له والتي بقيت لا مبالية، غير متحيزة، أمام الشخص. واكتفت بتحليل آرائه ومواقفه النظرية. ويحمل الحكم على المؤلف دائماً في طياته رأيا بالانسان، وحكماً عليه. لذا يبدو لي من الطبيعي إحترام هذه العادة، وتطبيقها. لنبدأ بالحديث عن الانسان قبل تقديم، وعرض نتاجه، خصوصاً وان الصيت الذي اشتهر عن الكاتب يدفع البعض الى الاعتقاد، بامكانية، وحتى بضرورة، تجاهل المؤلفات، لنحاول ان نتفهم بهدوء هذه الطباع التي اشتهرت بتمردها وجرأتها.

لا يسعنا القول ان علماء الاجتماع يجهلون باريتو (Pareto)، ولا يمكننا الادعاء انه بقي مغموراً. فقد شهد المجد في أميركا عشية الحرب العالمية الثانية، وكل قارئ في بارسون (Parsons) يعرفه على الاقل بصورة غير مباشرة. لقد عزل الرجل في الحقيقة، وأحكمت مقاطعته، وهذا الامر يشكل طريقة غير مباشرة للاعتراف بأهميته.. علماً انه هو ما كان ليطلب العكس فقد أعرب مراراً عن أمله في ان لا يجد مبحثه حول علم الاجتماع العام (Traite de Sociologie générale) الكثير من القراء. ونجد انه كان يتوقع مصيره، الذي لقيه، وإن لم يكن قوله يتعدى بالنسبة اليه النزوة. وتظهر عملية الابعاد جلية

في فرنسا، رغم الجهود الكبيرة التي بذلها تلميذه السابق ج. هـ. بوسكيه (G.H.Bousquet) والصفحات المضيئة التي خطهار. أرون (R.ARon). هذه الصحفات التي تعتبر مستحدثة نظراً، لأنه قد سبق لأرون (ARon)، ان وقّع مقالاً قسا فيه على علم إجتماع باريتو (Pareto)، ونشره عام ١٩٣٧ في (Zeitochrifl für Sozial-foischung) ولعله فعل ذلك متأثراً بـ بوجليه (Bouglé)، الذي كان يتميز غضباً كلما ذكر اسم باريتو (Pareto) أمامه وإذا استمر الحظر على باريتو (Pareto) في فرنسا، فهذا يعود الى نفوذ غورفيتش (Gurvitch)، الذي اتخذ موقفه دون حق وبلا أي تبرير.. الم يعلن في دراساته عن الطبقات الاجتماعية (Etudes sur les classes sociales) ان مفهوم باريتو (Pareto) «هو نموذج لما يتوجب علينا تجنبه؟».

وليس من الصعب تقديم الدليل على ان علم الاجتماع لدى باريتو (La Sociologie de Pareto) الذي وصفه غي بيرين (Guy Perrin)، لا يقدم أية مساهمة في فهم فكر باريتو (Pareto)، لأن فكرة هذا المؤلف الاساسية تركز، على خلاف كتابات باريتو (Pareto) نفسها، على إيثاره النيل من المنطق ومحاولته إعادة الاعتبار لقوى اللامعقول المظلمة.

ما هي أسباب هذا التشهير الذي لا يخلو من العداء بمؤلفات باريتو (Pareto) ونتاجه؟ إنها عديدة وكثيرة تتبدل بتنوع المؤلفين وتعدد

انتماءاتهم السياسية، أو دركاتهم الاجتماعية. ويمكننا افتراض أسباب جديدة للنيل منه، كلما تعمقنا في قراءه ومعرفة مؤلفاته. ولا ندعي هنا تقديم إيضاح نهائي.

السبب الصحي إذا راعينا ناحية الوقاية، هذا السبب الذي نعجز عن إهماله فيما خص ناحية التقزز من الدخول مباشرة الى جوهر المؤلف، يكمن في إزعاجه القارئ حين يقربه لأول مرة، إزعاجه بما يثيره فيه من ملل، وتهيج أعصاب على السواء. فأنا الطالب المفلس كنت أمضي أياماً الخص على دفاتر مدعومة بالدليل الحرفي مؤلفات بودين (Bodin)، وهوبس (Hobbes)، وهوسيرل (Husserl)، وسيميل (Simmel)، وكاسيرير (Cassirer)، وجاسبيرس (Jaspers) وغيرهم. وقد اضطررت الى التخلي عن هذا الاسلوب؛ وبعد ان سودت صفحات كثيرة، مع باريتو (Pareto) ولأول مرة. فقد اكتفيت بقراءة مبحث علم الاجتماع العام (Traité de sociologie générale)، وقد تملكني الشعور الكريه، بأنني أدور في دائرة مفرغة؛ كنت أصطدم دائماً بنفس الاسئلة، وقد قوليت في أمثلة مختلفة دون ان أجد أبداً هذا الفرق الفكري والقائم على التوغل في الفكر عبر تطوره. ويتوجب علي الاعتراف إنني قد أعدت إستعارة الكتاب من المكتبة، بعد عدة أسابيع، لاعادة قراءته بعناية أكبر. ولعل السبب يعود الى معارضتي أسلوب مواجهة وتحليل المجتمع، والسياسة في ذلك الحين. وقد ساعدني باريتو (Pareto) وبعض الآخرين ومنهم ماكس فيبر (Max

(Weber) فيا بعد،على تجاوز خيبة أملي حين، ملأني السخط من تفكك رجال السياسة، والتناقض القائم بين أعمالهم وأقوالهم. ساعدني على تجاوز خيبة أملي، لأنه حاول ان يفسر مواقف تجاهلها غيره من علماء الاجتماع وعمدوا أحياناً الى إخفائها وطمسها. لم تعد صلافة القراءة الاولى تزعجني، بعد ان مررت بتجربة الوهم والخيبة. وهذا لا يمنعني من مواصلة الاعتقاد بأن مؤلفات باريتو (Pareto) صعبة الاستيعاب وتثير بعض الملل. ويجمع المعجبون به على الاعتراف بأن تركيب مبحث علم الاجتماع العام (Traité de Sociologie generale)، لا يتم بالتنسيق، وان قراءته لا تتميز بالسهولة. وقد قبل هو بعد إعلانه أنه لا يملك أية إدعاءات ديالكتيكية (Pretentions Dialectiques) قبل ان يقدم متعاوناً مع بوسكيه (Bousquet) نسخة جديدة لعلم إجتماعه، تتميز بالبساطة وسهولة القراءة. الا ان ظروفه الصحية، وموته، لم يتيحا له إتمام المشروع الذي أنجزه بوسكيه (Bousquet)، حين نشر عام ١٩٢٥ موجز علم الاجتماع وفق فيلفريدو باريتو (Vilfredo Pareto) وفي الواقع يوجد هناك مؤلفات كثيرة لهيغل (.Hegel)، وهوسيرل (Husserl) تصدم القارئ، الا انها لا تثير حنق من يملكون رغبة حقيقية وصادقة في التعرف اليها والاطلاع عليها. واذا كان باريتو (Pareto) يثير القلق، فلأسباب تتعدى الصيغ الشكلية.

وتكشف لنا قراءة المؤلفات عن رجل مترفع، مزدر طوعاً،رجل تسهل عليه السخرية ليحول الى هزاءة ما لا يعجبه. ويميل القارىء السيء

النية (ليس من الضروري دائماً ان يكون كذلك) ، الى وصف هذا الموقف بالغطرسة اللامجدية ، وحتى بالتعجرف المتباهي . ويتسم الاسلوب دائماً بالعدوانية ، لا لأن باريتو (Pareto) كان يميل الى الحرب الكلامية والجدل ، (كان يرفض دائماً على العكس من ذلك الدخول في مثل هذه المتاهات الكلامية) ، بل لأنه لا يتوقف عن الاعراب عن احتقاره إزاء بعض الرجال ، وإزاء بعض الأشياء تاركاً أحياناً الانطباع بجهله فضائل السخرية من النفس . وبما انه ينتمي باصوله الى طبقة الأرستوقراطية نجد ان البعض يميل الى ربط طباعه بانتمائه الطبقي . ويتميز مثل هذا التبرير بسخفه ، لأن باريتو (Pareto) لم يبق أحداً من وقاحته . لا الرجال ، ولا الاحزاب ، ولا الافكار اليسارية ، ولا الافكار اليمينية . وهو يمعن في السخرية اللاذعة سواء من البورجوازية أو من الاشتراكية . ويحب كما يقول أرون (Aron) ان « يفتعل الساذج » لاهانة الفلاسفة ، والمثقفين ، والسياسيين . فهو يسخر تارة من رجال الاقتصاد « هواة الادب » ، ويقلب أحياناً ليسخر ، فقرة يصعب فهمها لهيغل (Hegel) ، أو غيره من الفلاسفة . ويتسلى طوراً بتحليل خطاب لسياسي ليبرز تناقضه مع نفسه . ونجد في تحول الديمقراطية (La Transformation de la democratie) نموذجاً من أساليب عمله ، فيما خص خطاب جيوليتي (Giolitti) الذي جعله عرضة للسخرية . كان يسيطر على القلم فيخر هذا طيعاً في يده . - كان بوزينو (Busino) يسميه متعدد الموضوعات أو صاحب المصنفات في مواد مختلفة - ولا شك ان هذه

الملكة دفعته الى مضاعفة عمليات التهديم، والتقويض، التي جذبت له الحقد والعداء. وبالطبع لا يصعب علينا ان نمسك عليه الوقوع في اللامنطق باعتبار انه يدعي التحدث باسم التجرد العلمي، في الوقت الذي يتهكم فيه من كل ما لا يروقه شخصياً. وهكذا نجد ان هجومه مليء بالاحكام القيمة، وان كان لا يخلو من المواقف الشخصية. وهو يعرض نفسه للنقد، لكثرة ما يثقل بالتعنيف على معاصريه، ولأسباب حقيرة. وفي الواقع يعمد اليوم المثقفون الى تجاهله ومعاملته بالمثل، لكثرة ما هاجمهم. على كل إذا دفعت هذه السمات الى الحنق فانها لا تكفي لتبرير الريبة التي تحيط بنتاجه.

لم يكن باريتو (Pareto) يمتهن التعليم الجامعي وفق المعنى الكلاسيكي للعبارة. رغم انه عمل ربع قرن تقريباً أستاذاً جامعياً. أتم دراساته العليا في مدرسة البوليتيكنيك (Polytechnique) في تورينو (Turin). وعمل لمدة عشرين عاماً مهندساً للسكك الحديدية. وقد قبل إثر فشل في الحياة السياسية (رشح نفسه في انتخابات بيستويا Pistoia التشريعية)، رضي بأن يخلف فالراس (Walras) في جامعة لوزان (Lausanne). ولكنه لم يعتبر أبداً التعليم الجامعي مهنة جامعية، وفق المعنى السائد للكلمة، هذا المفهوم الذي كان ليحوله الى إختصاصي في نطاق معين، ومحدود. فقد اتسمت ثقافته بالشمولية، والاتساع، الى حد تحدي زملائه المدرسين لمواد أخرى، دون وجل من حبه للادعاء، هو الذي يعي تفوقه على الآخرين وتقدمه عليهم. وهذا لم يمنعه من إقامته علاقات جيدة مع الفيلسوف نافيل (Naville)، أو مع

فردينان دوسوسور (Ferdinand de Saussure) ، الذي يجله اليوم علم البنيوية . (Structuralisme) . وكان يسعه النقاش في مسألة رياضية ، أو فيزيائية ، أو تقنية علمية ، وحتى في القضايا الاقتصادية السياسية (عمل أستاذاً للاقتصاد السياسي في لوزان Lausanne) .
ولا بد من الاشارة الى تبحره في الميدان الفلسفي والادبي : فقد كان يقرأ اللاتينية واليونانية ويعرف بالتفصيل آداب مختلفة ، كما يسع قارىء مؤلفه الاسطورة والادب اللاخلاقي ان يتبين . (Le mythe vertuiste et la litterature immorale) . كذلك كتب مقالات كثيرة لتفسير وتوضيح بعض مسائل فقه اللغة . ومن الطبيعي ان يبدو هذا الابحار العميق ، وهذه المعلومات الواسعة ، ساحقة لزملائه . لكنه كان يعرف ، كيف ينال من فخامتها بخصاله الاجتماعية ، وقدراته كمحاضر . فهناك هامش حقيقي بين ثقل بعض كتاباته ، ومزايا الرجل اللامع التي شهدها فيه معاصروه . ولا يمكن ان يشكل هذا التفوق في مختلف الميادين ، الذي بدا ساحقاً لزملائه ، نيلاً منه في يومنا هذا . فالسطحي لا يجد الراحة على اختلاف العصور الا في الخمول .
يؤخذ أيضاً على باريتو (Pareto) تأييده للفاشية ، وتقبله تكريمها ، هذا التكريم الذي رفضه من النظام السابق . لقد رضي بفكرة تمثيل نظام موسوليني (Mussolini) في جمعية الامم . ويدعى غورفيتش (Gurvitch) ، ان خطب الدوتشي (لقب موسوليني) ،ومعاونيه تعكس شيئاً من باريتو (Pareto) . وهو لا يتردد في ان يحول باريتو (Pareto) الى مرجع لدعاة الفاشية ، والنازية . ويبرهن عالم الاجتماع

الفرنسي بهذا فقط انه يملك روح المبالغة، أكثر من باريتو (Pareto) فمن اليسير الخلط بعد وقوع الحدث بين بداية الحركة السياسية، ونهايتها فالتاريخ عابق بالأغلاط والاستدلالات الزائفة، الناتجة عن هوى جامح. ومهما يكن فلا بد لنا بعد طرح هذه المبالغات جانباً من الدهشة، لكون باريتو (Pareto) الذي اعتبر نفسه طوال حياته، من رواد الليبرالية، قد توصل الى التعاون مع الفاشية. ويمكن لوضع ايطاليا في ذلك الحين ان يقدم العناصر الايضاحية، لأنه أدى بعدد من الكتاب الايطاليين، مثل كروس (Croce) الذي سيتحول الى واحد من أكبر مناوئي النظام، الى الالتحاق مؤقتاً بالفاشية، كما حصل في بداية عهد هتلر (Hitler) لبعض الكتاب ورجال السياسة. مثل تيودور هويس (Théodore Heuss) الذين أدلوا بأصواتهم لصالح حكومة هتلر (Hitler)، أو كما جرى لبعض الكتاب الفرنسيين الذين التقوا فيما بعد بصفوف المقاومة بعد ان أيدوا بيتان (Petain) وحكومة فيشي (Vichy) في البداية. ويبدو ان تأييد باريتو (Pareto) للفاشية كان متحفظاً، فهو إن أيد استتباب النظام، لم يهادن أبداً حول معتقداته الليبرالية، كما تدل على ذلك مراسلاته والمقال «الحرية» (Liberté) الذي نشر في المجلة الفاشية (Gerarchia). فهو يدافع فيه عن مبادئه التقليديه، ويطالب باحترام كل الحريات وليس فقط حرية الصحافة، ويؤكد على حرية التعليم، ومنها التعليم الديني، رغم انه كان من دعاة العلمانية. توفي باريتو (Pareto) عام ١٩٢٣ قبل ان يباشر موسوليني (Mussolini) سياسته المغامرة، الامر الذي يمنعنا من

التأكيد النظري، حول موقفه من النظام هل كان سيستمر في تأييده أم سيمتنع عن ذلك؟ وحين نحلل التمييز لذي موريس بعد عام ١٩٤٥، ونلاحظ الحلم الذي أحيط به بعض المؤلفين، والشدة التي أغدقت على البعض الآخر، الذي لم يتورط أحياناً بالقدر الذي تورط فيه الآخرون. ولا يمكننا الا نرى في المآخذ على باريتو (Pareto) سوى ذريعة (أو إنحراف وفق تعبيره هو) تخفي عداء كامناً بعيداً بعمقه.

تكمن أصالة البحث في العلوم الإنسانية، والفلسفية، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، تكمن في الكشف عن الأهداف والغايات الحقيقية للفكر والعمل الانساني في محاولتها التري في ظل القيم المعترف بها، والبنى الفوقية، تيار الافكار الواقعي الحقيقي، أو البنيوي. من هنا نشأت خطوة ماركس (Marx)، ونيتشه (Niestzshe)، وفرويد (Freud)، وهايدغر (Heidegger)، (بفضل نظريته حول الانكشاف)، وجاءت شهرة التفسير بالعقيدة، باعتبار انها تشكل الوعي الخاطئ الذي يخفي النوايا الحقيقية، ويساهم علم الاجتماع أكثر من أي علم آخر في هذا الاستقصاء الواسع الذي يتذرع اليوم بحجة الكشف عن الأكاذيب وإبطالها، هي، والأوهام، والرياء، والخداع، ويندد بكل المجتمعات التي قامت حتى اليوم، وتأمل ان تبني في مستقبل لم تحدده مجتمعاً ثانياً شفافاً يعي فيه الأفراد كل أعمالهم، ورغباتهم. وهكذا تحول إسقاط القناع عن المجتمعات الجاري الى إتهام دائم للانسانية، وأصبح علم الاجتماع عملية كشف مستمرة توصف خطأ

أو صدقاً بالارادة الثورية. ومن المحقق فيه ان كبار علماء الاجتماع الذين عرفوا في بداية هذا القرن، وخصوصاً ماكس ويبر (Max Weber)، وباريتو (Pareto)، وقد ساهموا الى حد بعيد في دفع علومهم في هذا الاتجاه. ويشكل تمييز باريتو (Pareto) بين الفضالة (Residu) والانحراف (Deviation) إحدى وسائل هذا الكشف.

من المثير للعجب ان باريتو (Pareto) لا يتمتع بحظوة ماركس (Marx)، وفرويد (Freud)، وويبر (Weber)، لدى علماء الاجتماع والفلاسفة. لنتجاوز إعادة تحرير الفكر الفرويدي، وفق أسلوب ماركوز (Marcuse) حتى تلائم نظريته أذواق العصر. كذلك وجد نيتسه (Nietzsche) إثر كسوف عارض، الحظوة من جديد، إثر عملية توضيح لفكره. ونجد بعض الحذر من ماكس ويبر (Max Weber)، وإن رد الى الترجمات السيئة، البعد الحاصل في بعض التفسيرات والتأويلات. باختصار يسود الاعتقاد بامكانية إنقاذ كافة هؤلاء المؤلفين لينضموا الى ماركس (Marx) في جنة فلسفة التطفل والهداية. باريتو (Pareto) وحده مقصى، ومبعد عن التمتع بهذا الامتياز. ولا بد من رد هذا الحرمان الى طريقته الخاصة، في إجراء هذا الكشف. إنني أميل الى الاعتقاد بوجوب البحث في هذا الاجراء الذي ينفرد فيه، عن السبب الرئيسي لا الوحيد للصمت النسبي الذي يلف نتاجه.

وكما سنرى فيما بعد، يحاول باريتو (Pareto) ان يبرهن بتمييزه

بين الفضالة (residu) والانحراف (Deviation) ، إن كافة مناهج التفكير، مهما اختلفت ، لا تشكل سوى محاولات تبرير، يحاول المثقفون والافراد ان يضفوا عبرها « صبغة » العقلية ، والمنطق ، على تصرفات تفتقر اليها . لأنها لا تشكل سوى بعض التنكر على مستوى الوعي ، لفضالة أكثر أساسية فقدت لدى الطبيعة الانسانية . لذا فهو لم يضحي لا باسطورة التطور، ولا بالاعتقاد بامكانية إقامة مجتمع أفضل . فالطوباوية ليست سوى شكل من أشكال الانحراف ، والتستر على الاخطاء . وهو لم يوفر الفلسفة ، ولا علم الاخلاق ، ولا الدين ، ولا العلم ، وامتد تدليله المكتسح ، الى كل القيم ، والاهداف ، تلك التي تتسم بالتقليدية ، أو تلك التي تتقدم بها وتطرحها مختلف العقائد السياسية ، أو الاقتصادية ، أو الدينية .

يجري انتقاد ماركس (Marx) مثلا باسم القيم التي لا تمس فهو إذن يتضمن فلسفة أخلاقية ، وأملاً باعتبار ان نظامه ، يرمي الى تحقيق هدف يحدده . فهو يعنى بالتالي بالمستقبل ، وهو ينتقد انظمة القيم باسم نظام قيم أخرى . أما باريتو (Pareto) ، فانه يستبعد بكل خشونة سخريته ، وتهكمه ، المهدم هذه التوقعات ، ويلقي بها في جحيم الأوهام . ويتفحص بدقة الرقابة كل المفردات الرائجة اليوم والتي تشكل قدوة للمثقفين : الاشتراكية ، والسلام ، والمساواة ، والعدالة الخ : باختصار يوغل في الكشف دون أي تمييز لصالح فلسفة معينة ، دون أي إطراء ، بلا إنقطاع ، ودون أي إندفاع . وهو لا يهادن أية فكرة ، أو أية طبقة ، ظاهرياً على الاقل . وهذا ما يسمونه « بصلافته » . وسنرى فيما بعد إذا

تمكن فعلاً من سد كل الثغرات وقطع كل الدروب. وهكذا يلقي بنا في قنوط اللا فلسفة التي يقول عنها أرون (ARon) :

« إن أسلوب هذه اللا فلسفة يعجز الفلاسفة عن احتماله، بصورة مختلفة عن لافلسفة ماركس (Marx) ، أو نيتشه (Nietzsche) . فهذان الاخيران يحملان الفلاسفة على محمل الجد.. ولا يحولان أيا منهم الى هزأة، وهما يعطيان للقطيعة مع التقاليد طابعاً مؤثرا. فيما يبقى باريتو (Pareto) أمينا لقراره « بافتعال الساذج » ، ويعامل الفلاسفة، كما كان فولتير (Voltaire) ، يعامل لايبنيز (Leibniz) ، وهذا بالطبع دون سحر القصصي وقدرته على الايجاز. ويمكن للفيلسوف ان يتساهل مع اللا فلسفة، لكنه لا يحتمل قط فكرة ان الفلسفة ليست خطيرة. ويقف إنتقاده لا مبالياً أمام الدراما، فهو يخلف فراغاً كبيراً حوله فلا يبقي أحياناً سوى مشهد كئيب من الدمار والركام.

ويتميز المثقفون بحذرهم الطبيعي، وقد زادت انظمة الكشف، من هذا الميل خلال نصف القرن الاخير. فهم يرغبون في الا يخدعوا. ولكن باريتو (Pareto) يبرهن لهم انهم سقطوا في الشباك لكثرة الاحتياطات. التي إتخذوها. وأكثر من هذا باتوا يخدعون أنفسهم. ولا شك ان مثل هذه الامثولة مزعجة. فنحن نغفر لكاتب ان يحذرنا من خداع الآخرين، ولكننا نعجز عن تحمل هذا الذي يسلبنا كل أوهامنا، والذي يذهب أبعد من هذا فيبين ان الكلمات التي نستعملها، ونتداولها تحتوي على الاوهام، ولا يترك لنا سوى العزاء الضئيل حول الضرورة الحياتية لبقائنا مخدوعين واستمرار الخداع. وكتب يقول : « الشك يولد

النظرية، والايمان يدفع الى العمل، والحياة العملية تقوم على الاعمال. ويمكن للأهداف المثالية ان تتميز في نفس الوقت بعبثيتها، وضرورتها للمجتمع. وهذا ما يتوجب علينا ان نتذكره هنا لأننا غالباً ما نميل الى تناسيه.

ويمكننا بالطبع ان نتساءل إن لم يكن أسوأ الاوهام ذلك الوهم الذي يدفعنا الى رؤية الاوهام في كل مكان. وهذا السؤال لم يطرحه باريتو (Pareto) على نفسه. ويحدد منهجه قائلاً « نحن نفكر بالاشياء فقط، ونتجاهل المشاعر التي تثيرها فينا أسماؤها. إننا ندرس هذه المشاعر وكأنها أحداث خارجية بسيطة. ونحن نرفض كذلك ان نناقش، ما إذا كان العمل A أ عادلاً، أخلاقياً، لا أخلاقيا إن لم نلق أولاً الضوء على الاشياء التي نريد مطابقة المفردات عليها. ولكننا ندرس كحدث خارجي، ما كان يقصده أناس بلد معين، ينتمون الى طبقة معينة، في عصر معين، ما كانوا يقصدونه بتأكيدهم أن A أ تشكل عملاً عادلاً، أو أخلاقياً.

ويتابع فيما بعد: « إنني أرجو القارىء ان يذكر دائماً أنني حيث أؤكد عبثية عقيدة، لا أقصد قط الادعاء بانها مضرة بالمجتمع. فهي يمكن ان تكون على العكس من ذلك مفيدة جداً. وبالعكس حين أؤكد المنفعة التي تعود الى المجتمع من نظرية ما، فاني لا أريد ان ألمح الى صحتها من الناحية التجريبية». وقد عمد للتخلص من تطفل كل عامل

عاطفي. وكل أثر لاضفاء القيم. وهما تشكلان مصادر وهم وخديعة. عمد الى التفكير بامكانية الامتناع عن المفاهيم الجارية واستبدالها. كما يجري في مادة علم الجبر، ببعض الحروف الهجائية صحيح انه من الصعب تحقيق هذا المشروع النظري حتى بالنسبة لباريتو (Pareto)، باعتبار انه يعترف ان هدف علم الاجتماع هو تحليل دور المشاعر في التصرفات الاجتماعية لدى الكائنات الانسانية.

لا يتوافق مثل هذا الجفاف والجدب مع تطلعات علم الاجتماع، الذي يرمي الى إيجاد ملجأ في الطوباوية. أكثر مما يهتم بالتحليل الوضعي للواقع. ولا يمكن ان يعتبر باريتو (Pareto) سوى مكدر، ومنكد بنظر الحالمين بمجتمع الغد. وكنا لنقبل ان يقدح الثوريين ويتهكم عليهم.. أي أن يكتفي بالأشخاص ولا يهزأ من الثورة والاهداف النهائية والمثالية التي ترمي الى تحقيقها. وهو يظهر بهذا مثل عالم الاجتماع الذي يقف ضد التيار، ولا ينقاد له رغم استعماله منهج الكشف العقائدي. لو أنه اكتفى بتبيان دور الايديولوجية في تصرف الناس لكان اليوم واحداً من الابطال الادبيين المعاصرين، ولكنه يُذهب الى نهاية منطقه ويتحول الى «معكر». فهو يبين ان التفسير بواسطة الايديولوجية يتسم بالايديولوجية بدوره، ليصبح ضحية خديعته هو في النهاية. إذن خيبة الامل كاملة.

من الخطأ تجميد باريتو (Pareto) في هذا الموقف المتطرف، فهو نظري أكثر مما هو تطبيقي فعلاً، أضف انه لا يأخذ تطوره الفكري

بعين الاعتبار، لأنه يتوافق مع طور معين من فكره ، طور مبحث علم الاجتماع العام (Traité de Sociologie generale) ، الاكثر إنتشاراً بين مؤلفاته . فهو كما اعتقد بالاقتصاد الصرف ، آمن كذلك بالعلم الصرف الذي يعني فقط بالاحداث ويتجنب كل تقييم وكل تأويل . ويشكل الامر هنا موقفاً مبدئياً يمثل مثالاً قد يرغب في بلوغه ، أو نموذجاً . لكن باريتو (Pareto) لم يحققه أبداً من الناحية العملية . فهو لم يكتف فقط باستعمال مفردات الآخرين أي العبارات التي يسهل بالتالي تأويلها بل تراجع في النهاية عن مشروعه القاضي باستبدال الكلمات الرائجة بالأحرف الهجائية «خوفاً من أن يصبح المنطق مملاً وغامضاً» كما يقول هو. كذلك لم يمتنع عن تقييم الاشياء ، وإصدار الاحكام ، وإتخاذ المواقف الشخصية . وكيف كان يمكنه الا يقدم على هذا وموضوع علم الاجتماع ، هو دراسة الاعمال اللامنطقية ، التي تسيطر عليها المشاعر والاهواء ، أي التخمينات والتقديرات .

لقد طرحت على باريتو (Pareto) قضية لم يتوصل الى حلها : بما ان العمل اللامنطقي تخميني ، الا يوجب على العالم ان يقيم أهمية التخمين في العمل ، باعتبار ان المشاعر تتجاوز بطبعها التكميم وبالتالي المقياس الوضعي ، والنسبة الضيقة ؟ كيف يمكن تحديد دور الايمان ، أو النموذج في سير العمل أو تقييمه وتقديره ؟ ولا يتعدى الامر التخمين حتى في نظام يأخذ بطريقة المقاربات المتتابعة . ويكتب باريتو (Pareto) قائلاً : كما ان الآلهة القديمة كانت تتوالى ، وتتناسخ ، وتتناقس فيما بينها ، كذلك الامر في يومنا هذا ، فنحن نملك بالاضافة الى

« إله الاشتراكية » آلهة « الاصلاح الاشتراكي » والقوانين الاشتـراكية ، كذلك لا نفتقر الى صغار الآلهـة مثـل « الفـن الاشتـراكي » . وعلـم « الصحة الاشتراكي » « والطبابة الاشتراكية » وغيرها من الامور التي تساهم بفضل اسم إشتراكي في الكنه الالهي . يخرج وصف هذا السياق بالآلهة عن ملاحظة الاحداث الصرفة ، ليشكل تقيياً ، وتخميناً قابـلاً للاعتراض . إذن من المهم عدم الاخذ الحرفي بكل تصريحات باريتو (Pareto) ، والتمييز بين المشروع النظري لمنهج منطقي وتجريبـي ، وتطبيق النوايا .. والفرق واضح دون أدنى شك .

لا شك ان فكرة وضع علم إجتماع يتميز بدقة وتجرد علم الفيزياء ، قد شغلت باريتو (Pareto) واستولت عليه منذ شبابه . فقد كتب في إحدى أولى مؤلفاته « يتم تطور المجتمع الانساني وفق قوانين ثابتة ، ومحددة ، كتلك التي كشف لنا عنها علم الفيزياء » . لقد تولد ما يسمى بصلافته ، وازدرائه للمنطق عن تطور ، ونتج عن خيبات أمل متعددة . ونحن حين نختصر فكر باريتو (Pareto) ، ونحدده بالمفهوم الوارد في مبحث علم الاجتماع العـام (Traité de sociologie generale) ، ننس انه اهتم في نهاية حياته بالنشاط السياسي ، وأنه أهمـل عالـم الاجتماع بعض الشيء . ولم يعد اليه الا ليجـدد هذا المظهـر أو ذاك وخصوصاً الشكل التموجي للمظاهر الاجتماعية . كذلك تكثر التكهنات حول المحن التي دفعته الى اعتناق هذا المفهوم التشاؤمي للحياة . وقد عرض آراءه كشاب في الرسالة التي وجهها في ٧ كانون الاول ديسمبر ١٩٠٧ الى انطونوشي (Antonueci) .

عام ١٨٦٨ كنت في العشرين من العمر. وكان بوسعي ضم المنطق الى المشاعر. وكان يبدو لي يومها، كما يبدو للجميع، ان معتقداتي هي وليدة المنطق، ولم أكن أدرك ان منطقي لم يكن ليشكل سوى محاولة لاعطاء مظهر منطقي لما تدفعني معتقداتي الى الايمان به.

«قرأت عندها بوكل (Buckle) وكان التوله المفاجئ. وبدا لي انه أفضل منطق يمكن تطبيقه على العلوم الاجتماعية. عثرت ثانية على المناهج المستعملة في العلوم الفيزيائية، هذا العلم الذي كنت أدرسه في الجامعة، وذهلت لوجود أناس جاهلين ومتطيرين الى درجة لا يتفهمون معها هذه النظرية.

«وكانت عقيدتي في ذلك الحين التالية: يعتبر الاقتصاد السياسي الذي وضعه علماء الاقتصاد الكلاسيكيين، علماً كاملاً أو شبه كامل. ولم يبق سوى تطبيق هذه المبادئ. وكان يتوجب لذلك محاكاة تحالف وائتلاف كوبدن (Cobden)، الذي يشكل أروع، وأفضل ما فعلته الانسانية منذ قرون. في السياسة كانت السيادة تشكل مسلمة حقيقية. وكانت الحرية تشكل ترياقاً شافياً. وكان التاريخ يقدم لنا الشعب على انه طيب، نزيه ذكي، تضطهده الطبقات الاخرى، ويسحقه تطيره. وان الاحتراب والديانة يشكلان أكبر آفات الانسانية. وكان قيصر من بين الأقدمين ونابليون الأول (Napoleon Ier) ونابليون الثالث (Napoleon III) من بين المحدثين يمثلون بالنسبة إليَّ نماذج سيئة. وكنت أجهل، أو على الأقل أتسامح مع مشاكل الديمقراطية. وكان

الارهاب يشكل بنظري لطخة صغيرة في مفهوم الثورة الفرنسية البراق . » .

كان باريتو (Pareto) يومها ليبرالياً ، متحمساً ، (وقد بقي كذلك طوال حياته) ومنادياً لا يهادن بحرية التبادل في الاقتصاد ، ومحباً للسلام في السياسة ، ووضعياً في العلم . كان يعجب بباستيا (Bastiat) وستيوارت (Stuart Mill) وداروين (Darwin) . عمل مهندساً في فلورنسا (Florence) ، فكان عضواً في شركة آدم سميث (Adam—Smith) ، ومعارضاً مندفعاً لكافة نظريات الحماية الاقتصادية والعسكرية . هزه إنهيار البورجوازية البطيء ، فحلم باجراء الاصلاح . فقد كان يتوقع قيام ثورة إجتماعية . لذا كتب في مقال سماه « التعرفة الجمركية الايطالية الجديدة Le Nouveau Tarif douanier Italien» إذا رغب الفلاحون بأن يكونوا من العادلين ، والمنصفين يتوجب عليهم المطالبة بحرية التجارة للجميع بدلاً من ان يطالبوا بنصيبهم من الامتيازات .. فحين يتفق الصناعيون والملاك على نهب مواطنيهم لا يفكرون بوجود لص ثالث يترقبهم ، ولص يتوجب عليهم عاجلاً أم آجلاً ان يفردوا له نصيبه وهو ليس بضئيل. إن اللص الثالث هو هذا العامل في المصانع والأرض . وهو يطالب اليوم وسيفرض غدا ان يحدد أجره بموجب قانون . كما فعل أسياده حين أعطوه المثل ، وهم يحددون ثمن البضائع التي ينتجونها . « لقد كان متنبهاً ويقظاً للتطور الاشتراكي - إن الموجة الاشتراكية تغمر القارة الاورروبية ببطء ولكن بصورة أكيدة ! - وكان يتساءل عن

الملكية الخاصة التي تستمر، وتبقى، لأننا لم نجد بعد البديل لها. وقد أيد بعض الوقت الاشتراكية، ولم يقيدها سوى بشرط إحترام الحريات الاساسية. فقد كان يجدها قادرة على الحلول مكان البورجوازية المنهارة، الاتجارية، (النازعة الى الاتجار دون أي إهتمام آخر) والفاسدة. ولكن أياً من الأفكار التي نادى بها وناضل من أجلها لم يتحقق.. وقد لقي الفشل في الانتخابات التشريعية. كذلك عكر البوليس أجواء إحدى محاضراته التي ألقاها في ميلانو (Milan). وحظرت عليه الحكومة الايطالية القاء الدروس في الاقتصاد السياسي.

تراكمت خيبات الامل، وأصبح باريتو (Pareto) أكثر مرارة وحزناً. وأخذت السياسة الوقائية والعسكرية تنتصر في إيطاليا. وتأكد ان الاشتراكية تشكل قوة مركزة لا تهتم سوى بتدخل الدولة.. وسيحارب باريتو (Pareto) هذا الشكل الجديد من أشكال الدولتية (Etatiome)، وأخذ يتأمل في أسباب ضعف الديمقراطية، والبرلمانية، الراميتان الى إقامة «الدولة الاخلاقية» (Etat Ethique) أي الدولة الشرطي (L'Etat gendarme). وثار دون ان يتخلى عن علمانيته لرؤية إبتزاز الحكومة الايطالية فيما خص الحرية الدينية. وعرف ان الانفعال والتأثر، والأحاسيس، تشكل قوة يعجز أمامها المنطق. وبقراءتنا لرسائل ايطاليا (Lettresd Italie)، التي بدأ بنشرها عام ١٨٩٠ في مجلة رجال الاقتصاد (Journal des economistes) نرى نضوج الافكار التي سيطورها فيما بعد: «يعلمنا التاريخ ان ليس المنطق هو

الذي يدفع ويحرك الجماهير الانسانية، بل هو الانفعال الذي يتحكم فيها في ظل هيمنة بعض الظروف، وفي جو مواتٍ لها». وقد استنتج في دراسة وضعها حول ضريبة الدخل في ساكس (Saxe)، وبين فيها انه من العبث التأمل بايجاد حل للمشكلة الاجتماعية عن طريق اقتراح توزيع جديد للثروات لينتهي الى إعلان المبادىء لما ستصبح فيما بعد ديالكتيكية. «تزج حالياً حكومة كريسبي (Crispi) في إيطاليا، الاشتراكيين في السجون بحجة الاساءة الى الملكية الفردية. ويبدو لي انه لا يحق لمن يمارس النهب باسم الحماية الاقتصادية، وينسى في المصارف مبادىء «لي» «ولك» لا يحق له ان يدعي الدفاع عن الملكية».

يأخذون من الشعب من جهة بعض المبالغ لتوزيعها على الشركاء الذين يتمتعون بمنافع الحماية الاقتصادية، ولاهراقها في النفقات اللا مجدية. ومن جهة اخرى يرغب الاشتراكيون ان يأخذوا من الاغنياء، مبالغ تعادلها تقريباً في القيمة، لتوزيعها على الفقراء. الامران متوازيان. إنها قضية أشخاص لا قضية مبادىء.

خابت آمال باريتو (Pareto)، فلجأ يفتش عن المخرج في الدرس، والتفت بشغف الى البحوث الاقتصادية وخصوصاً الاقتصاد الرياضي.

عام ١٨٩١ تعرف الى والراس (Walras) الذي يعتبر مع النمساوي مينجر (Menger) والانكليزي جيفونس (Jevons) من كبار منظري الحدية (marginalisme) أو الهامشية. وقد خلفه

عام١٨٩٣ في جامعة لوزان (Lausanne). وهكذا تمكن باريتو (Pareto) من الانصراف كلية الى بحوثه وإعداد بصورة منهجية متلاحمة وتعميق كل البديهيات ، التي بلغها بالتجربة ، وعبر إتصالاته مع العالم السياسي والاقتصادي . ويمكن ان نتابع آثار تطور أفكاره بقراءة المقالات ، والملاحظات التي جمعت في مؤلفه أساطير وعقائد (Mythes et Ideologies) وفي سكريتي سوسيولوجيكي (Scrittisociologici) . ومنذ هذا الحين بدا علم الاجتماع ، الى جانب الاقتصاد ، في صلب تأملات باريتو (Pareto) . ويمكننا الملاحظة انه بدأ يعبر بوضوح منذ عام ١٩٠٠ ، عما سيشكل أسس علم الاجتماع

لديه ، ويسعنا ان نقرأ في دراسته المسماة تطبيق نظريات علم الاجتماع (une application des theories sociologiques) التي ظهرت في نفس ذلك العام : « يجب الانسان ان يربط ، رغم اندفاعه بحوافز لا منطقية ، يجب ان يربط أعماله بصورة منطقية ببعض المبادىء لتبريرها . إن الانسان الذي يخدع الآخرين بتأكيداته يكون قد بدأ بخداع نفسه وهو يؤمن بقوة بما يقوله » . كذلك برزت في هذه الحقبة بعض المبادىء الرئيسية في فكره اللاحق وخصوصاً الفكرة القائلة بأن التاريخ يتطور عبر تعاقب الأرستوقراطيات وكذلك عبر التمييز بين قيمة صدق النظرية ، ومنفعتها الاجتماعية .

يمكننا القول بأن باريتو (Pareto) على خلاف بعض المؤلفين لم يملك منذ محاولاته الأولى الاستبصار (الادراك الفجائي دون اعتماد على

خبرة سابقة) الاساسي لنظامه . بل نجد ان النظام قد تشكل بصورة تدريجية عبر التجارب والنشاطات المادية ، وإثر تأملات رجل ناضج في خيبات أمله ، وفي الطريقة التي ينتهجها الناس في عملهم . إذن من الخطأ الجسيم حصر فكر باريتو (Pareto) بذلك الوارد في مبحث علم الاجتماع العام (Traité de sociologie générale) لأنه يطفح عن هذا الاطار بنضجه . كذلك يكون الخطأ أكبر ، بالقول ان مفهومه سفيه بشكل تعسفي ، أو انه يرمي لتحقيق نزوات الكاتب . فهو في الواقع قد جاء نتيجة نضج طويل ، وبحث يقظ حول الواقع المعاش كل إنسان يعاني الفشل ، ويعرف خيبة الأمل ، لكنهم قلة هؤلاء الذين يتوصلون ، الى جعل تجربتهم موضوع تأمل . لا بد من الاختيار بين السذاجة وحدة الذهن . وقد تمكن باريتو (Pareto) من تحويل سذاجة شبابه الى تبصر ، حتى ان سفاهته أغنى بالملاءمة من السذاجة المنغلقة عن التجربة . وقد تكون صلافة باريتو (Pareto) وتهكمه كافية في إتيانه الدليل ، على ان بعض انواع السذاجة كاذبة ، لأنها تخفي تحت ستار المثالية لعبة الخبث والرياء .

سيعاني هذا الاستعراض لباريتو (Pareto) من نقص كبير ، إن لم نتحدث عن مظهر آخر من مظاهر شخصيته ، مظهر يمكن تسميته بالمتعية (مذهب قائل باللذة) . التي برزت في مؤلف نشره عام ١٩١١ تحت اسم الاسطورة والادب اللاخلاقي (Le Mythe Vertuiste et la Litterature immorale) . هذا المؤلف الذي ينال فيه من التصلب

الاخلاقي البروتسطانطي والانكلوساكسوني، لذي لا يكتفي بمنع كل ما يعتبره شهواني وفاسق بل يحظر كل ما هو طائش. ولم يبرز في أي مكان آخر بمثل هذا الانسياق، ثراء معرفته، ودفق قريحته الساخرة. وسهولة دعابته التي تجمع بين المجون وعلم البيان. وتشعر انه عند كتابته هذا المؤلف كان يتلذذ ويسعد مسبقاً بالفضيحة التي سيثيرها في صفوف الكبار. ولا شك ان الفكرة كانت تشكل في البداية جزأ من مبحث علم الاجتماع العام (Traité de sociologie generale)، ولكن تراكم الملاحظات دفعه الى فصله عنه. وهو يأسف لأن التصلب بلغ الدول اللاتينية ولكنه يفرض ارادته على الدولة. كان بوسع الكنيسة الكاثوليكية ان تعمد حيث تملك السلطة المدنية الى مطاردة وإتلاف ديكاميرون (Decameron) لبوكاس (Boccace). ولكنها لم تفعل ذلك. وان لم تسمح بأن يرد في المؤلفات الجدية هجوم شبيه بذلك الذي نراه في ديكاميرون (Decameron)، هجوم على الدين، والكهنة، والرهبان.

كذلك استغل بايل (Bayle) وفولتير (Voltaire) الفحش والبذاءة للتخفيف من خطورة تهجمهم على الديانة السائدة.

اليوم انقلبت الادوار وبات بوسعنا الهزء كما نريد من محرمات الدين، لكن شرط احترام محرمات الطهارة والعفة. فالدولة لا تملك النظرية الأرثوذكسية في التنظيم الاجتماعي، ولكنها تطبقها في الاحاسيس الجنسية. يمكن ان تعرض في كشك الجرائد جريدة فوضوية

«تدعي» انه يتوجب على البرولتاريا ان تشق بطون البورجوازيين... وتمنع عرض صورة إمرأة عارية.

لقد تغيرت أشياء كثيرة منذ العهد الذي وضع فيه باريتو Pareto) هذا الكتاب. ورغم هذا لا يمكننا اعتباره كتاباً «ظرفياً». فباريتو (Pareto) يبرهن فيه ان الفضائل (Vertuisme) انتشرت في كل العصور، ويثبت نظريته حول الانحرافات (Deviation) مؤكداً على الطريقة التي يحول بها الاخلاقيون الفضائل نحو أهداف سياسية. ونتعرف كذلك بصورة أفضل الى باريتو (Pareto)، لأننا نلمس بعض سمات شخصيته بوضوح أكبر: فهو فوضوي بطباعه، يقول بالليبرالية المتطرفة، أنه نفحة القرن التاسع عشر الذي تابع النضال من أجل المعرفة وناهض الجهل والظلمات. وهو يبحث في بعض النزق والخفة عوضاً عن حب العلم المتزمت.. وأخيراً نجد لديه ميلاً الى الوثنية والشرك (مذهب تعدد الآلهة) الذي يسمح بتقديس عدة آلهة بصورة متتالية.

الفصل الثاني

عالم الاقتصاد

عالم الاقتصاد:

عرف باريتو (Pareto) كعالم إقتصاد في البداية، ذلك ان بحوثه وكتاباته الاولى تتناول موضوع السياسة الاقتصادية، والتجارية، والمالية، وقضايا التبادل الحر والريع. وقد تحول بعد ذلك الى علم الاجتماع لأنه وجد ان تطبيق النظرية الاقتصادية، يصطدم بعقبات إجتماعية، عقبات تتشكل على السواء من الآراء المسبقة، والصعوبات التي تمتد أصولها الى الوضع الاقتصادي القائم، أو تصل بجذورها الى ضرورة الاخذ بعوامل اخرى، وعدم الاكتفاء بالعامل الاقتصادي الصرف. في البداية، أثارت هذه المقاومة باريتو (Pareto) الذي كان يعتقد ان النظرية الجيدة تحصل على موافقة الجميع، ليصار الى تطبيقها الفوري. وقد تغلب على الخيبة التي تملكته إثر الفشل الذي لقيه، تغلب عليها بالالتفات الى مشاكل العمل الانساني، وعلم الاجتماع عله يجد فيه سبب هذه المقاومة. وسنهمل كتاباته الاقتصادية الاولى لأنها تتشكل في غالبيتها من أعمال ظرفية، تهدف الى إدخال سياسة التبادل الحر الى إيطاليا.

إن لقاءه مع ولراس (Walras) ، وتعيينه أستاذاً في جامعة لوزان (Lausanne) ، هو الذي دفعه في توجهه الجديد وتبين بسرعة انه منظر مبتكر في الاقتصاد السياسي، يقول بالمبادىء الحدية أو الهامشية. لم

يرض باريتو (Pareto) بأن يبقى أستاذاً بسيطاً يكتفي بعرض نظرياته أو مناهجه، بل كان باحثاً، ومفكراً خلاقاً. وتوصل الى ان يكون رائداً في بعض ميادين مادته وخصوصاً الاقتصاد المتري. ولا يسعنا ان نحلل هنا كل فكر باريتو (Pareto) الاقتصادي، أي ان نعرض باختصار موجز الاقتصاد السياسي (Manuel d'économie Politique) أو دروس الاقتصاد السياسي (Cours d'économie Politique) أو المناهج الاشتراكية (Les Systèmes Socialistes)، وأن نقدم آراءه حول الرأسمال (Le Capital)، والريع، والنقد، والتوفير، والنظام المصرفي، وظواهر الانتاج والتوزيع، أو تأويل سكوته عن قضايا التمويل. وقد يجد بعض اختصاصيي العلوم الاقتصادية، مطعناً لتجاهلي بعض النقاط التي تبدو لهم هامة. ونظراً الى القيود التي يفرضها علي عملي أكتفي بالاشارة الى اهتمامات باريتو (Pareto) عالم الاقتصاد.

١ - الاقتصاد الصرف:

يقول ف بيرو (F.Perroux) ان والراس كان بكتابه عناصر الاقتصاد الصرف (Elements d'économie pure) رائد «منهجية» الاقتصاد، ويعتبر باريتو Pareto مهندسها ذلك ان هذا الاخير هو الذي وضع أسس المفهوم الاقتصادي الصرف بصورة متلاحمة، واضحة، وقد بسطه على علم الاقتصاد بكامله، فيما قيده والراس (Walras) بعلم إقتصاد السوق وحده. ونقصد بعلم الاقتصاد الصرف تحليل السياق الاقتصادي لذاته، بصورة مستقلة عن كل فرضيات علم النفس،

وغيرها من العوامل الاجتماعية ، والسياسية ، والاخلاقية ، والجمالية ، دون مراعاة أية قصدية خارجية. وقد عمد باريتـو (Pareto) لذلك الى إقصاء بعض نواحي العمل في العلوم الاقتصادية ، بعد ان رأى أنهـا لا تدخل ضمن إطار بحثه ، وهذا دون النيل من أهميتها :

(أ) يرفض باريتو (Pareto) كل نقاش حول الطبيعة النفسانية أو الفلسفية ، للحاجة أو الرغبـة ، فلا يأخـذ سوى بواقـع الأفضليات الوضعي . فالقضية بالنسبة اليه ليست معرفة سبب الحاجة الانسانية ، فهو ينطلق من وجود الرغبة الوضعي ، ليستخرج منها الآثار والنتائج الاقتصادية . كتب الى أدريان نافيل (Adrien Naville) في رسالة وجهها اليه في ١١ كانون الثاني ١٨٩٧ : « يبدو لي ان قضية علـم الاقتصاد الصرف محلولة . فالشخص الذي يملك نبيذاً ويريد مقايضته بالدجاج ، يملك بلا شك مجموعة من القوى التـي تدفعـه الى شرب النبيذ ، ومجموعة اخرى من القوى التـي تدفعـه الى أكل الدجـاج . والانسان الاقتصـادي (homo oeconomicus) هو ميزان متـراوح الدقة في تقدير وتقييم هذه القوى . يمكنني الافتراض بأن الميزان دقيق . وبناء نظرية تشبه الى حد ما الآلية القياسية . وأنا لا آتي بأية فكرة مسبقة عن طبيعة هذه القوى ، ولا أحتاج قط الى بحث حتميتها ، وحرية الاختيار مثلاً . لقد أقصيت كل الصعوبات ، وتركت لعلم النفس مهمة إيجاد حلول لها .

(ب) يهمل باريتو (Pareto) قضية الوضع الاقتصادي ، الـذي

يهدف تحليله الى إيجاد حلول عملية لوضع مادي ملموس، وقائم، أي ما يسميه الارشادات المفيدة للأفراد والسلطاتالعامة. (Les recettes utiles aux particulierset aux autorités Publiques)

(ج) يرفض الادعاء بتقديم نتاج يقيم الاوضاع القائمة، أو يتوقع وقوع أحداث معينة، بمعنى وضع عقيدة إقتصادية واجتماعية كالماركسية مثلاً، التي تدعي توفير السعادة للبشر. إن فكرة علم الاقتصاد الصرف توجب عزل النشاط الاقتصادي بين بقية النشاطات الانسانية الاخرى، لتحديد مفترضاتها الخاصة، ولنبحث عن تماثلها واطرادها، والثابتة الصحيحة في كل نظام إقتصادي، لنأخذ منها الاستنتاجات المنطقية. وهو يحدد مشروعه في رسالة وجهها الى صديقه مافيو بانتاليوني (Maffeo Pantaleoni) الاقتصادي الايطالي: «أسمي علم إقتصاد صرف مجموعة النظريات الناتجة عن المسلمات المتعبة مع بعض أو دون خصائص علم النفس الانساني. يدرس علم الاقتصاد الصرف الرجل الاقتصادي (Homo Oeconomicus) الذي توجهه فقط الرغبة في الحصول على أكبر قدر من المنفعة، ببذل أقل جهد ممكن. ويضيف علم الاقتصاد التطبيقي على هذه الصفة الاساسية للرجل الاقتصادي بقية الصفات التي نعرفها. وأنا شخصياً لا أهتم كثيراً بهذا التصنيف. فأي تحديد ثان يمكن ان يكون جيداً، شرط ان نبين علاقاته مع الاشياء».

يرتكز علم الاقتصاد الصرف على معيار واحد، هو معيار الانسان

الفاعل إقتصادياً، أو الرجل الاقتصادي (Homo Oeconomicus)
الذي يعمد لبلوغ هدف محدد الى استغلال الوسائل الملائمة، بعيداً عن
كل تحديد اخلاقي أو أي تحديد آخر يمكن ان يدخل في عمل مادي.
يقتصر هذا الانسان الاقتصادي (homo oeconomicus) على
الاختيار الذي يقوم به الفرد، ليضمن أكبر إشباع لرغباته. بكلمة
اخرى يمكن القول ان علم الاقتصاد الصرف، يأخذ بشخص معين
عندما يحدد أفضلية معينة، دون الحكم على ملاءمة الاختيار، أو قيمته
الاخلاقية، ولا على ميزات الاشياء المختارة والمنتقاة. فهو يكتفي
بملاحظة وجود مثل هذه الافضليات دون ان يسعى الى معرفة إذا كانت
مفيدة أولا، جيدة أو سيئة. إنه يبقى محايداً. وتشكل هذه الافضليات
أحداث موضوعية لأنها قابلة للمراقبة، رغم ان القرار يبقى شخصياً،
لأنه مرتبط بارادة الشخص، الذي يرى فيه منفعة له. هذا كل
ما يحتاجه علم الاقتصاد الصرف لرسم مسلك الانسان الذي يلجأ في
سبيل تحقيق أكبر إشباع لرغباته، الى الوسائل والمصادر المتوفرة. وهذا
يشكل عملاً منطقياً يمكن تحديد هدفه، ووسائله بدقة شرط الاكتفاء
بالوسائل الملائمة للهدف، أي الموجهة لتحقيق أكبر قدر من الاشباع.
ويقول باريتو (Pareto) في هذا الخصوص «موضوع دراستنا هو
الظواهر الناتجة عن النشاط الانساني الرامي الى امتلاك الاشياء التي
تشبع حاجاته أو رغباته». وإذا كانت بنيوية هذا النشاط لا تعرض اية
صعوبة في التحليل، فان الامر يختلف بالنسبة للمفردات المستعملة عادة
لأنها تولد الكثير من الابهام. كما هو حال مفهوم المنفعة.

يمكن لمفهوم المنفعة ان يحمل معنيين في علم الاقتصاد. فهو من جهة يعني ما هو مفيد، أو قيم، أو مؤات، أي كل ما هو غير ضار، ويعني من جهة اخرى الشيء الذي يؤدي الى إشباع رغبة. لاهم إذا كان هذا الشيء نافعاً، أومضراً، ويعتبر هذا المعنى المزدوج مصدر إبهام والتباس، ذلك ان علماء الاقتصاد غالباً ما ينتقلون من معنى الى آخر، تاركين الاعتقاد بأنهم يتحدثون عن امر واحد. فيثيرون بهذا الريبة التي تبلبل تسلسل منطقهم، وتؤدي الى تهافت صحة براهينهم. واقترح باريتو (Pareto) لتجنب هذه الخلافات استعمال كلمتين مختلفتين، المنفعة (Utilité) للاشارة الى كل ما هو مفيد ومؤات، والملاءمة (Ophélimité) للاشارة الى نسبة الملاءمة التي تؤدي بشيء، الى إشباع رغبة أوحاجة سواءكانت مشروعة أم لم تكن ... فالنبيذ مثلاً يصلح لاشباع رغبات مدمن رغم انه غير مفيد لصحته، إذن المنفعة تفرض التثمين، دون الملاءمة التي تبين الحدث القائم، والموضوعي لقدرة شيء معين على إشباع حاجة محددة. إذن يمكن تحديد منفعة الشيء من الزاوية السياسية، والاخلاقية، والدينية، كأن نتساءل عن أيها أكثر منفعة لأمة ان تحقق ازدهارها عبر نشاطها الاقتصادي، ام ان تبلغه عبر غزواتها العسكرية. ولا يحق لنا ان نسأل على الملاءمة (Ophélimité) التي تعبر رغم طابعها الذاتي والشخصي لارتباطها بحاجة ورغبة الفرد، تعبر عن واقع موضوعي في نسبة وعلاقة الملاءمة. هذه الملاءمة (Ophélimité) شخصية بمعنى ان طابع البريد يثير إهتمام من يهتم بجمع الطوابع دون غيره من الناس، وهي موضوعية باعتبار ان طابع

البريد هو الذي يشبع رغبة الهاوي. إذن حين يعتبر علم الاقتصاد الصرف مسلك الرجل الاقتصادي (Homo Oeconomicus) ، مسلك من يريد أكبر إشباع لرغباته فانه يقصد الملاءمة (Ophélimité) لا المنفعة. ويختلف هذا العلم. بهذا، عن بقية الميول الاقتصادية التي تبقي تحقيق المنفعة سواء بتقديمها حل لوضع معين (هل يتوجب زيادة إنتاج مؤسسة أم لا)، أو ترمي الى تحقيق سعادة البشر (عبر الاشتراكية مثلاً، لا عن طريق الرأسمالية). إذن يمكن تحديد الرجل الاقتصادي (Homo Oeconomicus) بالفرد، الذي يرنو الى أكبر قدر من الملاءمة(Ophélimité)، باعتبار انه يتوجب عدم الخلط بين هذا الاشباع مع اللذة الكبرى او المتعة. فالأمر بالنسبة للناسك يعني حرمان الذات، إذن يبقى الفرد الحاكم في تقدير أفضلياته لتصبح بعد ذلك الملاءمة (Ophélimité) أوفق وأنسب طريقة لاشباعها.

يمكن لنا الاسف، لأن علماء الاقتصاد لم يأخذوا بهذا التمييز بين المنفعة (Utilité)، والملاءمة(Ophélimité) كان باريتو Pareto مستعداً للتخلي عن هذا التعبير وتبني آخر إذا رفضه صنفاتيو اللغة (هؤلاء الذين يتكلفون الحرص عليها)، ولأن مرادف الملاءمة (Ophélimité) لم يلق الرواج الذي تطلع اليه باريتو (Pareto) فقد كان هذا الامر كفيلاً بتوفير الدقة للغة الاقتصادية، ومنعها من الوقوع في الخطأ والغلط. وأقدم مثلاً على ذلك حين يكتب ريكاردو (Ricardo) «لا يمكن للماء والهواء وهما ذات منفعة كبيرة، وضروريان

لحياة الانسان، لا يمكن لهما في ان يعطيا في الحالات العادية كبديل مقابل أشياء اخرى. فما يمكن للذهب الذي لا يمتلك منفعتها بالمقارنة ان يستبدل بكمية كبيرة من البضائع.» ويلاحظ باريتو (Pareto) محقاً ان هذه المقارنة غير ممكنة، لأن كلمة المنفعة استعملت للدلالة على معنيين مختلفين، مرة بمعنى الملاءمة (Ophélimité) ومرة ثانية بمعنى المنفعة Utilite السائد..

في البداية، كان باريتو (Pareto) يملك ثقة كبيرة في إمكانيات علم الاقتصاد الصرف، لأنه كان يعتقده قادراً على إيجاد الحلول لكافة المشاكل الاقتصادية. وكان هذا الامل ينبع من مفهومه للعلم الاقتصادي بصورة عامة، فهو علم طبيعي، كعلوم الكيمياء والفيزيولوجيا، علم طبيعي أساسه الآلي علم الاقتصاد الصرف. وكتب عام ١٨٩٨ «ان علم الاقتصاد الصرف لا يشبه فقط الآلية، بل هو نوع من أنواع الآلية»، وأضاف حين نطرح القضية الاقتصادية، نصل الى معادلات هي معادلات الآلية في في الفراغ المتعدد الاحجام. والمعادلات متطابقة في الحالتين وكذلك الحلول. وقد راعى باريتو (Pareto) أكثر الحذر، حين علمه التأمل في علم الاجتماع، ان ما يمكن حله بواسطة المنطق، والتحليل النظري لا يطبق بالضرورة عملياً، نظراً الى قوة العوامل غير الاقتصادية، والحياة السياسية والاجتماعية بصورة عامة. فالحياة لا تخضع الى أدوات التحليل النظري الدقيقة. وهكذا كتب عام ١٩١٣ «يخطىء كل من يرغب في إيجاد حل

لقضية عملية، في نظريات علم الاقتصاد الصرف، أو حتى في نظريات الاقتصاد التطبيقي، فلا بد من الاخذ باعتبارات الكثير من العلوم الاجتماعية. كما يخطئ من يرغب في زراعة حقل موكلاً أمر هدايته لاعتبارات علم الكيمياء وحدها. هل يمكننا الاستنتاج من هذه الوقائع الاكيدة، ان النظريات الاقتصادية مغلوطة، وغير مجدية في معرفة الظواهر الاجتماعية، وان النظريات الكيميائية خاطئة ومضرة بمعرفة الظواهر الزراعية؟ كلا بالطبع. الاستنتاج المشروع الوحيد، هو ان هذه النظريات لا تراعي سوى جزء من الظواهر، وانه لا بد من إضافة نظريات ثانية اليها، نظريات تأخذ بقية الاجزاء بعين الاعتبار. يبدو لي من المفيد دون التشديد مطولاً على تطور باريتو (Pareto) الفكري في هذا الميدان، فقد انتهى الى الاعتراف ببعض فضائل الحماية الاقتصادية، التي عمل دائماً على مناهضتها باسم إيمانه العنيد بالتبادل الحر، يبدو لي من المفيد تحديد مهمة علم الاقتصاد الصرف المحددة والدقيقة كما بينها:

(أ) يهدف علم الاقتصاد الصرف، الى تحديد المفاهيم الاساسية في الحياة الاقتصادية بدقة، كتحديد مفهوم التبادل، والقيمة، والرأسمال والاحتكار الخ، التي تبدو الحياة الاقتصادية مستحيلة بدونها. وهذا النشاط واسع باعتبار ان باريتو (Pareto)، يرغب بالوصول الى منهاج عام في الاقتصاد، يكون صالحاً لكل الانظمة سواء كانت رأسمالية أو إشتراكية. وقد كتب يقول «يجب على علم الاقتصاد الصرف ان يساهم

في وضع قوانين الظواهر لكافة المجتمعات، سواء تلك التي تسود فيها الملكية الفردية، أو تلك التي تقوم فيها الملكية الجماعية. يجب ان يتيح لنا اي تنظيم توقع وترقب، الآثار الاقتصادية.» وتوجد في الواقع بعض القوانين الاساسية التي يعجز أي نظام عن نكرانها من الناحية التطبيقية وان كان يرفضها نظرياً، وعقائدياً، وهذا حتى لا يجمد التطور الاقتصادي وبالتالي السياق الطبيعي للحياة الاجتماعية.

(ب) يعود لعلم الاقتصاد الصرف تحديد العلاقات التضمينية التصورية (المتعلقة بالتصور) للمفاهيم الاقتصادية للفصل، بين ما يتعلق بالسياق الاقتصادي وحده، وما يعود الى الحكم الاخلاقي أو الظروف التاريخية. وقد قال في كلمة تسلمه منصبه كاستاذ عادي «الا يبدو لكم من المفيد معرفة كنه الرأسمال وماهية وظائفه الاقتصادية قبل إبداء الرأي حول ضرر أو منفعة حيازة الرساميل على المجتمع؟ اليس من المفيد كذلك ان نطلب من التاريخ، وعلم الاحصاء، إضاءة سبيلنا لمعرفة طريقة تحول الاموال الاقتصادية بين بعضها البعض؟ هل تعتقدون انه من غير الضروري محاولة تنظيم هذا العدد الضخم من الوقائع والاحداث، وتنظيمها لاستنتاج قوانينها العامة؟ هذا هو هدف علم الاقتصاد الوحيد». هناك سمات تصورية تجعل الريع ريعاً، وترتبط بالمفهوم نفسه، وتستقل عن الظروف التاريخية المتباينة، بمعنى ان كل جيل يضيف عليها سمة ثانوية ويحذف اخرى بدت في الماضي أكثر أهمية. هناك عدد كبير من النظريات الاقتصادية التي تتعلق بهذه

المظاهر الثانوية، والمتبدلة فترفعها مخطئة الى مصاف السمات الاساسية، فينتج هذا الابهام المضر بالادراك العقلاني للظاهرة الاقتصادية. ولا شك ان المفهوم الصرف الناشيء عن التجرد النظري لا يتوفر على صعيد الواقع المادي، الا ان لا حقيقته تساهم في فهم الواقع بصورة أفضل، وإذا تجاوزنا المذهب الطبيعي الضمني الوارد في الاشارة الى الآلية القياسية، فان منهج باريتو (Pareto) قريب أحياناً رغم نظريته من نموذج ويبر (Weber) المقالي: «هكذا يقرب علم الاقتصاد الصرف من الآلية القياسية، التي تدرس بدورها سمات الاجسام المثالية فالأجسام الصلبة التي تدرسها الآلية القياسية لا تتوفر قط في الطبيعة، كالرجل الاقتصادي (Homo Oeconomicus) تماماً.

(ج) أخيراً يوجب على علم الاقتصاد الصرف، منهجة السياق الاقتصادي.. «فنحن نشهد منذ بعض الوقت ميلاً الى إعطاء شكل وصيغة جديدين للعقائد الاقتصادية. فنحن نعمل على منهجتها بتطبيق المنطق الرياضي عليها.» يمكن بفضل هذه المنهجة اكتشاف الاطراد والثابتة، أي قوانين الحياة الاقتصادية. علماً ان مثل هذا البحث لا يؤدي الى الفهم الشامل لمجموعة الظواهر الاقتصادية.

نلاحظ ان علم الاقتصاد الصرف لا يملك كالاقتصاد السياسي منفعة مباشرة، ولا يملك هذان العلمان سوى فائدة نظرية وهي اطلاعنا على التماثل التجريبي لبعض الظواهر التي نعتبرها قوانين.

قاتل باريتو (Pareto) بضراوة ونادى بتطبيق الرياضيات في علم الاقتصاد لمنحه بعض الدقة. وهاجم من سماهم برجال الاقتصاد من الادبـاء (Economistes Litteraires). ورغـم إيمانـه المطلـق، في البداية، بامكانية إيجاد الحلول لكل المشاكل بواسطة المعادلات، تراجع عن موقفه، وهاجم أستاذه ولراس (Walras)، واتهمه بالتصلب حول هذا الموضوع. فقد كتب باريتو (Pareto) في مقدمة النظرية الرياضية للتبـادل (La Theorie Mathematique de léchange) ل أ. أوزوريو (A.Osorio) عام ١٩١٣: «وهم البعض انهم بتطبيقهم علم الرياضيات على علم الاقتصاد السياسي، يسبغون على براهين هذا العلم، الدقة والحتمية التي تفتقر اليها، ليجبروا العالم على القبول بها. وقد ارتكب ولراس (Walras) هذا الخطأ ليس فقط فيما خص علم الاقتصاد الصرف، بل أيضاً في القضايا العملية معتقداً بقدرته على فرض حلها باسم الدقة الرياضية. وليس من داع لاضافة القول بأنه أخطأ بهذا تماماً. ولا يمنع هذا من ان يكون باريتو (Pareto) رائداً في ميدان علم الاقتصاد المثري. وكان يرى فائدة مزدوجة من اللجوء الى الرياضيات: فهي تساهم من جهة في بناء «مرادفات تقنية» ضرورية لكل علم يرغب في تجاوز إبهام مفهوم التعابير العادية، كمرادفات علماء الاقتصاد الادباء الذين يجهلون مفهوم الدالة المستمرة (Fonction Continue)، ويخلطون بين الميل الى النمو والنمو اي انهم يخلطون من الناحية الرياضية بين المماس، والمنحنى البياني (La tangente avec sa courbe) وهي تعوض من جهة اخرى عن نقص المنطق

المألوف. فهذا المنطق قادر على معالجة القضايا التي تراعى فيها المسببات وآثارها. ويعجز في حالات التبعية التعاونية، حيث يفترض اللجوء الى منهاج خاص: المنهج الرياضي.» وبعد إيراد هذه العبارة يؤكد بوجود مجال للجميع: للاقتصاديين الادباء، ولعلماء الاقتصاد الرياضيين. ويعود الى نموذج العلوم الطبيعية ليعلن: يمكن لكل فرد ان يختار المنهج الذي يوافقه. فنحن نرى بين الفلكيين أنفسهم من يطور النظرية الرياضية، فيما يكتفي البعض الآخر بالمراقبة دون الاهتمام بالنظرية. وهم يساهمون جميعاً بنفس القدر في تقدم العلم.. إذن يملك الاقتصاديون الذي لا يرغبون الاخذ بالرياضيات مجالاً واسعاً للمساهمة بنشاطاتهم. ولا يحتاجون الى النظر بحسد الى الميدان الذي يجهد بعض زملائهم في استثماره.

ورغم متطلباته فيما خص الدقة، رفض باريتو الايمان بعلم المنهج: «فليس هناك من منهج علمي لا يخطىء، فكافة المناهج تتراوح في جودتها. لقد تطرف بعض المحدثين في مواقعهم، فذهبوا الى القول بعجزنا عن دراسة علم الاقتصاد السياسي دون اعتماد المنهج انرياضي... كان البعض ينكر التقدم الذي أتوا به على هذا العلم، فانكروا بدورهم ما جاء به، الذين سبقوهم وتقدموا عليهم». لقد أصبح باريتو مع اكتساب الخبرة أكثر ليونة في مفهومه لكنه لم يخفف من تهكم أسلوبه، بل أمعن في انتقاد أفكاره هو، ليمنح قيمتها العادلة، هذه الفكرة الرائعة التي طورها ستيورات ميل (Stuart Mill) في الحرية

(On Liberty) لا يمكن القول بصحة مبدأ إن دحـر منتصراً « كل هجوم عليه».

٢ - التوازن الاقتصادي:

نكرس فقرة خاصـة لنظـرية التـوازن الاقتصـادي لدى باريتـو (Pareto)، لاعتقادنا، بأنها أسـاسية في فهـم نظريتـه الاجتماعية، وخصوصاً مفهومه الاسـاسي حول التغـاير الاجتماعـي وتبعية الظواهـر المتبادلة. أخذ باريتـو (Pareto) مفهـوم التـوازن هذا عن ولـراس (Walras) أيضـاً، ولكنـه منحـه بعـداً بالمعالجـة المقارنـة للتـوازن الاقتصادي والتوازن الاجتماعي، وأود ان أؤكد منذ الآن على ان مفهوم التوازن يشكل اللحمة إذا جاز التعبير في فكر باريتو (Pareto) العام. فنظريتـه الفيزيائية تدور حول توازن الاجسـام، وترتـكز نظريتـه الاقتصادية على التوازن. وينتهي مبحث علم الاجتماع (Traite de Sociologie) بعد ان يجد عناصر نظريته الاجتماعية بفصل عن التوازن الاجتماعي. يبدو لنا إذن أننا نقف أمام المفهوم الاساسي الذي يوجه كل فلسفته وإدراكه للأشياء.

يمثل تحقيق مفهومه حول التوازن، يمثل كمياً مجموعة القـوى أو الظروف التي تؤثر معاً على نظام معين سواء كان نظـام الانتـاج، أو الاستهلاك، أو السكان. ويرتبط هذا المفهوم بقانون ما يسـميه تبعية

الظواهر المتبادلة، الذي يعني ان كل حالة تخضع كل مرة الى عدة مسببات أو ظواهر تؤثر وتنفعل باستمرار ببعضها البعض. بكلمة اخرى لا تنتج اية حالة أو وضع عن مسبب واحد بل عن مسببات متعددة. وكان لباريتو (Pareto) مع بعض الآخرين أثراً فعالاً على تطور «مبحث العلوم» الحديث في العلوم الاجتماعية. فهو من الذين دحضوا فكرة المسبب الواحد التي سادت طويلاً، دحضها بمعنى انه يكفي معرفة مسبب الظاهرة الواحد لنستطيع توقع آثارها الثانية. كذلك هاجم النظريات الباحثة عن السبب الوحيد للقيمة، وعن مسبب زيادة السكان ونقصانهم. فهناك دائماً مسببات تعمل متلازمة. لا بد من البحث عن المسببات، وعدم الاكتفاء بالبحث عن مسبب واحد. ذلك ان جهل تبعية الظواهر المتبادلة، هو مصدر عدد كبير من الاخطاء، ومنها خطأ ادعاء تفسير وضع إجتماعي من الناحية الاقتصادية الصرفة أو توضيحه بالظروف الفيزيائية كالمناخ أو الموقع الجغرافي أو الجنسي.

إن الفكرة القائلة بأن الرفاه الاقتصادي، والاخلاقي للشعب يرتبط بصورة أساسية، أو خصوصية بشكل حكومته كانت سائدة في الماضي، وما تزال قائمة اليوم. وقد وقع بعض الاقتصاديين الذين رغبوا في مكافحة هذا الخطأ في غلط ثان حين نفوا تأثير شكل الحكومة على رفاه الشعوب. ونجد نفس الاخطاء فيما خص تأثير التشريع. فمن الخطأ الاعتقاد بأن القوانين قادرة على تغيير وضع الشعب الاجتماعي، كذلك من الخطأ القول بعجزها المطلق.

يمكن في بعض الظروف المحددة، ان تمارس سلسلة من المسببات

تأثيراً قوياً، ولكننا لا يسعنا الاستنتاج دائماً بأنها قادرة على ممارسة هذا التأثير دائماً وبصورة مطلقة، ومهما اختلفت الاوضاع، وتباينت. إن الايمان بسبب واحد منفرد، هو الذي يقف وراء الحلول الخاطئة التي تقدمها بعض النظريات الاقتصادية، والاجتماعية كالاشتراكية مثلاً التي تعتبر توزيع الثروات السبب الرئيسي في شكل النظام الاجتماعي، والتي تعتقد انه يكفي تعديل هذا السبب؛ بالغاء الملكية الفردية مثلاً، لتبديل آثار أو مجموع النظام الاجتماعي. والادعاء مع ماركس (Marx) بأن الاقتصادي يملك في التحليل الاخير الكلمة الفصل، يعني اللجوء الى تعبير آخر لأعطاء الاولوية أو التفوق لسبب واحد، لأن ديالكتيكية البنى والبنى الفوقية لا تغير شيئاً من السببية المطلقة التي ترتكز عليها النظرية. إذا كان الوضع الاجتماعي والاقتصادي يحدد بالتأكيد تطور الوضع الثقافي، فان هذا الاخير يحدد بالمقابل الوضع الاقتصادي. ولا نستطيع ان نغلب معنى أحد هذين النظامين من المسببات دون البعد عن الوضع العلمي، والتحليق في الابعاد الماورائية. ذلك «ان توزيع الثروات جاء نتيجة وأثراً لهذه الظروف. والدليل سهل. يكفي مراقبة ما يجري في مختلف الطبقات الاجتماعية، إذ يولد الكسالى والغافلون في صفوف الفقراء كما يولدون بين الأغنياء».

ونظراً الى تعدد الاسباب والمتغيرات التي تؤثر بالتلازم والترابط، فان باريتو (Pareto) يعتبر ان مفهوم التوازن هو الانسب لتحديد الوضع الاقتصادي والاجتماعي. مع الملاحظة بأن حل القضية

الاقتصادية أهون من حل المشكل الاجتماعي لأننا نقف امام ظروف متجانسة ونشاطات إنسانية متكررة، تهدف الى إشباع رغباتهم. ويحدد باريتو (Pareto) التوازن الاقتصادي بقوله: «يمكن القول بأن التوازن الاقتصادي هو الوضع الذي كان ليستمر، ويبقى لولا هذا التبدل المستمر للظروف التي نراقبه عبرها. وإذا كنا حالياً لا نأخذ سوى التوازن المستقر فانه يسعنا التأكيد بانه محدد بشكل يرمي معه الى الاستتباب والعودة الى حالته الاولى، إذا عدل ببطء». ويمكن ان نقدم مثلاً على هذا التحديد: «من وجبة الى اخرى يشعر الفرد بدافع يظهر عبر الحاجة الى الطعام. وهو يتوقف، وتنتهي الحاجة حين يحصل الفرد على وجبته. هذا هو الوضع الواجب دراسته في الاقتصاد حتى لا نضيع في تفاصيل باهته لا مجدية. يمكن ان نطلق على هذا الوضع إسماً معيناً، وان نشير اليه باحدى حروف الهجاء، الحرف م مثلاً. ويمكننا ان نسميه بالقياس مع الظواهر الآلية، حالة التوازن.

يمكننا بعد تحديد التوازن النهائي، وإذا رأينا أن تعديل إحدى شروطه المكونة تعدل الوضع نفسه، يمكننا ان نحدد نسبياً على الاقل الاثر السببي الذي تمارسه، وهكذا يعتقد باريتو (Pareto) أن هذه الظاهرة تشكل عملية تقارب أولى، يساعد بعمليات تقارب ثانية متتالية على فهم الظاهرة المادية بصورة أفضل. من ناحية المبحث العلمي يكتمل مفهوم التبعية المتبادلة بمفهوم التقارب المتتالي. ونقصد بهذه العبارة الاخيرة تعدد وسائل التقارب من أجل توضيح الظاهرة بصورة

أفضل. هذه الظاهرة التي تعجز عن تفسيرها بشمول. ويقول باريتو (Pareto) يمكن مقارنة دراسة الظواهر الاقتصادية بدراسة مساحة الأرض. إننا نملك مفهوماً محدداً يشبه شكل الأرض بالكرة، ولكن هذا المفهوم لا يشكل سوى تقارب أولي، تقارب يهمل قمم الجبال ولجج المحيطات. ويقدم لنا علم الجغرافيا التقارب الثاني، ليقدم علم الطوبوغرافيا التقارب الثالث. لكننا لن نملك أبداً وصفاً للقارة، وصفاً يأخذ بعين الاعتبار أصغر جنوة خلد وأضأل حصاة. كذلك لن نعرف أبداً الظاهرة الاقتصادية، بأدق تفاصيلها. ولكننا نستطيع ان نمتلك صوراً أكثر قرباً. ويؤدي مفهوم التوازن الاقتصادي الاساسي في العلم، الى التقرب الاول من الظاهرة الاقتصادية. وهذا القول يسري على كل نظرية علمية، لأن أي منها لا يوضح حرفية الظواهر التي تشتملها، إنها عملية تقارب يتوجب علينا إصلاحها باستمرار، والتخلي عنها أحياناً لاعتماد اخرى أنسب. لا بد من فهم مفهوم التوازن الاقتصادي لدى باريتو (Pareto) ضمن هذا السياق لمبحث العلم، حتى لا يخطئ النقد كما جرى ل ج بيرين (G.Perrin) في علم الاجتماع لدى باريتو (Sociologie de Pareto).

حدد باريتو (Pareto) لأسباب تتعلق بامكانيات التوضيح الرياضي، تحليله الوضعي بالناحية الاحصائية، كدراسة ظاهرة منعزلة كانتاج أو استهلاك كمية محددة من البضائع، ودراسة ظاهرة مستمرة: هذا الانتاج أو الاستهلاك ضمن وحدة زمنية محددة. وهو لم يهمل أبداً

كما يدعي البعض أو ينال من أهمية الظواهر المتحركة : فهو يلاحظ فقط ان عالم الاقتصاد يملك عدداً قليلاً من العناصر، ويفتقر الى النظرية الرياضية الملائمة لمعالجتها بصورة صحيحة. ان قسم الظواهر المتحركة يهتم بعمليات التوازن المتعاقبة، باعتبار ان الترابط بين عمليات التوازن هذه يمكن ان يؤدي الى نظرية حول التطور. بمعنى انه يمكن ان ينتج عنها نمو في الناحية الانتاجية مثلاً. لقد اهتم باريتو (Pareto) بصورة خاصة بالازمات الاقتصادية التي تشكل احد مظاهر الحركة الاقتصادية، وكرس لها فصلاً كاملاً في دروس الاقتصاد السياسي (Cours d'économie Politique). وهو يبين فيها انه من الخطأ تفسير الازمات الاقتصادية على انها مظاهر إنهيار، لأنها تظهر في مرحلة الازدهار كما تظهر في مرحلة الركود، فهي لا تشكل ظواهر شاذة أو حوادث، ونحن لا نملك للأسف بعد الآداة الرياضية الضرورية لتفسير هذه التموجات الطبيعية، كما نفتقر الى نظرية أوالية تموجية. على كل لا يمكن تفسير الازمة بالاحصاء وحده لأنها تشكل مظهراً حتمياً من مظاهر التطور، نظراً لطابعها التموجي وهو يطرح هذا السؤال: «لو ملكنا منع وقوع الازمات بصورة مطلقة فهل من المفيد لنا إقصاؤها ؟ قد نميل الى الرد إيجاباً، الا ان التعمق في دراسة المسألة يثير الشكوك، فليس من المؤكد ان الحركة المنتظمة لا تشكل بعض شروط التقدم الاقتصادي. يبدو على العكس من ذلك ان هذه الحركة هي تعبير عن حيوية البنية الاقتصادية. فتعاقب الهدوء والاثارة ضروري لكافة

الاجسام الحية . ولا بد من النظر الى نقد ف بيرو (F.Perroux) لنظرية التوازن لدى باريتو (Pareto) من ضمن هذا الاطار. وهو يلاحظ من جهة ان التوازن بحد ذاته «لا يمثل حياة الاقتصاديات التجارية، ولا يصور تماماً شروط الامثل، ولا يشكل وسيلة أكيدة لتصنيف التغيرات وفهمها.... فمعنى الصورة يضيع كلما قدمت العلاقات بين الافراد والاعداء على انها علاقات بين الاشياء بين التشابه الفيزيائي.» ومن جهة اخرى يمكن تحسين التعبير المنطقي لعالم باريتو (Pareto) بالقدر الذي نريد.. ولكننا نعجز عن تغيير موقف الفكر المركزي ومفهوم التوازن الاقتصادي كما يقدمها باريتو (Pareto) حتى لا نقضي على إمكانية إدراك القرار الجمعي (Macro decision) ذلك «أن توازن باريتو (Pareto) هو آلة تهدف الى إقصاء النية والقرار الاجمالي، الكلي».

وهذه الملاحظات محقة تماماً، إذا راعينا نظرية باريتو (Pareto) التي اقتصرت على الاحصاء وحده. الا ان قراءة مؤلفاته تشير الى انه لم يستبعد ضرورة بناء آخر بمجرد الانتقال الى الظاهرة الاقتصادية المتحركة التي تنتمي اليها القرارات الجمعية وبالتالي ضرورة الانطلاق من معطيات اخرى مختلفة عن تلك المقبولة على صعيد الاحصاء. الا ان، وهنا يبلغ انتقاد ف بيرو (F.Perroux) كل بعده، الارادة السياسية الفاعلة على صعيد الاقتصاد الكلي تشكل متغيرة يصعب إخضاعها لعلم الرياضيات في الظروف الحالية على الاقل. لذا فان

النظرية المتحركة للتوازن لن تصطدم فقط بصعوبة الترجمة الى تعابير التطور الرياضية بل إختزالية الارادة أيضاً.

إذا درسنا التوازن الاقتصادي من الناحية الاحصائية نجد انه قضية تعارض بين الحاجات والندرة أو انه وفق عبارة باريتو (Pareto) : « التعارض القائم بين ميول الانسان، والعقبات التي تقف أمام إشباعها. » القضية إذن ليست معرفة إذا كان هذا الانسان يفضل شراء المقانق على النبيذ، أو يفضل اقتناء سيارة بدلاً من المجوهرات، بل هي تحديد السياق المميز لمختلف النشاطات. ومن هنا تبرز أهمية مراعاته من الناحية المثالية المجردة، بصورة مستقلة عن الرغبات الخاصة. ويعني التجرد أننا لن نأخذ سوى بالمظاهر الاقتصادية الصرفة للظواهر. وهذه الظواهر متعددة جداً بسبب تبعيتها المتبادلة، الى حد تجعل معه اللجوء الى المنطق العادي غير كاف، لتستدعي المنطق الرياضي الذي لا يشكل كما يقول باريتو (Pareto) منهجاً يتعارض مع بقية المناهج، إنه منهج بحث وبرهان يضاف الى الآخرين.

وهذه الطريقة في العمل لا تولد أية صعوبات؛ ولكن يمكننا معارضة النزعة الطبيعية الكامنة ضمن تفضيله للميكانيكية القياسية. يوفر توازن النظام الاقتصادي تشابهاً كبيراً مع توازن النظام الآلي. فحين نعرف هذا التوازن الاخير نمتلك أفكار واضحة عن الاول. ويقدم باريتو (Pareto) في دروس الاقتصاد السياسي (Cours d'économie Politique) سلسلة من التشابه بين الميكانيكية وعلم

الاقتصاد الصرف. فكما ندرس في علم الميكانيك علاقات التوازن والحركة بين الاجسام المادية المعطية المجردة عن بقية ميزاتها ، كذلك ندرس في علم الاقتصاد الصرف العلاقات بين الانتاج وتبادل الثروات في مجتمع معين بعيداً عن بقية الظروف. وكما ان الجسم المادي لا يقتصر فقط على السمات الميكانيكية وحدها فان الظاهرة الاجتماعية لا تقتصر على سماتها الاقتصادية وحدها ، ذلك ان علم الاقتصاد الصرف لا يشكل سوى جزء من علم الاقتصاد العام وان علم الاقتصاد هو جزء من الظواهر الاجتماعية.

ورغم ان باريتو (Pareto) يؤكد على ان الامر لا يتعدى القياس بين هذين النوعين من الظواهر، وان لا قيمة برهانية لهذا القياس. الا انه يتكلم أحياناً وكأنه يطابق بينهما. ودون الذهاب حتى تطرف بعض الانتقادات التي تتذرع بهذا الابهام لتنبذ تماماً كل تحليل باريتو (Pareto) ، نقول ان هذا الموقف وهذه النزعة الطبيعية تضعف أحياناً من قوة منطقه.

رغب باريتو في بسط هذا المفهوم للتوازن على المجتمع ووضع نظرية حول التوازن الاجتماعي. وكان يعي صعوبة المهمة خصوصاً انه كان يريد مقاومة جاذبية بعض الفرضيات ، وعدم البعد عن أرض التجربة الصلب الا بتحفظ شديد. وتبدو العقبات هنا أكبر من تلك البارزة في نظرية التوازن الاقتصادي المتحرك ، فنحن لا نعلم ، رغم كل ما تبينه

التحليلات المتتابعة في العلوم الاجتماعية من وجود ترابط تبعي بين الظروف الفيزيائية، والاقتصادية، والسياسية، والاخلاقية، والدينية، والثقافية، لا نعرف كنه هذا الترابط. كذلك يصعب علينا إيجاد تجانس بين هذه الشروط، تجانس ضروري إذا رغبنا في وضع نظرية رياضية. «وتدفعنا مراقبة الاحداث الى الاعتراف بأن توزيع الثروات وغيرها من الظروف الاقتصادية، والمعتقدات الدينية، والاخلاقية، والفلسفية، والسمات، وميزات الشعوب، ونقائصها، الى الاعتراف بأنها ظواهر مترابطة. هنا تتوقف معلوماتنا، فنحن لا نستطيع تحديد طبيعة هذه الظروف في الوقت الذي توصلنا الى تحديدها بالنسبة للظواهر الاقتصادية. وهو يعتقد انه من المفيد لاخفاء نقص معلوماتنا إكمال النموذج الآلي الذي شكل مرجعاً لنظرية التوازن الاقتصادي، إكماله بالنموذج العضوي لأن «المقارنة مع مؤسسة حية هي الافضل، حين يتعلق الامر ببناء فكرة عن نمو المجتمعات».

على كل لا يسمح لنا الحذر العلمي ان نحمل القياس بين المؤسسة والجسم الاجتماعي، أكثر مما يحمل، ليس فقط لوجود خلافات بين الظاهرة البيولوجية، والظاهرة الاجتماعية، بل حتى لا نقع في أخطاء بعض النظريات التي شددت بتطبيق نظرية داروين (Darwin) على تطور المجتمعات. هذه هي العقبة الواجب تلافيها، حتى لا نقدم تأويلاً متصلباً للتكيف أو الاصطفاء والانتقاء الطبيعي. ويمنعنا التلاحم الاجتماعي الذي يشكل أثر سياق المفاضلة المميزة لتطور المجتمعات،

من الاخذ بالنظريات الاجتماعية التي تعتقد بامكانية التلاحم والتناسق الاجتماعي، وقدرتها على توفير بناء اصطناعي لمجتمع جديد بصورة جذرية. ذلك ان التفاضل الاجتماعي سيستمر حتى بعد قيام نظام اشتراكي الا اذا عادت المجتمعات الى طور البربرية والهمجية.

سبب هذا المشروع الرامي الى تطبيق مفهوم التوازن على المجتمع لايجاد مفهوم أكثر تأليفية واختلافاً، الكثير من الانتقادات لباريتو (Pareto). إنتقادات جاءت قاسية أحياناً، هذه الانتقادات التي جمعها ج بيرين (G.Perrin) بعد ان أيدها في علم إجتماع باريتو (Sociologie de Pareto). فسوروكون (Sorokin) ينكر عليه كل قيمة «فهو لم ينجح في تقديم نظرية متلاحمة للتوازن الاجتماعي، رغم الاستدلال بالقياس، والتدوين باللغة الرياضية أو الميكانيكية، واستعمال الرموز، والاشارات الرياضية. أو لا يحمل مفهوم التوازن أي بعد استكشافي؛ وهو لا يزيد شيئاً على معلوماتنا، انه طفولي صرف». ولا نفهم سر هذا التحامل الذي يصدر الاحكام القاطعة في الوقت الذي يكفي فيه قراءة باريتو (Pareto) لنرى كم تردد وتيقظ قبل نقل مفهوم التوازن الى المجتمع. لقد كان دون أدنى شك أقل جزماً وقطعاً من نقاده الذين ينكرون كل قيمة على عمله. ذلك ان نكران كل شرعية عن هذا البحث الذي يستحق المحاولة، هو عمل مناقض ومناهض للروح العلمية. ولا نستطيع القول ان باريتو (Pareto) قد فشل، لأنه اعترف هو نفسه بصعوبة المحاولة، واكتفى بوضع عدد من

الاوتدة. كذلك لم يعرب أبداً عن إعتقاده بأنه قادر بسلوكه هذا الدرب على إعطاء تفسير شامل للمجتمع، لأن الامر لا يشكل سوى تقارب يساعدنا في إدراك أفضل للظاهرة الاجتماعية الشاملة. على كل حال ان الامر يشكل درباً يوجب مزيداً من الاستقصاء، لا النبذ، بعد ان فشلت المحاولة الاولى في إعطاء النتائج المرجوة.

بدلا من إحصاء كافة الانتقادات التي لا قيمة لبعضها يبدو لي من الافضل تحديد معنى جهد باريتو (Pareto)، في العهد الذي كتب فيه، بحث وموجز الاقتصاد السياسي (Cours et Manuel d'économie Politique). فنحن بعد ان نأنس الى نصوص تلك الفترة ونجد، انه رغب مثل كل عالم يستعمل السبل الرياضية، رغب ان يعمم نظرية علم الاقتصاد الصرف، ويحاول ان يضع نظرية عامة للمجتمع، باعتبار ان الواقع الاقتصادي، هو واقع إجتماعي قائم ضمن أمور أخرى مترابطة فيما بينها. وكان يود ان يوضح المجموع الاجتماعي رياضياً. ويحلل مفهوم التوازن الاجتماعي في مبحث علم الاجتماع العام (Traité de Sociologie generale) ويقول: «لنبحث عن القياس في ميدان أقرب منا. إن الحالات م ١، م ٢، م ٣، مشابهة لتلك التي يعتبرها علم الاقتصاد الصرف جزء من النظام الاقتصادي. التشابه كبير الى حد يمكننا معه اعتبار هذه الحالات من النظام الاقتصادي كحالات خاصة من النظام الاجتماعي:» هذا ما كان عليه المشروع، إذا لاحظنا ان باريتو (Pareto) يعي على صعيد القياس، أي على صعيد

البحث. ولم يؤكد انه حقق نتيجة إيجابية. وفي الواقع لم يكن الامر بالنسبة اليه يعني البحث عن منهج أكثر تأليفية وشمولاً ويعتبر علم الاقتصاد الصرف التقارب الاول فيه ولم يكن من السهل نظراً للبعد عن بحوث العلوم الاجتماعية أن يصل فوراً الى هذه النظرية، فقد كان يتوجب عليه القيام بعمل أكثر بساطة وانْ كان ينتمي الى نفس المرتبة العلمية، والاهتمام بتعيين المتغيرات الواجب مراعاتها في نظرية التوازن الاجتماعي، الاهتمام بتعيينها بواسطة المنهج التجريبي. وسنعود لاحقاً الى دراسة هذه النقطة.

٣ - قانون باريتو (**Pareto**):

ساهم هذا القانون المتعلق بتوزيع الثروات في شهرة باريتو (Pareto) بين علماء الاقتصاد. وهو يهمنا من ناحيتين. فقد وجد فيه باريتو (Pareto) من ناحية أولى ذريعة علمية لدحض إدعاءات الانظمة الاشتراكية، ووجد فيه من ناحية اخرى تأكيداً لما يمكن تسميته بالافتراضية الفلسفية لنظريته الاجتماعية الا وهي هوية الطبيعة الانسانية عبر العصور. فقد رأى فيه أولاً تبريراً لتطبيق علم الرياضيات على علم الاقتصاد السياسي، لأن وضع هذا القانون يبين شرعيته وجدواه.

اهتمت المدرسة الليبرالية الكلاسيكية، في الدرجة الاولى بقضية الانتاج، ولم تعالج الا بصورة تبعية قضية توزيع الثروات وبصورة

إختيارية، بمعنى انها كانت تأمل ان يتوصل التطور الى تنسيق الرأسمال والنشاط والانتاج عبر لعبة العرض والطلب. وكان الاشتراكيون هم الذين بينوا اهمية قضية توزيع الثروات، وجعلوا منها حجة أثيرة. وحول علماء الاقتصاد الجامعيون الذين يشكلون المدرسة الالمانية هذه القضية الى موضوع لسجالاتهم مما دفع دعاة الليبرالية الى الاهتمام بها، والامتناع عن الاستمرار في إهمالها. وبدأ باريتو (Pareto) الذي وعى الرهان، بحوثه حول هذه القضية عام ١٨٩٣، حين عين أستاذاً لجامعة لوزان. وتوصل بفضل مساهمة مقاطعة ڤود (Vaud) الى الحصول على السجلات الاحصائية الفرنسية، والانكليزية، والالمانية، والبلجيكية، والاميركية، والسويسرية، والنمساوية، فهو لم يكن يود الدخول في مهاترات رجال الاقتصاد الادباء، بل يرغب دراسة القضية بصورة علمية مرتكزاً على الملفات. اعتمد على منهج كوشي (Cauchy) في الاستكمال، لتنسيق مختلف المعطيات، واستفاد من الاعمال الاحصائية التي قام بها الفرنسي فوڤيل (Foville) والانكليزي جيفي (Giffeu)، ليستشف منذ عام ١٨٩٥ بعض الانتظام والاطراد في مظاهر توزيع العائدات.. وقد نشر في العام اللاحق في مصنف (Recueil) كلية الحقوق في لوزان (Lausanne) ثمرة أعماله. ولنكتف بايجاز النتائج التي توصل اليها حتى لا نثقل هذا العرض بالمعادلات، والرسوم البيانية. إن الرسم البياني لتوزيع الثروات في هذه الدول لا يختلف كثيراً من عهد الى آخر رغم اختلاف النظام

الاقتصادي والاجتماعي فيها. فهو يحمل شكل الدوامة وقد وجه رأسها (الذي يمثل العائدات الكبيرة) الى أعلى بينما تمثل القاعدة المستديرة العائدات الصغيرة). وهذا يعني ان زيادة الثروة لا يعني على الاطلاق الاثراء العام كما لا يعني زيادة عدد الفقراء الفقر العام. وان تفاوت الثروات، وإفقار طبقة معينة ليسا مترابطين عكسياً بل يشكلان أمرين مختلفين.

رد باريتو (Pareto) فوراً صحة القانون الى هذا التماثل. وقد أثار هذا القانون الكثير من الجدل حوله فور إعلانه فهو إن لقي تأييد عالم الاحصاء فوفيل (Foville)، فقد عانى من معارضة عالم الاقتصاد أيدغورث (Edgeworth) وج سوريل (G Sorel) الذي رأى انه لا يوافق سوى الدول الرأسمالية. وما زال بعض المؤلفين حتى اليوم يؤيدون وجهة نظر باريتو (Pareto) جاهدين على تحسين صيغته. فيما يحاول البعض الآخر الطعن به بحجة قابلية المصادر الاحصائية الى النقد وعدم صحتها. ويتوجب علينا الاشارة الى انه صار الى برهان صحته بالنسبة للبيرو (Perou) القديمة وروما القياصرة (أعمال هـ.ت. دافيس H.T. Davis) وبالنسبة الى الجزيرة اليابانية هوكائيدو (Hokkaido) مؤخراً (أعمال ميويي هايا كاوا Miyoyi Hayakkawwa). كذلك جرى تطبيق هذا القانون على ظواهر اخرى غير إقتصادية، كالظواهر البيولوجية مثلاً. كما أدخلت عليه تحديدات جديدة بفضل أعمال أموروز (L.Amoroso)، وماك

غريغور (MC Gregor) وجيبرا (Gibrat) وجيني (Gini) . وأفضل بدلاً من الدخـول في تفـاصيل الخلافـات إيراد استنتاجـات باريتـو (Pareto) نفسه حول علم الاقتصاد العام . وهـي على نوعين .

(أ) خدمه هذا القانون كسلاح في مكافحة النظريات الاشتراكية وإننـا نتسـاءل ان لم يكتـب الانظمـة الاشتـراكية(LesSystemes Socialistes) تحت تأثير إكتشافاته . فهو يرى ان الاشتراكيين يخطئون الاعتقاد بأن حل القضية الاجتماعية يكمـن في توزيع جديد للثروات ، أو بتوزيع ثروات الاغنياء بشكل أو بآخر على الفقراء ، كأن نعتقد بأن « المساواة في تكاليف القصور والاكواخ يوفر لنـا تكاليف منازل مريحة وأنيقة » . إن المعطيات الاحصائية التي نملكها تتعـارض تماماً مع هذا الافتراض . قد تكون هذه الاحصاءات غير دقيقة ، أو قد أسيء تأويلها لا هم . نريد البرهـان على العـكس » . يكمـن خطـأ الاشتراكيين في الواقع ، في إعتقادهم بأن توزيع الثـروات هو المسبب الوحيد ، للتفاوت الاجتماعي ، وانه يكفي لتعديل هذا المسبب الى تعديل آثاره وإيجاد وضع إجتماعي مختلف . على العـكس من ذلك إن الحـل الحقيقـي لا يكمن في تجزئة الثـروات ، بل في إنتـاج أكبـر كما رأى الاقتصاديون الكلاسيكيون . « لا بد لرفع مستوى العائدات الصغيرة ، أو للنيل من التفاوت في العائدات ان تنمو الثروات بنسبة أكبر من نمو السكان . ونعتبر من هذا المنطلق ان قضية تحسين وضع الطبقات الفقيرة هو قبل كل شيء قضية إنتاج الثروات .

(ب) هناك طبيعة إنسانية تبقى مشابهة لذاتها في أعماقها رغم كل التعديلات التي يأتي بها التاريخ والتطور. ويمكن لتوزيع الثروات ان يرتبط إما بطبيعة الناس، أو بتنظيم المجتمع، أي ان هذا التوزيع يختلف لأسباب مجهولة من عصر الى آخر، من منطقة الى أخرى. ويشير إطراد القانون وانتظامه، الى ان هذا التوزيع للثروات لا يعود الى الصدفة وحدها، ذلك انه في مثل هذه الحالة يتوجب على المنحنى البياني، ان يتخذ شكل الرسوم البيانية المرتبطة بحساب الاحتمالات. ولكن الامر مختلف. «لأنه لا يتبدل كثيراً في مقاطعات وعصور ومؤسسات متباينة. كذلك لا يتعلق توزيع الثروات بالانظمة الاجتماعية. إذن لا يبقى سوى الحل الاخير. يجب علينا ان نبحث، دون إهمال بقية الاسباب، أن نبحث في الطبيعة الانسانية عن السبب الرئيسي الذي يحدد هذه الظاهرة». ويجب علينا عدم الاكتفاء هنا فقط بالقوانين الطبيعية، الخالدة والثابتة التي تعبر عن إرادة القوة الخلاقة، والتي تمثل ما هو قائم، ما يجب أن يكون والذي لا يمكن ان يكون غير مختلفاً. فقد يتوصل الانسان الى معرفة هذه القوانين ولكنه يعجز عن تغييرها، بل يتوجب علينا الاخذ ايضاً بوجود أحكام إنسانية دائمة أشار اليها باريتو (Pareto) في مبحث علم الاجتماع العام، بعبارة (Traité de Sociologie générale الفضالة Residu) بكلمة اخرى إن التفاوت الاجتماعي هو ظاهرة طبيعية، لا إحدى ظواهر المؤسسات. ولا وجود لمجتمع أفضل يمكنه القضاء على هذا التفاوت.

٤ - من علم الاقتصاد الى علم الاجتماع:

يتبين لنا من الفقرات السابقة ان باريتو (Pareto) باشر إهتمامه بعلم الاجتماع فور بدئه بحوثه الاقتصادية بعد تعيينه في جامعة لوزان (Lausanne). ويمكن رد عنايته هذه من الناحية المنطقية، الى رغبته في تعميم نظرية الاقتصاد الصرف التي دفعته الى تشكيل فكرة شاملة عن علم الاقتصاد، ودوره في المجتمع. لقد فهم فوراً ان لا معنى لعلم الاقتصاد الصرف، رغم أهميته العلمية، ان لم يوجه الاقتصاد التطبيقي المرتبط بالسياق الاجتماعي، الذي يمكن له إبداء المقاومة لأسباب سياسية، كما في حالة الحماية الاقتصادية، أو لأسباب أخلاقية، ودينية.

من هنا برزت ضرورة إجراء بحوث إجتماعية لادراك دور، وبُعد علم الاقتصاد في المجتمع. ذلك ان الاقتصاد الصرف يحلل الظاهرة الاقتصادية في مثاليتها بعيداً عن أي اعتبار آخر، ويكتفي بالسيرورة التي توفر ذروة أو قمة الاشباع لحاجة معينة، كذلك لا يأخذ التوازن الاقتصادي الا بالاوضاع والظروف الاقتصادية. في الواقع العملي نجد ان النشاط الاقتصادي يصطدم كالتوازن الاقتصادي بعقبات تحبط، وتسقط الحلول النظرية المتولدة عن المنطق الصرف. وهذا ما أشار اليه باريتو (Pareto) في الانظمة الاشتركية (Les Systemes Socia-listes) ،خطأ علماء الاقتصاد باعطاء أهمية كبيرة للبراهين وباعتبارها

مسببات مؤثرة في النشاطات الانسانية. فقد اعتقدوا انهم بابراز فراغ نظريات أعدائهم، وخطئها يقضون على مفعولها ويحيلونها على العجز. وقد ساهم نجاح عصبة كوبدن (L'igue de Cobden) في تعزيز هذا الوهم. فقد تخيل البعض ان هذا الفوز هو انتصار المنطق على الافكار المسبقة. بينما هو إنتصار بعض المصالح على بعضها الآخر.

يتهمه البعض وخصوصاً ج بيرين (G-Perrin) في الوقت الذي يعترفوا فيه بأن علم الاقتصاد أثر على بحوثه الاجتماعية، يتهمه بالالتباس وتجميع نموذجين من التأمل، نموذجان تفصل بينهما هوة كبيرة. ويقول بيرين (Perrin) مثلاً ان نظريته الاقتصادية ونظريته الاجتماعية تظهران عدم توافق طبيعي وبالتالي فان أي توفيق بين هذين النوعين من التحليل مستحيل. وهو يرد تصريحات باريتو (Pareto) حول استمرارية فكره، ويعتبرها تبريرات وذرائع استدلالية. وهو يقصد الكلمة التي القاها باريتو (Pareto) خلال يوبيله عام ١٩١٨ في جامعة لوزان (Lausanne) مستعرضاً فيها أعماله: بعد ان بلغت مرحلة معينة في بحوثي الاقتصادية السياسية، وجدت نفسي في مأزق. كنت أرى الواقع التجريبي ولا أتمكن من الوصول اليه. لقد دفعني حبي لايجاد مكمل ضروري لدراسات الاقتصاد السياسي، دفعني الى وضع مبحث العلوم الاجتماعية (Traité de Sociologie) .. هذا البحث الذي لم يكن يهدف وأشدد على هذه النقطة، لم يكن يهدف سوى البحث عن الواقع التجريبي بتطبيق المناهج التي برهنت عن

صحتها في العلوم الفيزيائية والكيميائية، والفلكية، والبيولوجية، وغيرها من العلـوم المشابهـة، تطبيق هذه المناهـج، على علـم الاجتماع.
ولا نقصد هنا العودة الى الجدل، ولكن لا بد لنا من الاشارة الى غرابة أسلوب بيرين (Perrin) الذي يهاجم باريتو (Pareto) على التطور الذي أحرزه، وإدراكه في نهاية حياته ما كان حدساً مبهماً في البداية.

لا شك ان باريتو بدأ الاهتمام بالقضايا الاجتماعية ليكمل تأملاته في العلوم الاقتصادية. يقدم «مقدمة دروس علم الاجتماع» (Sommaire de Cours de Sociologie) الذي نشر عام ١٩٠٥ نص الدروس التـي القيت في جامعـة لوزان (Lausanne). أضف ان مؤلفاتـه الاقتصادية الدروس، والموجز تعالج المادتين معاً. وتشير الجملة الأولى من الموجز (Manuel) الى ان المؤلف هو مؤلف في علم الاقتصاد وعلم الاجتماع على السواء. «من الأهداف الذي يرمي الى دراستها كل من علم الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع نذكر...» وتعلن عدة تفسيرات واردة في هذه المؤلفات عن بعض الأفكار الرئيسية التـي ستوسـع في مبحث علم الاجتماع العـام (Traité de Sicologie générale). حتـى اننـا نجـد فيهـا فكرة الفضالـة (Residu) والانحـراف (Déviation) دون ذكر لأسمائها. وهو على عكس إدعـاء بـيرين (Perrin) جمع منذ ذلك الحين مفاهيم المشاعر والفائدة ليجعل منها الحوافز والدوافع العامة في العمل الانساني، وقد كتب في الموجز مثلاً (Manuel)«بتوجهنا بصورة أساسية الى الأحاسيس والمصالح تؤثر

على الناس وندفعهم الى سلك الدرب الذي نريد. ونحن ما زلنا لا نعرف سوى القليل عن هاتين الظاهرتين، لذا لا يسعنا التوسع فيهما أكثر.» الأمر الصحيح هو ان مفهومه حول العلم الاقتصادي قد تشكل قبل مفهومه حول علم الاجتماع. كان يعتقد في البداية بامكانية معالجة علم الاجتماع وفق نفس المعايير المطبقة على علم الاقتصاد، كما تبين ذلك تأملاته العائدة الى هذه الحقبة حول التوازن الاقتصادي والاجتماعي. وقد فهم يوم أراد ان يتحول الى استاذ يدرس علم الاجتماع، كما يدرس علم الاقتصاد، يوم كرس وقته وبحوثه لعلم الاجتماع، فهم وأدرك ان التوازن الذي أعلنه فقد ملاءمته. بكلمة اخرى عرف إثر تأمل عميق في الظواهر الاجتماعية ضرورة تعديل تقارب هاتين الفئتين من الظواهر. يرد الانطباع بالقطعية الذي تتركه عملية مقارنة نتاجه الاقتصادي الذي وضع قبل عام ١٩٠٠، ونتاجه الاجتماعي الذي وضع بعد عام ١٩٠٠ الى إعتقاده لأسباب منطقية، بوجوب تعديل المنهاج والرؤيا في تحليل الظواهر الاجتماعية. الا انه في الوقت الذي كان يبني فيه نظامه الاجتماعي، أدرك بصورة أفضل حدود فهمه الاقتصادي. هذا هو الترقي الواجب إيضاحه لأنه يكيف فكرة مبحث علم الاجتماع العام (Traité de Sociologie générale).

(أ) فهم باريتو (Pareto) إثر الخيبات التي تراكمت عليه في الفترة التي كرس فيها نشاطه لدراسة التبادل الحر، ان علم الاقتصاد ليس العامل الفاعل الوحيد في المجتمع، باعتبار ان تطبيق النظرية

الاقتصادية يصطدم بمقاومة السياسة، والدين، وغيرها من العقبات الاجتماعية. لذا بدا له من الضروري، لامتلاك صورة كاملة عن الواقع الاجتماعي، دراسة الواقع الاقتصادي كواقع إجتماعي مترابط ومتلازم مع بقية الوقائع وفق مبدأ التبعية المتبادلة. وتبين له في نفس الوقت ان علم الاقتصاد الصرف، ومعالجته رياضياً، لا يشكل سوى إقتراب من الواقع الاقتصادي الشامل، وإن علم الاجتماع هو نوع آخر من التقرب.

من هنا برزت ضرورة التعمق في دراسة علم الاجتماع، كما فعل بالنسبة للرياضيات. أخذ بهذا التقرب الجديد وشغف به، فكرس له البحث الاقتصادي جزئياً لبلوغ النتيجة الواردة في مبحث علم الاجتماع (Traité de Sociologie) لنفترض ان بعض الافراد يملكون حاجات ورغبات لكنهم يجدون بعض الصعوبات في إشباعها. ماذا يجري حينئذ؟ إن علم الاقتصاد الصرف هو الذي يجيب على هذا السؤال. فهذا العلم واسع بسبب تنوع الاذواق وتعدد العقبات. وتشكل النتائج التي يبلغها هذا العلم جزءاً مهماً متكاملاً من علم الاجتماع، ولكنها لا تشكل سوى جزء قد يبدو أحياناً في ظل بعض الاحداث صغيراً، مهملاً، جزء يتوجب علينا تنسيقه وترتيبه مع بقية الاشياء لنملك صورة عن الظواهر الملموسة.

(ب) مع تطور تأملاته حول المجتمع، أدرك باريتو (Pareto) السمة الفرضية، الاستنباطية لعلم الاقتصاد الصرف. فهو يدرس وضع النشاط المثالي بما يحصر فعاليته ضمن هذه الحدود. كما يستنتج القانون

الصرف الآثار المترتبة على بعض المبادىء، كذلك يستنتج علم الاقتصاد الصرف آثار بعض الافتراضات. يطبق كل من هذين العلمين على الظواهر الملموسة بالقدر الذي تلعب فيه هذه الافتراضات دوراً في هذه الظواهر. يمكننا إذن القول الى حد ما « بانعدام فائدة هذه البحوث المجردة » خصوصاً إذا راعيناها بصورة منعزلة ،لذاتها وبعيداً عن كل علاقة مع الحياة القائمة. إن النشاط الذي يدرسه علم الاقتصاد الصرف هو نشاط منطقي، لأنه يراعي الميول المعطية دون الاهتمام بالقيم التي تمثلها. أما النشاط الملموس الذي يحلله علم الاجتماع فانه يرتبط بسلسلة من المتغيرات. ويقول باريتو (Pareto) إن الممارسة تأليفية بصورة أساسية ودون ان يتخلى باريتو (Pareto) عن فكرة إمكانية إيجاد نظرية صرفة للتوازن الاجتماعي، أتاحت له دراسة علم الاجتماع قياس الصعوبات القائمة والناتجة عن عدم تلاحم وتناسق الامور الفاعلة في الواقع. حتى انه تراجع عن تصور علم الاجتماع وفق علم الاقتصاد الصرف، واعتبره لذاته، كميدان بحث مستقل، لا يهتم الا بصورة جانبية بالمسلك الجذري للاقتصاد الصرف. ويستند باريتو (Pareto) الى الاقتصاد الصرف ليتساءل إن لم يكن بالامكان إنتهاج نفس الاسلوب في العلوم الاجتماعية. « وهكذا نمتلك علماً يشبه علم الاقتصاد الصرف، أو علم الاقتصاد التجريبي. الا ان التشابه ينتهي للأسف عندما ننظر الى الامر من زاوية الواقع ». إن مستوى علم الاجتماع يختلف عن مستوى علم الاقتصاد الصرف، لتباين المواضيع

المعالجة، فهذا التباين يؤدي الى قطيعة حتمية في التقارب بين المادتين.

(ج) بما ان المسألة مختلفة كذلك الاساليب والمناهج. فمن غير الممكن إعتماد المنهج الهندسي الصرف في علم الاجتماع ليس بسبب لا جدوى تطبيق الرياضيات على العلوم الاجتماعية بل لأنها لا تؤدي نفس الخدمات بسبب طبيعة البحوث. لا بد إذن من اللجوء الى إستعمال منهج آخر، منهج علمي، منهج الاستقرار أو الاستدلال الخاص بعلوم المراقبة، أو ما يسميه هو المنهج المنطقي التجريبي. إن موضوع علم الاجتماع هو دراسة ما يعتبره ويفترضه علم الاقتصاد الصرف من المعطيات، ومنها تقلبات الاذواق بتأثير المشاعر وغيرها من الامور المحددة الملموسة. الميدان الذي نعمل فيه هو ميدان التجربة والملاحظة. ونحن نستعمل هذه التعابير وفق معناها المعمول به في العلوم الطبيعية، والعلوم الفلكية، والعلوم الكيميائية، والعلوم الفيزيولوجية. اذن القطيعة هي أشبه بتلك القائمة بين المنهج الاستنباطي الرياضي الصرف والمنهج التجريبي.

عدل باريتو (Pareto) مفاهيمه مع تعمق بحوثه، فهو يجيد ممارسة الشك العلمي ويبتعد عن كل قطع، ويعرف متى يعيد النظر في القضايا التي طرحها، واعتنقها في البدء.

فالاقتصاد الصرف صحيح وقيم ضمن حدود وشروط إفتراضياته، كذلك المنهج المنطقي التجريبي صحيح ضمن شروط مراقبة الظواهر

بصورة مباشرة. ويقول باريتو (Pareto) يهدف العلم الى معرفة إطراد وتماثل الظواهر. لذا لا بد من إستعمال كل الاساليب، وإستغلال كل المناهج التي تقودنا الى هذا الهدف. فالأساليب الجيدة تميز عن السيئة بالتجربة. والاسلوب الصحيح هو الذي يقودنا الى الهدف طالما أننا لا نملك أسلوباً أفضل. ويفيدنا التاريخ بالقدر الذي يمد فيه الى الحاضر تجربة الماضي ويعوض عن التجارب التي نعجز عن القيام بها. لذا نقول ان المنهج التاريخي جيد. وهذا لا ينال شيئاً من جودة المنهاج الاستنباطي أو المنهاج الاستقرائي الذي يطبق على الاحداث السابقة. فنحن نكتفي بالمنطق الشائع في بعض الاستنباطات لنتخلى عنه حين يعجز ونلجأ الى المنهاج الرياضي.

نستطيع القول ان باريتو (Pareto) قد خضع ككل عالم الى الافكار السائدة في عصره. فقد اعتقد على غرار غالبية الاختصاصيين في العلوم الانسانية في نهاية القرن التاسع عشر، أن علم النفس يشكل قاعدة علم الاقتصاد السياسي، وكل العلوم الاجتماعية. ونستطيع اليوم ان ننتقده في هذه النقطة، لأننا تخلصنا من النزعة النفسانية التي كانت سائدة في ذلك الحين؛ وهذا رغم ان باريتو (Pareto) لم يشدد كثيراً على هذا الاتجاه، على كل إن القطيعة التي نشهدها لديه بين علم الاقتصاد وعلم الاجتماع ليس من شأنها ان تحير الا هؤلاء الذين يظنون بامكانية تطبيق نفس المنهج، المنهج الماركسي مثلاً، أو الطريقة التاريخية في تحليل أية فئة من الظواهر. هذه الاحادية هي التي تفتقر الى العلمية.

لذا لا يمكننا الموافقة على رأي ج بيرين (G-Perrin) الذي يدعي ان علم الاجتماع لدى باريتو (Pareto) يستبعد أو ينبذ علم الاقتصاد.

لا بد من الامتنان لباريتو (Pareto) لأنه عرف كيف يقوم ويصلح أفكاره الخاصة، كما يفعل في إحدى الفقرات الاساسية في تفسير فكره، التي يتجاهلها المحللون، هذه الفقرة التي يعترف فيها مناقضاً أفكاره الاولى، بأنه لا يمكن تفسير الاقتصادي بالاقتصادي. لا نستطيع ان نطلب من علم الاقتصاد السياسي وحده إضاءة هذه الآثار المختلفة، رغم صفتها الاقتصادية كان لا بد من تنسيق دراستها، مع دراسة علم آخر أوسع وأعم، علم يعلمنا عدم الاهتمام بالانحرافات التي أوجد البعض بواسطتها نظريات مغلوطة، علم يبين لنا تعدد القوى التي تؤثر فعلاً على الظواهر ويوضح لنا طبيعتها. فهذه الظواهر رغم قالبها الاقتصادي ترتبط في الواقع بظواهر إجتماعية أخرى . ولا يمكننا ان نناقش بصورة صحيحة انتقال باريتو (Pareto) من علم الاقتصاد الى علم الاجتماع ونحن نتجاهل أو نهمل هذا النص الاساسي.

الفصل الثالث

عالم الاجتماع

عالم الاجتماع:

يشكل مبحث علم الاجتماع العام (Le Traité de Sociologie générale) مؤلفاً كثيفاً، مبهماً مختل التوازن، صعب الاستيعاب أحياناً، مهذار غالباً . انه مؤلف مسخ، مشوه. كان باريتو (Pareto) يستطيع ودون أي ضرر، القاء نصف صفحاته على الاقل دون ان ينال من قوة حجته، أو صحة تحليلاته. ولا يمكننا الا الموافقة على نقد هؤلاء الكتاب الذين تعرضوا لهذا الموضوع. أولاً من جهة الشكل: « فهو يعبر عن حالة مسخ علمي» وفق ب كروس (B Croce) ، ولقد أساء استعمال الحق في الاسهاب، كما لو ان تعدد الطرائف يعوض عن الضعف في البراهين «وفق ر أرون (R ARon) . إن أسلوبه الاستقرائي يقتضي عدم تحديد الهدف الذي يرنو اليه، فنفس المسائل تعالج في عشرات الصفحات المختلفة: بوسكيه (Bousquet) . وكذلك فيما خص المحتوى والاسلوب نجد انها بفاخس (Habwacks) يأخذ عليه الخلط بين التجربة والمثال، أي إثبات الصحة بالبراهين، والتوضيح بواسطة الامثلة لقول لا تدعمه حجة قوية؛ فهو يكثر من إستغلال المقالات الواردة في الصحف دون انتقادها، شرط ان تؤكد مزاعمه: « فباريتو (Pareto) يأخذ بنفس الثقة، أكثر الدلائل تنوعاً، وأكثرها ريبة، شرط ان توفر له هذه الدلائل تأكيداً جديداً لمفاهيمه باشباع بعض أحقاده. يستسيغ كل أقوال الصحف، وكل النوادر التي تساعده في حملته على الديمقراطيين والانسانيين» رأرون (R ARon) . فهو يجد

لذة ، ولو تحقق الامر على حساب الدقة العلمية ، في التهجم على الافكار المنادية بالتقدم ، والمساواة ، والسلام والرفق ، لذا أتت بعض فقراته أشبه بالاهجية ، منها بالتحليل المنطقي . ولكن هذا الاسفاف ، والقصور لا ينال شيئاً من إبتكار أفكاره وجدتها ، ذلك ان باريتو (Pareto) قد تعرض للظاهرة الاجتماعية بسلوك منهج آخر، مختلف عن مناهج غيره من علماء الاجتماع الذين تمسكوا بالاسلوب المدرسي . ولا تعتبر مؤلفاته غنية فقط بالنظرة الايحائية ، والرؤى المفاجئة ، فهي تبرز حساً حاداً في التحليل العميق الذي يختلف عن التحليل النفساني .

فنحن نقف خلافاً لما يدعي بعض النقاد ، أمام فكر يملك تلاحماً داخلياً كبيراً ، مؤثراً برفضه الاخذ بالعقائد الشائعة ، والمعتقدات المطمئنة وفئات علماء الاجتماع المعروفة . انه فكر لاذع ، ليس فقط بسبب سخرية تعبيره ، بل لأنه يقض مضجعنا ، ويبلبل سكينتنا الفكرية ، ويقوض معتقداتنا التي نظن بقوة صحتها ، ويصدم مشاعر الكرم والانسانية في أعماقنا . فهو يحاول ان يعري ، ما نحاول ان نخفيه بصورة لا شعورية يعريه بحسن نية ودون إتخاذ أي موقف مسبق .

هذه هي الخطوط العريضة لعلم الاجتماع هذا ، الذي يتوجب علينا إبرازه من هذا المؤلف الضخم المتعدد الاطراد الذي يجعل قراءته متعبة ومملة أحياناً . فالافكار الرئيسية ليست كثيرة ، وسنحاول الا نقلبها ونعيد إجترارها كما يفعل باريتو (Pareto) ، دون ان نعمل على محو هذه الرزانة التي يسميها البعض صلافة وتهكماً .

١ - المنهج المنطقي - التجريبي
: (Logico—Experimentale)

علم الاجتماع هو علم. ولا بد له لذلك، من الخضوع الى البحث والتحليل العلمي. ويعتنق باريتـو (Pareto) مفهـوم العلـم في أدق معانيه، ويرى انه نشاط فكري يعنى بملاحظة العلاقات بين الاشياء، والظواهر، واكتشاف الاطراد والتماثل الكامن في هذه العلاقات. ولا بد ان نأخذ بهذا التحديد من جانبين، الجانب الذي يحتويه والجانب الآخر الذي ينبذه، ويستبعده.

هناك أولاً المعنى الوضعي. إن مفهوم باريتو (Pareto) قريب من المفهوم الذي عرضه كلود بارنارد (Claude Bernard) في المدخل الى الطـب التجريبـي (Introduction a la medecine Experimentale)ولكننا لن نغوص في تفاصيل هذه المقارنة. ونكتفي بالقول انه يرى ان العلوم الطبيعية تقـدم نمـوذج كل منهجية علمية (Scientificité) ، لذا يود ان يمارس علم الاجتماع وفق مبادىء هذه المنهجية العلمية (Scientificite) . فهو يعلن في الخطاب الذي القاه بمناسبة يوبيله في لوزان (Lausanne) كان هدف دراستي الاساسي دائماً، هو ان أطبق على العلوم الاجتماعية، المنهج التجريبي الذي أعطى نتائج باهرة، عند تطبيقه على العلوم الطبيعية. فأساس التقصي الوحيد، ومعيار التدقيق الوحيد، يكمن في الواقع.

وكما يقول في الفقرة ١٤٤ من مبحث علم الاجتماع (Traité de

(sociologie) لا بد من تصنيف الوقائع من اجل اكتشاف العلاقات فيما بينهما وبالتالي الاطراد والتماثل أو القوانين ، لتقوم بعد تخطي هذه المرحلة الاستقرائية ، الاستدلالية ، باعتماد الاستنباط لتدقيق صحة هذا الاطراد عبر الاحداث ، ودراسة آثارها الناتجة . فمهما اختلف المؤلف الذي يتعرض فيه الى المنهجية ، نراه يعود دائماً الى الواقع . فهذا التحديد للتحليل يشكل بنظره الضمان الوحيد للوضعية التي يعتبرها إستخفاف كامل بالقيم والمعتقدات . ولا يعني هذا ان علم الاجتماع يتجاهل هذه القيم أو المعتقدات ، بل يعتبرها كوقائع ويأخذ بها دون التساؤل عن شرعيتها أو عدمها ، عن عدلها أو انتفائه ، عن جدارتها أو نقصها . فنحن نجمع كل الوقائع كما هي ، شرط ان تقودنا بصورة مباشرة أو غير مباشرة الى اكتشاف الاطراد أو التماثل . حتى إن البرهان العبثي والأرعن هو واقع ، يتحول إذا أخذ به عدد كبير من الاشخاص الى واقع هام بالنسبة الى علم الاجتماع . كذلك العقائد ، هي وقائع ، وأهميتها ترتبط بعدد الاشخاص الذين يقولون بها لا بجدارتها الباطنية . فما يهم باريتو (Pareto) هو إقامة علاقات موضوعية وقابلة للتحقق بين الوقائع ، لا معرفة الحدث لذاته ، لجوهره ، أو لطبيعته . فهو يقصي السببية إذا لم تشكل علاقة ، وإدعت العودة الى أسس الاشياء وأسبابها الاخيرة . يقصيها ، لأن مثل هذه النظريات تتجاوز حدود التجربة ، وتقف خارج حقل العلم . كذلك يمتنع عن سبغ القانون العلمي بسمة الضرورة المطلقة ، لأنه مرتبط نسبياً بشروط الزمن ، والمجال . لذا فان كل معرفة علمية نسبية .

إن هذا الادراك للحدث ينفي الرجوع الى أية عقيدة، دينية أو غيرها، برفض كل عودة الى الماورائية لأنها تود معرفة طبيعة الاشياء، ينكر الاعتماد على أية نظرية شاملة تقول بقدرتها على تفسير كل الاشياء وفق مخطط محدد مسبقاً. كالماركسية مثلاً. وهو لا يرمي الى معرفة ما إذا كانت الظاهرة المدروسة نافعة أم لا، أو الى معرفة مدى فائدة العلاقة التي ينشئها العلم. «المهم أنني لا اعتقد بأنه من المفيد ان ينهج كل علماء الاجتماع هذا المنهج. على العكس من ذلك، غالباً ما يرمي الكاتب الى الاقناع. وهو مؤمن بأنه يفيد الآخرين. ذلك انه يعتقد معرفة الحقيقة، والحقيقة مفيدة دائماً ونافعة.. أما انا فلا أود إقناع أحد. وأنا أشك بمدى فائدة هذا العمل. ولا أعتقد قط أنني أعرف الحقيقة المطلقة، النهائية. لا أعتقد ان الحقيقة التجريبية مفيدة دائماً. لا أعرف إذا كانت حسنة. فأنا أجهل معنى هذا التعبير». لذا من المهم التمييز الواضح بين النظرية التي أكدت التجربة صحتها، والنظرية النافعة، لأن هذه السمة أو الميزة ترتبط بالتقييم أو المعتقدات الشخصية والمصالح لا بالدراسة العلمية. ما هو صحيح ليس دائماً ذي فائدة، كما ان المفيد ليس بالضرورة صحيحاً. ومن هنا كان التصريح الذي أخذ عليه. أرجو القارئ ان يذكر دائماً أنني حيث أعلن عبثية عقيدة ما، لا أقصد قط انها مضرة بالمجتمع، فهي يمكن ان تكون مفيدة له. وبالعكس حين أؤكد منفعة عقيدة للمجتمع لا أرمي الى التلويح بصحتها من الناحية التجريبية. ففي النتيجة يمكن إقصاء عقيدة من الناحية التجريبية والاخذ بها من ناحية المنفعة الاجتماعية. الاقتراح الذي يتقدم به علم

الاقتصاد السياسي يكون صحيحاً إذا أكدته الوقائع، ولم يكن فقط موافقاً للعقيدة الليبرالية، أو المسيحية الكاثوليكية، أو الاشتراكية. «فالعلم يرى ان الايمان الاشتراكي يوازي الايمان بالوطن، بالامة، أو الجيش.إنه يعبر عن إعتقاد صرف لا يظهر. إننا نرفض لعبثيته برهان نظرية بيتاغور (Pythagore) بواسطة «مبادئ ثورة ١٧٨٩»، ولكننا نغفل عن الملاحظة بأن البعض يدعي صحة تحديد إقتصادي بحجة سمته الاشتراكية.

يبدو المبحث العلمي لدى باريتو (Pareto) وضعياً، وهو يكتفي أحياناً بالوقائع وحدها فيقع في التوله في الاشياء. كما في الرسالة التي بعثها الى بانتاليوني (Pantaleoni) والتي أعلن فيها انه إذا اضطر الى إعادة كتابة دروس علم الاقتصاد السياسي (Cours d'économie Politique) سيضيف الكثير من الوقائع. وهذا ما طبقه للأسف في مبحث علم الاجتماع (Traité de Sociologie)، معتبراً كوقائع أنباء الصحفيين مكتفياً بتعزيزها بعض تحليلاته. ونخطئ بأن نعزو اليه الفكرة القائلة بأن العلم ليس سوى نسخة عن الواقع، أو بوجود تطابق بين الفكرة والواقع. ذلك ان نظريته في علم الاقتصاد الصرف التي تدرس الظواهر المثالية تمنعه من الوقوع في مثل هذا الخطأ. فهو لا يكتفي بالاعتراف بأن الواقع العلمي هو واقع أعيد بناؤه بالتصور بل يؤكد مراراً بأنه من المستحيل إدراك أية ظاهرة بصورة تامة. «لا نستطيع معرفة الظاهرة الملموسة في كل تفاصيلها، فهناك دائماً فضالة تظهر أحياناً بشكل مادي. فنحن لا نستطيع ان نملك سوى أفكار

تقريبية عن الظواهر الملموسة وتعجز النظرية عن تصوير كل تفاصيل الظواهر، كذلك التباعد والتشعب حتمي ومن واجبنا التخفيف منه».
هذا هو السبب الذي يدفعه الى دحض كل النظريات التي تدعي تفسير كل الامور بالنسبة الى عامل واحد كالماركسية مثلاً، فالادعاء بامكانية معالجة كافة الامور من الناحية الاقتصادية، هو إدعاء معرفة طبيعة الاشياء، وبالتالي القدرة على تفسيرها. كل النظريات مؤقتة. ولا يسعنا القول بتفوق إحداها على الاخرى. فمن الناحية العلمية يجب عدم رد أية نظرية، لا بد من مقارنتها دائماً مع الوقائع. إذا توافقت مع الوقائع أخذنا بها والا بات علينا لفظها.

لم تتسم وضعيته قط بالتصلب أو الحصر. لقد أشرنا الى انه نادى بالليونة في اختيار المناهج، فما من موجب لتفضيل منهج على آخر. فالفرصة هي التي تدفع العالم في تقرير بعد ومدى تقصيه. «يتوجب على العالم الاقتصادي كغيره من الذين يدرسون الظواهر المعقدة، ان يدرس في كل لحظة ويقرر الى اي حد يمكن الايغال في دراسة التفاصيل. فلا يمكن ان نحدد بصورة مطلقة أفضل نقطة للتوقف. فهذه النقطة تتعلق وترتبط بالهدف الذي نود بلوغه». على كل حال، كان أول من إعترف بأخطائه، وأول من عمد الى تعديل منهجه عندما وجده مغلوطاً. ولا أدل على هذا مما أسر به في إحدى ملاحظات مبحث علم الاجتماع (Traité de Sociologie) الذي يلخص ما أوردناه في هذه الفقرة. سأل أحد الاشخاص بعض طلابي إن كان علمي

ديموقراطياً! لقد قال البعض أو كتب انه إشتراكي، وادعى آخر أنه رجعي. إن العلم الذي يبحث فقط عن قوانين الاشياء يختلف تماماً عن كل هذه الامور. فهو لا صفة له. ويكتفي بالبحث عن هذه القوانين فقط، دون غيرها. شخصياً كنت أؤيد الحرية الاقتصادية في الدروس (Cours)، ولكنني تخليت عن هذا الموقف في الموجز (manuel)، وامتنع عنه حين أهتم بالعلم وأعنى به. نرتكب خطأً كبيراً إذا إعتبرناه علموياً (Scientiste). فما يقوله هو الآتي: عندما أمارس العلم، أخضع الى شروط النشاط العلمي ومستلزماته، فلا أطبق علم الاخلاق ولا أدرس الماورائيات؛ ولا أعمد الى تقديم النصح أو أحاول الاقناع أريد ان أعرف، ان أعلم فقط. كذلك لم يقبل أبداً القول بأن العلم هو نشاط خاص يتفوق على غيره من سياسة وفن. وهو لم يدع أبداً بأفضلية أحد الاشياء لأنه أمكن تبريره علمياً. لنحذر من أن نعمد كما تفعل الماورائيات المادية الى منح المنطق أو التجربة قوة وجدارة أكبر من العقائد التي تأخذ بها المشاعر. فهدفنا هو التمييز لا المقارنة، وعدم الحكم على فضائل وجدارة هذه الاشياء أو تلك.

على كل حال، إن البحث لا يتم بصورة عشوائية فهو يهتدي ببعض المبادىء الرئيسية التي يحذرنا باريتو (Pareto) من منحها معنى أو بعداً ماورائياً. إنها إفتراضات البحث ومن الافضل القول إنها افتراضات العمل. ويمكننا برأيي ان نميز لديه أربعة مبادىء أساسية. وقد سبق وعرفنا المبدأين الاولين مبدأ تبعية الظواهر المتبادلة، وعمليات

التقارب المتتالي. ولا بد ان نضيف المبدأ الثالث الذي حدده بدقة في موجز علم الاقتصاد (Manueld'économie) «ما من افتراض الا ويمكن التحقق من صحته ضمن بعض الشروط التي يعود الينا أمر تحديدها. فظروف ظاهرة معينة، تشكل جزء متكاملاً من هذه الظاهرة، لا يمكن فصله عنها.» بكلمة اخرى يمكن القول ان الافتراض، لا يكون صحيحاً الا ضمن الظروف التي أدت الى إنشائه وسيساعدنا هذا المبدأ في فهم أفضل للنشاطات اللامنطقية، التي تتميز بأنها تدعي أو تحاول تجاوز ظروفها في نشر صحتها والمبدأ الرابع هو مبدأ التعددية السببية. ذلك انه لا يمكننا تفسير أية ظاهرة بسبب واحد، فهي نتيجة تعددية في الاسباب المتداخلة، هذه الاسباب التي تتداخل فيما بينها الى درجة تتأثر معها باستمرار ببعضها البعض. إن الوحدوية السببية تنتمي الى الماورائية ولا تتسم بالعلمية وحين يكون المسبب راجحاً وغالباً في وضع معين فهذا لا يعني انه جازم وخصوصاً وانه قد لا يتمتع بهذه الغلبة في وضع آخر.

لا بد من فهم المنهج المنطقي التجريبي من ضمن هذا البحث العلمي. يضم كما تدل تسميته طريقتان متحدتان يمكن استعمالهما أحياناً بصورة منفصلة. فهناك أولاً الطريقة التجريبية الكلاسيكية، التي لا تعتبر صحيحاً من الناحية العلمية سوى الافتراضات والنظريات التي برهنت الوقائع على صحتها، وهناك ثانياً علم المنطق الذي يستنتج ويستنبط من العلاقات المراقبة، النتائج منطقياً! باعتبار انه يعود الى

العالم حق الاستناد إما على المنطـق الـكلاسيكي ، أو على المنطـق الرياضي ، وكل إفتراض ينشأ خارج هاتين الطريقتـين غـير صحيح علمياً . إذن التجربة هي الحكم الوحيد على صحة الشرح العلمـي . ولا قيمة علمية للنتائج المستنبطة من ملاحظات لا تخضع رقابتها الى قيود التجربة .

هكذا يوضح المنهج التجريبي الدرب الذي سنسلكه والذي يحدده باريتو (Pareto) في الفقـرة ٦٩ من مقدمـة مبحـث علـم الاجتماع (Traité de sociologie .)

لا يتوجب علينا ان نستنتج من هذا القـول ، إن هذه الطريقـة أفضل من غيرها ، إذ لا قيمة لعبـارة أفضـل ضمـن هذا السياق . فالموضوع هو التعارض بين التقصي والتأمل المتعلق بالمطلق أو الجوهر . هناك نوعان متنافران يتوجب علينا عدم الخلط بينهما ، رغم انه لا يحق لنا النيل باسم العلم من هؤلاء الذين يفسرون الاشياء بالاستناد الى علـم اللاهـوت ، والاخـلاق ، والسياسـة ، شرط ان لا يدعـوا علمية تقييماتهم . القضية هي معرفة الحكم الذي اخترناه . أهو التجربـة ، أم السلطة أم الكشف أم المنفعة ؟ وكلها مشروعـة ، وسيدة في ميادينهـا الخاصة وإن كانت غير صالحة في كل مادة تتجاوز شروطها تشريعاتهم ولا تخضع لها .

هناك نقطة اخرى يتوجب التأكيد عليها في هذا المنهج ، لأن باريتو (Pareto) يعود اليها باستمرار بعناد خاص رغم خروجه عنها أحياناً .

إنها ما نسميه مع بوسكيه Bousquet) أوهام اللغة (Les illusions du langage) فمن الافضل العمل بواسطة الرموز البسيطة كما هو الحال في علم الجبر، الا ان هذه الطريقة يمكن ان توقع في الابهام أكثر مما تقضي على الالتباس. إذن لا بد من اللجوء الى المفاهيم التي تتجاوب مع الكلمات. ذلك ان علماء الاجتماع يهتمون أحياناً بكلمات أكثر مما يعنون بالوقائع التي تعنيها. ويمكن ان نتجنب جزئياً هذه المخاطر إما بالتحديد المسبق الدقيق للتعابير التي نستعملها، والاخذ فيما بعد بهذه التحديدات، أو بوضع تعابير تقنية تحافظ على معنى واحد في مختلف الحالات.

وللأسف لا يتخذ الاقتصاديون والاجتماعيون من الادباء هذه الاحتياطات ويحللون وفق الدفعة العاطفية التي تتضمنها الكلمات. فهم حين يناقشون بعض المفاهيم مثل مفهوم الرأسمال، والعدالة، والسلام، والمساواة والتقدم، والديمقراطية، يخلطون على الفور بالمنطق مشاعر الود أو العداء الامر الذي يبلبل تحليلاتهم. وهنا تقوم اللفظية مكان العلم. وتنصب اللغة الكثير من الشراك أمام الاختصاصيين في العلوم الاجتماعية. فإما أنهم يقصدون شيئاً مختلفاً عن معنى التعبير الشائع دون ان يحددوا ذلك، أو انهم يحملون نفس الكلمة ويعطونها أكثر من معنى ويتلاعبون بالمعاني، أو انهم يضمنونها مشاعرهم، أو اختياراتهم التي لا يصرحون بها علناً، أو انهم يعتبرون محدداً ما هو غير ذلك.. فمن غير النادر مثلاً ان نجد بعض الخطابات التي تتغنى بالحرية تؤيد

بصورة غير مباشرة، ودون رياء، نظاماً قمعياً. إنهم يستعملون كلمة الاشتراكية كما لو ان الكل متفق على معناها، كما لو ان ماركس (Marx) يتفق مع برودون (Proudhon)، وغوشد (Guesde) يتفق مع سوريل (Sorel) وجوريس (Jaures)، وسومبار (Sombart) يتفق مع بيرينشتين (Bernstein).. ومن الطبيعي ان تكون الحجج المقدمة كلامية. وأود ان أشير الى هذه الملاحظة: فكما ذكر بوبيو (Bobio) قام باريتو (Pareto) بتوضيح نظرية الحجج والذرائع «قدم باريتو (Pareto) الى نظرية البرهنة والحجة أمرين:

١ - أولاً الاهمية المعطاة في دراسة المجتمع الانساني، للخلاف القائم بين الخطاب ذا الطابع العلمي، وذلك الذي يحمل الطابع الخطابي، وتحديد حقليهما، هذا التحديد القائم على معايير تسمح بتقييم نوعين مختلفين من الخطابات (الاول: الصحة والغلط) الثاني (الفعالية وعدمها).

٢ - ثانياً - ملاحظة وجوب التمييز في الرسالة ذات السمة الخطابية بين جزئين: المشاعر الواردة فيها أو التي نرغب في إثارتها والبراهين المعروضة للحصول على موافقة المشاعر، وأن هذا الجزء الثاني أقل أهمية من الجزء الاول وأكثر تغيراً منه من الناحية الاجتماعية. «وعلك باريتو (Pareto) من وجهة النظر هذه العناصر الاولى لعلم الاجتماع العقائدي (Sociologie des ideologies).

٢ - الاعمال المنطقية والاعمال اللامنطقية:

يظهر الخلاف بين العمل المنطقي والعمل اللامنطقي بسرعـة في تأملات باريتو (Pareto) حول علـم الاجتماع. يظهـر قبـل نظـرية الفضالة والاشتقاق. ويمكننا القول ان هذا التمييز بين العمل المنطقي والعمل اللامنطقي هو الذي وجه فكره بصورة نهائية، حين تأكدت له صعوبة المقارنة. بين علم الاقتصاد وعلم الاجتماع، ويظهر التمييز هذا في مقـال نشر منـذ عام ١٩٠٠ في المجلــة الايطــالية لعلــم الاجتماع (Rivisita italiana di sociologia) تحت عنوان «تطبيق مبادىء علم الاجتماع (Une application des theories sociologiques) فنحن نقرأ مثلاً أن الانسان برغم الدوافع اللامنطقية التي تحثه على العمل، يجب ان يربط أعماله منطقياً ببعض المبادىء، ويوجد بصورة إستدلالية بعض المبادىء الاخرى لتبريرها. إن الانسان الذي يخدع الآخرين بأقواله، يبدأ بخداع نفسه، وهو يؤمن بقوة بما يؤكده. كذلك كان هذا التمييز هو موضوع دروس علم الاجتماع في الجامعة كما يدل على ذلك موجـز دروس علـم الاجتماع (Sommaire du cours de sociologie). وقد لجـأ باريتـو (Pareto) الى الطريقـة المنـطقية التجريبية لاعطاء أساس متين لهذا التمييز الذي أثـار إهتمامـه لعـدة سنوات. فهذه الطريقة بتحديدها شروط التفكير المنطقي، تتيح تحديد منطقية العمل بالنسبة للبرهان الذى يدعمه. إذن تعلن منطقية الاعمال

اولا منطقيتها بالنسبة للمنطق والبرهان والدلالة : وقد اعترض البعض على منهج باريتـو (Pareto) واعتبروا انه يخلط بين ما عمد شومبيتر (Schumpeter) الى تمييزه بوضوح أي عقـلانية الفـكرة وعقـلانية العمل. فمن الممكن ان يكون العمل عقلانياً دون الخضوع إلى فئات علم المنطق.

وهذا الاعتراض الذي يقدمه بـيرين (Perrin) للنيل من تمييز باريتو (Pareto) لا يمكن الاخذ به فكما يقول . أرون (R ARon) يذكرنا باريتو (Pareto) بأن العلم لا يحدد الاهداف منطقياً « فلا حل علمي لقضية العمل » ولا يمكن للعلم الذهاب أبعد من تحديد الوسائل الفعالة لبلوغ الاهداف. ذلك ان تحديد الاهداف يدخل في ميدانه. ونجد لدى التحليل النهائي انه لا يوجد حل علمي لقضية السلـوك الفردي ، كذلك لا وجود للحل العلمي لقضية التنظيم الاجتماعي. العمل العقلاني هو العمل الـذي اختـيرت أهدافـه بدقـة. ويعتبـر باريتـو (Pareto) ان تحديد الاهداف هو عملية تتحدد وفق مبادىء المنفعة والاخلاق وغيرها. وما يهمه أكثر حصراً ، انه العلاقة بين الهدف المختار الذي يعتبره هدفاً معطى ، والاساليب المستعملة لبلوغه. وقضية عقلانية العمل تطرح من ضمن هذا الاطار.

لا بد من توضيح الامر منذ البداية لنتمـكن من تقييم مشروع باريتو (Pareto) بدقة. فهو لم ينو أبداً ان يضع نظرية علمية أو

اجتماعية للعمل كما حاول برسون (Parsons) . فكما يلاحظ بوزينو (Busino) محقاً بقي باريتو (Pareto) يعي استحالة وضع مخطط تحليلي للعمل باستناده الى هذا العمل وحده . لقد أعلن دائماً ان العمل ذات طبيعة تحليلية فالاعمال الحسية الملموسة تحليلية فهي تتأتى عن خلط العناصر التي يتوجب علينا تصنيفها بنسب متفاوتة ، أو أيضا ، أعلن عن عدم رغبتي في إيجاد الحلول لأية مسألة عملية ؛ ولكنه يتوجب علينا اللجوء الى التحليل حين نتجاوز النظرية ونود وضع قواعد للحياة الواقعية . »وهو يرغب بهذا القول الاشارة الى ان العمل المادي الملموس يرافقه دائماًعامل غير متوقع وغير محدد . لأنه يجمع وفق الضرورات بين الحدس والبديهة وعوامل اخرى مختلفة . ويدخل خلال السير الفعال عناصر لم تكن متوقعة في البدء . فالادارة تبطل التوقعات ، وبالتالي أية نظرية عملية حول العمل . بكلمة اخرى يمكن القول ان تعدد العوامل التي يمكن لها الدخول في العمل ، باعتبار ان كل شخص يختار عوامل مختلفة حتى حين يود تحقيق نفس الهدف ، إن هذا التعدد يقضي على إمكانيات الدراسة التحليلية ، وما يسميه باريتو (Pareto) عملاً منطقياً ، هو تجرد صرف يتسم بالصفة المثالية ، المتفاوتة التقرب من الواقع . وهو يؤكد على ان نفس العمل يتضمن لحظات منطقية ، وأخرى لا منطقية .

إن التحديد الذي يعطيه باريتو (Pareto) للأعمال المنطقية أكثر دقة من تعريف الاعمال اللامنطقية ، فهو يدرس الاخيرة بالتناقض مع

الاولى: « نسمي أعمالاً منطقية، العمليات المرتبطة عقلياً بهدفها ليس فقط بالنسبة للشخص الذي يحقق هذه العمليات، بل بالنسبة أيضاً لهؤلاء الذين يملكون معلومات أوسع، أي الاعمال التي تحمل ذاتياً وموضوعياً المعنى الذي سبق لنا تفسيره. ويسمى غيرها من الأعمال لا منطقية وهذا لا يعني مخالفتها للمنطق وتنافيها معه وقبل توضيح هذه التحديدات، لنأخذ بعض الامثلة إن التقني، المهندس الذي يبني جسراً، يأخذ بعين الاعتبار عند تنفيذ مشروعه طبيعة الارض، والنظام الامثل والاقرب، ومقاومة المعدات الخ... وهو يوفق بين الوسائل والغاية التي يود الوصول اليها كذلك هو الحال بالنسبة للمضارب في البورصة الذي يحقق الهدف المأمول به.

هذه الاعمال تعتبر أعمالاً منطقية. ومن بين الاعمال اللامنطقية يمكن تعداد موقف القنصل الروماني الذي يستشير الكهنة، والعرافين، قبل خوض المعارك للاطلاع على مدى رغبة الآلهة في إنتصاره. وكذلك فكرة تجسيد وإحياء أشياء مادية. وإذا حللنا عن قرب هذه الامثلة نلاحظ في مثل المهندس الذي يبني الجسور ان علاقة الوسيلة بالهدف، تتوافق في الواقع الوضعي تماماً مع الدراسات، والحسابات التي أجريت عند وضع المشروع. ويمكن في مثل المضارب في البورصة ان لا تتوافق الموضوعية مع تقديرات الرجل الشخصية. يمكنه ان يكون قد خدع في توقعاته وتنبوآته. وفي مثل القنصل الروماني لا يوجد للوسائل الذاتية المستعملة

أية علاقة منطقية مع الهدف الموضوع، وهو الانتصار. إذن يمكن للأعمال اللامنطقية ان تكون متنوعة وفق التقييم الذاتي، أو الموضوعي، لعلاقة الوسيلة بالهدف. إن العمل المنطقي هو ذلك العمل الذي تتوافق فيه العلاقة بين الوسيلة. والهدف الذي نفذ بموضوعية من الناحية المادية، تتوافق تماماً مع الوعي الذاتي لهذه العلاقة لدى الفاعل. وتعتبر بقية الاعمال، التي لا يتم فيها التلاؤم بين الهدف الموضوعي المقصود وتقييم الفاعل الذاتي، أعمالاً لا منطقية. إذن يتسم العمل المنطقي بالميزتين التاليتين:

(أ) التوافق بين الوسائل المستعملة والهدف المقصود.

(ب) التطابق بين الواقع الموضوعي وسريرة الفاعل الذاتية. وحيث يفقد هذا التوافق وتضيع هذه الملاءمة، نجد أمامنا أعمالاً لا منطقية، أعمال يمكن ان تكون متعددة النماذج.

ونظراً لهذه الميزات يمكن ان نضع مع باريتو (Pareto) الجدول اللاحق:

نعتبر هدفاً موضوعياً الهدف المباشر، الواقعي الذي يدخل في مجال الملاحظة، والتجربة على خلاف الهدف الخيالي الذي يتجاوزها.

الجنس والانواع	هل للأعمال هدف منطقي	
	موضوعياً	ذاتياً

الاعمال المنطقية

الهدف الموضوعي يختلف عن الهدف الذاتي

نعم	نعم

الاعمال اللامنطقية

الهدف الموضوعي يختلف عن الهدف الذاتي

الجنس الاول	لا	لا
الجنس الثاني	لا	نعم
الجنس الثالث	نعم	لا
الجنس الرابع	نعم	نعم

أنواع الجنس الثالث والجنس الرابع

٣أ و٤أ	يقبل الشخص الهدف الموضوعي إذا عرفه
٣ب و٤ ب	لا يقبل الشخص بالهدف الموضوعي إذا عرفه.

(أ) الاعمال المنطقية:

تقوم هذه الاعمال على أساس المنطق الى حد بعيد، باعتبار أنها تستعمل وسائل تتوافق وفق معايير الحساب وغيره من الطرق العقلانية، مع الهدف المقصود. ويعتقد باريتو (Pareto) إنها أكثر وفرة لدى الشعوب المتحضرة بسبب تطور العلم، والتقنية، والعقلانية الدقيقة، التي تجعل «المعرفة أكثر إتساعاً، الى درجة يمكن مقارنتها فيما بينها وفق وسائل المنهج المنطقي - التجريبي. ويمكننا الافتراض بأنه يقبل، ضمنياً على الاقل، بتقدم العلوم الذي يبرر إتساع وتعدد المسالك المنطقية مع إتساع الحضارة العقلانية ذاتها. ونجد المسالك المنطقية في النشاطات العلمية، التقنية والفنية، كذلك نجدها في العلوم الاقتصادية والعمليات العسكرية والنشاطات السياسية والقانونية الخ. ولا شك أن علم الاقتصاد شكل التأمل الاول في عملية الوعي لهذه النشاطات، ولكن باريتو (Pareto) لا يحددها به كذلك لا يسعنا القول بأنه حدد دورها داخل المجتمع، لأنه بذكره الاستراتيجية يبين أننا بسبب جهل

المستقبل، نقوم بعدة تدابير لتوجيه سلوكنا بصورة منطقية. وهو لا يستبعد مثل هذه الاعمال لدى الحيوانات، وإن كان عددها بالطبع أكثر إتساعاً لدى الانسان.

يمكن للعمل الملموس ان يضم كما سبق القول عناصر منطقية وعناصر غير منطقية، كذلك يمكن ان يتحول العمل المنطقي وفق بعض الحالات الى عمل لا منطقي وبالعكس. وهكذا نجد ان موقف الجنرال الروماني اللامنطقي الذي يربط بجواب الكهنة قرار خوض المعركة، يتحول الى عمل منطقي عندما يجعل من هذه البادرة الافتتاحية التي لا يؤمن بها، وسيلة تهدف الى زيادة حظه في الانتصار، وهذا الى الحد الذي تؤدي فيه عملية إستشارة سريرة العصافير وتساهم في رفع معنويات جنده الذين يؤمنون بهذه المعجزات. نجد في الواقع ان عدداً كبيراً «من الاعمال اللامنطقية يتضمن» لمسة من التفسير المنطقي. وتعتبر عملية المضارب في البورصة لا منطقية إن لم يبلغ النتيجة المأمول بها بسبب أخطاء ارتكبها في الحساب. إذن لا يمكننا ان نحدد بصورة دقيقة ميادين العمل المنطقي. فلا أحد يملك إمتياز الخصوصية، ولا حتى علم الاقتصاد.

يمكننا ان نطرح عدة أسئلة حول هذا النوع من الاعمال. ولن آخذ سوى بواحد منها. وهو الموافقة بين هذه العمليات والمنهج المنطقي التجريبي. فالعمل لا يعتبر منطقياً بسبب عقلانية هدفه، بل هو كذلك حين يتحدد بهدفه ويلتزم به. وبكلمة اخرى إنه يعتبر هذا الهدف كما لو

كان معطى ، وبنفس القدر الذي يأخذ به علم الاقتصاد الصرف بالميل والذوق الانساني ، ويعتبره من المعطيات ، وهو لا يتناول سوى وسائل التنفيذ والنتائج المأخوذة منها . ويمكن ان نعتبر من ضمن هذه الزاوية ، ان تطبيق المنهج المنطقي التجريبي هو عمل منطقي بالدرجة الاولى . ويمكننا عند قراءة نصوص باريتو (Pareto) ان نتساءل عما إذا كانت علاقة الوسيلة بالهدف ، هي وحدها التي تميز العمل المنطقي ، فهي توحي دون ان توضح بأن هذه العلاقة منطقية بالقدر الذي تلتزم به بشروط الانطلاق أي طالما لم تتجاوز هدفها . إذن لا يكفي فقط استعمال الوسائل الموافقة للهدف المقصود ، لا بد أيضاً من الاكتفاء بهذا الهدف ، تماماً كما يرفض المنهج المنطقي - التجريبي تجاوز حدود التجربة .

(ب) الاعمال اللامنطقية :

تتأتى الاعمالُ اللامنطقية بصورة أساسية عن وضع نفسي كالمشاعر والشعور الباطن الخ .. ويعود الى علم النفس معالجة هذه الحالة النفسانية . وسنتحدث في دراستنا عن هذه الوقائع دون الرغبة في الايغال فيها والذهاب بعيداً . ويعتبر هذا النص مهماً ليس لأنه يحدد أساس هذا النوع من الاعمال ، بل لأنه يبين المنهج الذي اتبعه باريتو (Pareto) : الانطلاق من الوقائع وإعتبارها معطيات ، دون محاولة البحث عن أصولها ، وكيفية تشكيلها ، وتطورها وهو يشير الى وجوب عدم الخلط بين اللامنطقي والمنافي للمنطق . صحيح انه يمكن لعمل

لا منطقي ان يكون عبثياً ومنافياً للمنطق ، الا انه يمكنه ايضاً ان يكون منطقياً ، بصورة جزئية ، أو تبني مظاهر المنطق. وهو لا يستبعد العقلانية ، ولكن الحجج تأتي مغلوطة أو مضللة الخ..

ولتجنب الوقوع في أي خطأ فيما خص تأويل باريتو (Pareto) ، لا بد من الاشارة انه لا يمكن تحديد العمل اللامنطقي الا بالنسبة للعمل المنطقي المجرد. لذا نرى انه لا يعطي تحديداً آخر للعمل اللامنطقي اللهم سوى قوله : لا منطقي هو العمل الذي لا يتسم بالمنطقية تماماً ، سواء كان بمحتواه استدلاليا رائعاً ، أو شبه منطقي أو مناف للمنطق. وهذا ما يبرز بوضوح في بعض نصوص الموجز (Manuel) «لنلاحظ بأن اللامنطقي لا يعني المنافي للمنطق ، يمكن للعمل اللامنطقي أن يكون أفضل ما توصلنا اليه إثر مراقبة الوقائع ، واتباع المنطق لبلوغ الهدف ، الا ان هذا التكيف قد تم بطريقة اخرى تختلف عن البرهان المنطقي». فهو لا يدرس إذن الاعمال اللامنطقية إلا من ناحية منطقية صرفة. وهذا هو السبب الذي يمنعه من تحليل سنية المشاعر أو نصيبها في هذا النوع من النشاطات ، وعن تقييمها سواء كأخطاء ، أو إنحرافات أو أشكال مرضية ، ويكتفي بتصنيفها بالنسبة للمعيارين اللذين ساهما بتحديد العمل المنطقي. وقد أعطى جواباً مسبقاً لكل هؤلاء الذين لا يرون فيه سوى كاتب يعني اللامعقول. «لا يشكل إدخال المنطق ، والمشاعر في الظواهر الاجتماعية ، أو منح أي منها ميداناً محدداً ، لا يشكل هذا الامر دليلاً على الرغبة في

النيل من هذا أو ذلك، لأنني، وأنا أكتب كتاباً علمياً أبقى بالضرورة في ميدان المنطق والبرهان، وهذا لا يعني أنني أنكر وجود ميدان المشاعر والايمان. على العكس من ذلك سيرى القارىء أنني أعطيه بعداً يجده الكثيرون متطرفاً. ما أريد تجنبه هو المطولات، الوافرة في العلوم الاجتماعية، هذه المطولات التي يختلط فيها المنطق بالمشاعر ليشكل مزيجاً غريباً».

يمكن توزيع الاعمال اللامنطقية الى أربعة أجناس وفق تناقضها مع العمل المنطقي.

١ - نوع النفي المتكرر (Le genre non - non)، وهو الذي يتميز بعدم تلاؤم الوسائل مع أي هدف، سواء كان موضوعيا أو ذاتيا، فنحن لا نجد فيه أي موجب للنشاط. ويذكر باريتو مثلاً تعاليم هيزيود (Hesiode) «لا تبول في مصب نهر يرتمي في البحر». فنحن لا نرى موجباً للابتعاد عن مثل هذا الرجس. ويمكننا ان ندخل في هذه الفئة بعض أنواع السلوك الذي يفرضه التهذيب، والعادات. على كل حال، قلما نجدها عند الناس باستثناء بعض المتوحشين والبرابرة، لأن الانسان يميل دائماً الى تبرير تصرفاته، «وإضفاء مسحة من المنطق عليها» لتدخل في النوع الثاني، والرابع.

٢ - الاعمال التي تدخل في فئة النفي - الايجاب (non—oui genre) وهي كثيرة. ويستغل العمال فيها وسائل خيالية لا تتوافق مع

الهدف الموضوعي، بكلمة اخرى نجد ان علاقة الوسيلة بالهدف الذي ترنو اليه بصورة شخصية، لا تملك أي أثر على الهدف المقصود. وهذا هو حال من يؤمن بامكانية إنزال المطر أو التضرع الى العاصفة بواسطة الصلوات، والذبائح، والقرابين.. ويدخل في هذه الفئة غالبية الاعمال القائمة على السحر، وغالبية إيماءات التعبد، والاحتفالات الدينية.

٣ - النوع الثالث وهو يضم الاعمال اللامنطقية الايجاب النفي (Actions nonlogiques oui—non). وهو يتميز بأن الفاعل يحقق الهدف من الناحية الموضوعية دون ان يعيه من الناحية الذاتية. أي انه يستعمل السبل الصحيحة، ويطبق كما يجب علاقة الوسيلة بالهدف وهو يجهلها. ويرى باريتو (Pareto) فيهما نموذج الاعمال اللامنطقية الصرف، ونجد ان الاعمال الداخلة في هذه الفئة كثيرة ومتعددة. ويعتمد باريتو (Pareto) على دراسات العالم الاختصاصي بالحشرات ج هـ فابر (J. H.Fabre)، لتمثيل هذا النموذج في مسلك الحيوانات المكيفة من الناحية الموضوعية، بالغريزة ودون وعي منها. وعلى الصعيد الانساني يمكن ان ندخل في هذه الفئة بعض المعالجات التي كانت تطبق بالماضي دون معرفة فعاليتها من الناحية العلمية. كما هو حال تعاليم هيزيود (Hesiode) الذي ينصح بعدم البول في ينبوع ماء رغم أنه يجهل ان هذا الحظر يمنع إنتشار بعض الامراض.

٤ - أخيراً النوع الرابع الذي يضم الاعمال اللامنطقية الايجاب المتكرر (Actions non logiques oui—oui)، وهو يتعلق بالاعمال

التي تتضمن علاقة بين الهدف الموضوعي والهدف الذاتي، الا ان الوسائل المستعملة تؤدي موضوعياً الى هدف يختلف عن ذلك المطلوب ذاتياً. وهكذا نجد في ميدان الاقتصاد ان المتعهد الذي يبغي تخفيض سعر الكلفة يضطر مرغماً الى تخفيض سعر المبيع، لأن المنافسة في نظام السوق تميل الى إقامة التوازن بين السعرين. كذلك هو حال الثوريين الذين يريدون تحرير الشعب، ولكنهم يضطرون بسبب لجوئهم الى العنف كوسيلة عمل، الى إقامة نظام قمعي. إنها أعمال تؤدي بسبب الوسائل المستعملة الى القضاء على توافق الهدف الموضوعي مع الهدف الذاتي، وتحقق نتيجة لا تتلاءم من الناحية الموضوعية مع تلك المطلوبة من الناحية الذاتية. هذا ما كان عليه حال بيسمارك (Bismarck) الذي رغب في إضعاف الحزب الاشتراكي، والحزب الكاثوليكي فحظر الاول وشن على الثاني حملته الثقافية (Kultural Kampf) ولكنه لم ينجح بسبب سوء تقييمه للوضع الا الى دعم وتقوية هاتين المنظمتين.

وفيما خص الانواع ٣أ 3a، و٤أ 4a، و٣ب 3b، و٤ب 4b فليس من الضروري تقديم إيضاحات واسعة عنها فمن السهل فهمها دون الايغال في الشرح. هل كان بيسمارك (Bismarck) ليقوم بحملته الثقافية على الحزب الكاثوليكي لو علم انه سيقويه بذلك، أم ان عداءه لهذا التنظيم كان سيزين له الامر مهما كانت النتائج؟

إذا حللنا عن قرب هذه الانواع الاربعة من الاعمال اللامنطقية نلاحظ ان التجربة هي المعيار الحاسم فيها. فباريتو (Pareto.) لايتردد

لحظة واحدة في تصنيف نشاط لم تبلغ نتائجه النية المرجوة ضمن الاعمال اللامنطقية، وإن اتبعت فيه مبادئ المنطق والعقلانية. وهذا ما يظهر لنا فيما خص التمييز الذي وصفه في البحث عن علم الاقتصاد الصرف، والذي سبق ذكره والذي يقدم فيه تصنيفاً للأعمال وإن اختلفت المعايير، حيث يوازي بين المنطق والتجربة. فهو يقسمها الى نشاطات تجريبية ومنطقية، ونشاطات تجريبية لا منطقية. ونشاطات لاتجريبية لكنها منطقية . ونشاطات لا تجريبية ولا منطقية يمكن عن ملاءمة الرد الى التجربة لتحديد مدى منطقية المسلك أو لا منطقيته ذلك ان التمييز الذي يقوم به بين العمل التجريبي والعمل المنطقي يفسح المجال للافتراض بامكانية إختيار معايير اخرى مختلفة عن تلك التي أخذ بها مبحث علم الاجتماع العام (Traite de sociologié générale)، مما دفع البعض الى الاعتراض ومنهم على وجه الخصوص ر أرون (R ARon). الا يكون المسلك منطقياً الا اذا حقق نتيجة موضوعية بينت التجربة صحتها؟ هل يتجاهل باريتو (Pareto) عن قصد أو غير قصد كون بعض العادات والاساطير تتسم بالعقلانية السرية كما بينت البنيوية؟ أفلا تضحك بعض تحليلاته علماء العرقية، أضف ان منهج باريتو (Pareto) يضم حلقة مقفلة. فهو قد افترض في البدء ان التعارض واللامنطق يطبق فقط على علاقة الهدف بالوسيلة. لم يجد أية صعوبة فيما بعد في البرهان على ان الاعمال التي لا تخضع بدقة الى هذا المعيار لا منطقية: وهل من الصحيح ان اللامنطق يخضع الى المشاعر والاحاسيس وحدها؟ الامر ليس حتمياً وباريتو

(Pareto) لا يقدم الدليل على ذلك. إذاً يمكننا التساؤل عما إذا لم يكن يسعى الى هدف آخر لا يتسم بالعملية الصرفة.

يبدو ان باريتو (Pareto) رغب ان يبرهن بأن غالبية المثقفين يخطئون، أو يتوهمون حول قيمة كتاباتهم، لأنهم يعتقدون انهم بلغوا الحقيقة في الوقت الذي لا تتناسب فيه استنتاجاتهم التي وصلوا اليها مع المعطيات التي انطلقوا منها من الناحية المنطقية. هذا ما توحي به الفصول الطويلة التي عقبت الفصل الذي كرسه للأعمال اللامنطقية، والتي يحلل فيها - بصورة مطولة النظريات التي تتجاوز التجربة، والتي تتسم لهذا السبب بالعلمية الموقتة (Pseudo scientifique)، وسنعفي القارئ من الامثلة المتعددة التي يذكرها. صحيح ان باريتو (Pareto) يزيد من وصفه سوءاً حين يميل الى القول بأن المثقفين حين يخطئون إنما يفعلون ذلك عن حسن نية. وهم ليسوا من الاشرار، إنهم يفتقرون الى الصحو والجلاء في الوقت الذي يدعون فيه تنوير العالم. بكلمة اخرى لا يترك لهم أي خيار آخر غير الخبث (إن كانوا من سيئي النوايا) والسذاجة (إن كانوا حسنيها). وهو يتجه الى ان يرى منهم السذج الذين ينتهون الى اللامنطق لكثرة لجوئهم إلى المنطق واستعمالهم له. يصعب علينا الصفح بسهولة عن مؤلف يهزأ بقسوة من المعتقدات التي تؤمن بقوة أسسها.

وتبرز لذعة تهكمه في الانظمة الاشتراكية (Systemes socialiste) أكثر من بحث علم الاجتماع (Traité de

sociologie) فهو ينكر فيها كل قيمة مبينة لعدد من المقترحات التي كان ماركس (Marx) يعتبرها علمية، ويؤكد ان «إنتشار عقيدة لا يرتبط بقيمة هذه العقيدة المنطقية»، وهو يعظم مبحث الذمة (علم القضايا الضميرية، ودراسة أحوال الضمير)، فبدونه تبدو الحياة الاجتماعية مستحيلة. على كل حال نحن نميل الى إعطاء تصرفاتنا وأعمالنا ذرائع وحجج خيالية أكثر منها واقعية. وغالبية النظريات تغمس بالمنطق الاختيار الذي تم لأسباب مختلفة، كالأفكار المسبقة، أو العواطف، أو الايمان. «يميل عدد كبير من الناس الى الاشتراكية ليس لأنهم أخذوا واقتنعوا بحجة ومنطق معين، بل لأمر مختلف تماماً إنهم يأخذون بهذا المنطق ويستجيبون له لأنهم من الاشتراكيين. إن مصادر الاوهام التي يذكرها الناس حول مسببات نشاطاتهم وأعمالهم متعددة.. وهذه النشاطات والاعمال تتميز بالغريزة الصرفة ولكن الانسان الذي يقوم بها وينفذها، يجد لذة كبيرة في إعطائها متعسفاً أسباباً منطقية. متسائل حول نوعية هذه العقلانية ويكتفي بشبه برهان أو دليل.» ويقول في مجال آخر «حين يشعر الناس بأنهم قد إندفعوا لحركة معينة دينية، أخلاقية، أو إنسانية، يعتقدون ان معتقداتهم قد تكونت إثر قياس وجدل منطلقين من وقائع حقيقية غير قابلة للاعتراض.» لا شك بأن نظرية الاعمال اللامنطقية شكلت بالنسبة اليه مصدراً لا ينضب من المسببات للسخرية، والتهكم. من المثقفين والفلاسفة والمنادين بالسلام

والتقدميين، والكنائس المسيحية المختلفة، وتدل ردود فعلهم هذه انه قد أصاب الهدف في عدة نقاط.

٣ - الفضالة والاشتقاق:

تشكل مناقشة هاتين الفكرتين الرئيسيتين الجزء الجوهري من فكر علم الاجتماع لدى باريتو (Pareto). فبعد ان وضع نظرية العمل المنطقي من زاوية علم الاقتصاد الصرف، وبعد ان لاحظ ان مثل هذه الاعمال نادرة في الوقت الذي تتضمن فيه غالبية المسالك الانسانية عناصر لا منطقية، بدا له من الضروري فهم هذه المظاهر اللامنطقية لاكمال نظرية علم الاقتصاد الصرف بعلم الاجتماع. صحيح انه يعترف انه لم يكن الاول الذي يؤكد على الاعمال اللامنطقية، ويكرس الفصل الثالث من مبحث علم الاجتماع (Traité de sociologie) ليبين ان غيره من المؤلفين قد فطنوا للأمر الا ان أحداً لم يفكر بتوفير التفسير، وتقديم التبرير. وهو يتبع في هذا السبيل المنهج الاستقرائي الاستدلالي الذي يستند فيه على تحليل عدة أمثلة مأخوذة عن علم القانون على وجه الخصوص، ليحصل على عناصر النظرية التي ستتيح له بدورها بلوغ بعض الاستنتاجات. ولن ندخل في تفاصيل هذا التحليل، وسنكتفي بالاشارة الى نتائج هذا التقصي.

نلاحظ ان الاعمال اللامنطقية تضم عنصرين، العنصر الاول مستقر يشير اليه باريتو (Pareto) بحرف أ (a) والثاني متغير يشير اليه بحرف ب (b): «يتوافق الجزء أ (a) بصورة غير مباشرة مع

الاعمال اللامنطقية، إنه التعبير عن بعض المشاعر. إن الجزء ب (b) هو التعبير عن الحاجة الى العقلانية التي يملكها الانسان. وهو يتوافق جزئياً، مع المشاعر، والاعمال اللامنطقية، ولكنه يخفيها بصبغة من البراهين المنطقية. إن الجزء أ (a) هو المبدأ القائم في فكر الانسان. إن الجزء ب (b) يشكل التفسيرات، استنتاجات هذا المبدأ.» لنأخذ مثلين لايضاح هذا التمييز. نجد ان غالبية المجتمعات تقدس أو تخشى بعض الارقام، كذلك نجد انها تحظر القتل. إنه العنصر المستقر أ (a). كذلك تقدم بعض الذرائع لتبرر سبب قدسية بعض الارقام، وسبب منع القتل. البعض يعتبر هذه الارقام كاملة وبالتالي جميلة, عادلة، وهي تحمل لبعضهم الآخر معنى دينيا. كذلك نجد ان القتل محظر تارة لأن الله منعه، وتارة إحتراماً للكرامة الانسانية. هذا هو العنصر ب (b) الذي يتبدل مع تغير الحضارات.

في الواقع المادي يقدم هذان العنصران أ (a) وب (b) لا شعورياً، وكأنهما مرتبطان بالظاهرة أي ان رفض القتل مرتبط بمنعه ولا بد من الفصل بينهما من الناحية العلمية. وهذا لا يسري فقط على الاعمال بل يتناول أيضاً النظريات سواء كانت فلسفية أو أخلاقية أو غيرها حين نقرأ مؤلفاً راغبين بالحكم علمياً على نظرياته، لا بد لنا من البدء بالفصل بين الاجزاء أ (a) وب (b)، هذا الفصل الذي لم يسبق لكاتبه القيام به. ومن الضروري الفصل في كافة النظريات بين المقدمات المنطقية أي المبادئ، والمسلمات والمشاعر والاستنتاجات. هذا هو السبيل لمعرفة تجاوزها أو عدمه للتجربة.

بعد ان بلغ باريتو (Pareto) هذه النتيجة عمد الى وضع الفرضية التالية. يتوافق القسم أ (a) مع بعض غرائز الانسان، أو مع الناس، ذلك ان لا وجود موضوعي للقسم أ (a) ويختلف باختلاف النـاس؛ ولعل توافقه مع الغرائز هو سبب استقراره في الظواهر. إن القسم ب (b) يتوافق مع العمل الذي أنجزه الفكر لسبغ المنطق على العنصر أ (a) ولهذا السبب يتسم بالتغير والتبدل، فهو يعكس نشاط الاهواء. إذا كان الجزء أ (a) يتوافق مع بعض الغرائز، فانه بعيد عن فهمها كلها.. وهذا يبرز من طريقة إيجادنا له. لقد حللنا البراهين وبحثنا عن جزئها المستقر، وهكذا لم نستطع ان نجد سوى الغرائز التي تولد البراهين، ولم نلتق في طريقنا هذه التي لا يبرزها المنطق. ولا يبقى إذن سوى الشهوات البسيطة، والاذواق والاستعدادات وهذه الفئة الهامة التي نسميها في علم الاجتماع «المصالح». وإذا كان هذا الافتراض يتوافق مع الوقائع، فاننا سنحتفظ به، ونأخذ به، فهو يحدد في هذه الحالة تماثلاً واطراداً والا فاننا سنتخلى عنه.

(أ) نظرية الفضالة:

لـم يتـوقف باريتـو (Pareto) عن المطالبـة بالعمـل والنهج بواسطة التحديد الدقيق. ولكنه لم يتوصل فيما خص مفهوم الفضالة على القضاء على كل إبهام. الامر الاكيد هو ان الفضالة تعبر عن عنصر مستقر، لا منطقي في الطبيعة الانسانية. وهو لا يمنحها دافعاً نفسياً بل يعطيها قيمة استكشافية يشير اليها غالباً باسم النـواة أو المحـور.

ولا شك انه عمد لقطع الطريق على كل تأويل نفساني الى الاهتمام بالتمييز بين الفضالة، والمشاعر، والغريزة رغم انه غالباً ما يخلط بين هذه المفاهيم الثلاثة. وهذا هو التحديد الذي يعطيه. «يجب علينا الحذر من الخلط بين الفضالة (أ) والمشاعر والغرائز. فالفضالة (أ) (a) هي التعبير عن هذه المشاعر والغرائز، كما ان ارتفاع الزئبق في الميزان هو دليل على زيادة الحرارة. وسنقول للايجاز ولاختصار الخطاب، بأن الفضالة تلعب بالاضافة الى الشهوات والمصالح الخ.. دوراً أساسياً في تحديد التوازن الاجتماعي.» ويؤكد هذا النص ما ورد في الفقرة (٨٥١) التي تقول بأن الفضالة تتوافق فقط مع الغرائز التي تسمح بالبرهان، الامر الذي يدعو الى الاعتقاد بوجود غرائز لا تسمح بذلك.

تساءل عدد من الكتاب ومنهم ج بيرين (G Perrin) محقين عن مدى شرعية مثل هذا التمييز بين الغرائز، وذلك انه يمكن لكل غريزة ان تفتح السبيل أمام الادلة والبراهين. ويبدو لي في الواقع ان باريتو (Pareto) رغب ان يتجنب بهذا التمييز الوصول الى التأويل النفساني الصرف للفضالة، والحفاظ على التفسير الاجتماعي. ويبرز هذا في الفقرة التي كرسها للغريزة الجنسية لتمييزها عن الفضالة الجنسية. وتبرز فيها الفضالة كالغريزة المرتبطة بالبرهان، فتختلف بهذا عن الغريزة الصرفة التي يدرسها علم النفس. إن الترابط مع البرهان جوهري خصوصاً وأن هذا الاخير يمكنه إسقاط الغريزة الصرفة وإخفائها. وهكذا تتسم الغريزة الجنسية الصرفة بالتقارب البسيط بين الجنسين، فيما تذهب

الفضالة الى حد الاختفاء في ظل ستار التقشف والزهد. هناك بعض الناس الذين ينصحون بالطهارة ليوفروا لأنفسهم فرصة التوقف أمام اللقاءات الجنسية؛ إذن لا تشكل الفضالة واقعاً صرفاً، يمكن معارضته بصورة مباشرة، أو تحديده وفق مناهج علم النفس، إنها مفهوم ذات سمة إفتراضية تتيح إبراز تعقد الواقع. وهكذا ما يبرز في فقرة اخرى لباريتو يقول فيها توافق الفضالة بعض غرائز الانسان، لذا تخطئها عادة الدقة والتحديد، ولكن هذا الطابع يساهم في تمييزها عن الوقائع وبعض المبادىء العلمية التي تملك معها تشابهاً. كذلك هو الحال فيما خص التمييز الواجب بين الفضالة والاحاسيس.

بدأ باريتو (Pareto) وفق سبيله العادي في النهج بتصنيف هذه الفضالة. ويساعدنا منهجه الذي اعتمده في فهم وتطويق هذا المفهوم بصورة أفضل. وهو يقول ان بحوثه شبيهة بتلك المعمول بها في فقه اللغة والتي تدرس أصول الكلمات ومشتقاتها. «هذا القياس ليس اصطناعياً، فهو نتاج نشاط الفكر الانساني، هذا النتاج الذي يملك اقاً مشتركاً. ولا ننسى ان باريتو (Pareto) كان صديقاً لفرديناند دوسوسور (Ferdinand de Saussure)، ولعل هذا ما ينسى هذه العودة الى فقه اللغة. ونكتفي بهذا المثل من بين الامثلة التي ذكرها باريتو (Pareto) يعرف علم الفقه الحديث ان اللغة هي ميدان تطور وفق قوانينه الخاصة ولم يخلق بصورة اصطناعية. هنالك فقط بعض التعابير التقنية مثل أوكسجين، ومتر، هي التي تولدت وجاءت كنتيجة

المجتمع ، فيا يتوافق تشكيل العدد الاكبر من الكلمات التي يستعملها الرجل العادي مع الاعمال اللامنطقية. لقد حان الوقت ليتقدم علم الاجتماع ويحاول بلوغ السدة التي ارتقاها علم الفقه». لقد عرف قبل علم البنيوية كيف يستغل بعض مظاهر علم اللغة في تحليل المظاهر الاجتماعية. وهو يأخذ عنها بأن الفضالة تشبه الجذور الفنية بالمشتقات. ويساهم هذا القياس مع الاغصان، من الناحية اللغوية، يساهم كالعودة الى الغريزة والاحاسيس، يساهم في فهم أفضل لمفهوم الفضالة الذي لا يشكل واقعاً قابلاً للمراقبة والملاحظة.

يمكن ان ندهش لبعض الابهام الوارد عند تصنيف الفضالة، خصوصاً وأن الكاتب يدعي تطبيق المنهج المنطقي التجريبي بدقة. فنحن من جهة نجد ان المفردات تفتقر الى الامتثال والدقة، فباريتو يعمد عند تعيين أنواع الفضالة الستة الى استعمال تعبير حاجة لبعضها وتعبير غريزة لبعضها الآخر، وفضالة للنوع الثالث. ولا نستطيع من جهة اخرى ان نفهم المنطق الذي ساد في هذا التصنيف ولا معيار التوزيع. فكل واحد من الطبقات ينقسم الى أنواع [illegible] شعب فنحن لا نفهم مثلاً السبب الذي دفع باريتو الى الاخذ في الطبقات الاولى، بالاسرة والطبقة الاجتماعية على صعيد المجموعة. وإهمال الصداقة. يبدو انه ترك القياد لحدسه أكثر مما أخذ بالمنهجية. على كل حال تفتقر أنواع الفضالة التي يقدمها الى التجانس، الى حد دفع أرون (R.ARon) الذي استهوته هذه القضية الى إعادة تصنيفها

من أجل تحقيق تنسيق أكبر.على كل حال سنتمسك هنا بتقسيم باريتو
. (Pareto)

الفصيلة الاولى

غريزة التنسيق :

إنه ميل الانسان إلى اقامة علاقات وروابط بين الأشياء والأفكار والاستنتاج منها . ويقول باريتو (Pareto) « إنهـا غريزة قوية لدى الانسان ، ولا شك أنها كانت وستبقى عاملاً هاماً في الحضارات » في نفس الوقت الذي تشكل فيه احـدى القـوى التـي تحـدد التـوازن الاجتماعي . ويستطيع الانسان بفضـل هذا العقـل المنظـم ان يضـع القواعد ، ويفكر ، ويناور ، وأكثر من هذا يجدد . من هنا ينشأ هذا التفريع والتشعيب إلى عدة أجناس وفق نماذج الظواهر المنسقة .

غريزة التنسيق العامة دون أي تحديد آخر ، هذه الغريزة التي تدفع الانسان الى الخلق والابتكار .

غريزة تنسيق الأشياء المتشابهة أو المتعارضة ، بمعنى ان الانسان يميل الى ربط الأمور المتشابهة أو المتعارضة . ويضيف باريتو (Pareto) البراهين اللامنطقية هي تلك التي تتم بتداعي الافكار . ويضم هذا النوع عدة فئات ، حسبما كنا نربط بين الاشياء النادرة ، أو الاستثنائية أو الرهيبة ، إذا ما كنا نرد الى حالة سعيدة كل الاشياء المحمودة والى

الحالة التعسة كل ما يبدو سيئاً. وهكذا نجد ان من يكره نظاماً أو يعادي مؤسسة يرد اليها كافة المصائب. وامام الله الذي يعتبر طيباً يتنصب الشيطان الذي يجسد الشر. باختصار تقف الغريزة من هذه الناحية وراء كافة العمليات السحرية والتطير، والاساطير والاعاجيب الخ.

- القوة الغامضة لبعض الاشياء، أو بعض الاعمال. ويضم هذا النوع الايماءات التي نعبر بها عن منحنا سلطة سرية مؤاتية أو مضرة لبعض الاشياء كالتعويذات، والايقونات. وتشكل هذه القوة الغامضة أساس المعتقدات بالمعجزات والتحكيم الالهي، وغيرها من صنوف السحر. وهي تدفع الانسان الى إضفاء فضائل مقدسة على الاعداد أو على الايام.

- الحاجة الى الجمع بين أنواع الفضالة كالمعرفة المنطقية والايمان مثلاً، «يكره الانسان فصل الايمان عن التجربة، فهو يريد كلا متكاملاً لا تنافر ولا نشاز فيه» ولا يهدف باريتو(Pareto) بهذا الايمان الديني فقط بل ينال أيضاً من العقائد الثورية والسياسية وغيرها.

- الحاجة الى التطور المنطقي. وتشكل هذه الحاجة نوعاً أساسياً لأنها تجعل من الانسان محللاً وفق قواعد المنطق، أو قواعد المنطق

المنتحل مما يجعل للمسالك المنطقية أسساً من الفضالة، كالمسالك اللامنطقية. ويمكن للعقلانية ان تكون استنباطية أو استقرائية، لتولد المعرفة. ويمكن للبرهان والدلالة ان تكون قياسية فتولد التفسير الكيفي.

- الايمان بفعالية التنسيق. التي ينتج عنها الابتكار والتجديد والتبصر.

الفصيلة الثانية

مقاومة المجاميع

(La resistance des agrégats) :

يصف باريتو (Pareto) هذه الفضالة بقوله «تشكل بعض الترتيبات مجمعاً من الاجزاء الوثيقة الترابط، مجمع مترابط كجسم واحد، وينتهي باكتساب شخصية تشبه شخصية الاشخاص الحقيقيين. ويمكننا دائماً ان نتعرف الى هذه المجاميع عبر سمتها، وتسميتها الخاصة المتميزة عن تعداد الاشياء البسيط.» إن الفضالة تعطي التنسيق سمة دائمة، وبالتالي وجوداً خاصاً ومستقلاً. وتعتبر بهذه السمة نقيضة لما سبق. ذلك ان غريزة التنسيق هي غريزة التطور الثقافي، والفكري، والتغيير. : لا أن ثبات المجاميع يمنح الاستقرار للتدابير التي شكلتها الفضالة

السابقة. إذن هي أساس الاستقرار، وتصلب المكتسبات، والمنـظمات السياسية والدينية والاقتصادية وغيرها. ويشبهها باريتـو (Pareto) ويقارنها بالجماد الآلي (Inertie mecanique) فهي تنظـم البقـاء، والتقاليد. وتضم هذه الفصيلة أنواع اخرى باختلاف ارتباط المجاميع بالانسان، أو الاشياء أو الامور المجردة. وتنقسم بعض هذه الانـواع بدورها الى فروع وشعب ولكننا سنهمل هذه الشعب ونكتفي بتعـداد الانواع بايجاز.

- إستمرار العلاقات بين الانسان والآخرين، ومع المكان. وتنتمي الى هذا النوع الاحاسيس التي تربط الكائن الانساني بعائلته، ووطنه، ولغته وأرضه. ومن هنا تولدت عبادة آلهة العائلة (أرباب المساكن عند الرومان والاتروسك)، والمدينة والبطل (الذي يطلق اسمه على شيء). ولا بد ان يرد الى هذه الفضالة الانقسام الى طبقات اجتماعية وطوائف مع كل ما ينتج عنها من تصرفات، ومعتقدات وأفكار مسبقة. ويدخل فيها أيضاً الشيع والبدع.

- استمرار العلاقات بين الاموات والاحياء. وتبرر هذه الفضالـة تقديس الموتى والقرابين خلال الجنازات، وتأبـين الموتـى سواء آمنـا أم لا بخلود الروح.

استمرار العلاقة بين الميت والاشياء التـي كان يملكهـا خلال

حياته. وخصوصاً عادات القدامى في دفن الاموات مع أسلحتهم إن كانوا من المحاربين، أو وضع بعض المآكل في القبر وبعض الالعاب لقضاء الوقت.

- استمرار بعض الافكار التجريدية. «وتشكل هذه الفضالة أسس علم اللاهوت والماورائيات.».

- استمرار التشابه والاطراد. تدفع هذه الفضالة الناس الى التصميم انطلاقاً من الحالات الخاصة، وإضفاء قيمة المبدأ الطبيعي على بعض الاحداث، وتحويل الافتراضات الى علاقات ضرورية.

- تحويل المشاعر الى وقائع موضوعية. وتقتضي هذه الفضالة منح التجارب الذاتية المعاشة معنى الواقعة الموضوعية.

- التجسيد أي تحويل بعض الافكار المجردة الى فرديات وذاتيات موضوعية. ويقول باريتو (Pareto) «اللغة هي أفضل وسيلة لابقاء المجاميع وتجسيدها. ونجد ان الوحدات الكبيرة مثل التقدم، والديمقراطية تحل مكان التجسيم القديم (خلع الصفات البشرية على الله). لأن مواطنينا يعيرون هذه الكائنات القوية والنافعة مشاعر مشابهة لتلك التي كان تخالج أجدادهم أمام عظمة روما.» وتقدم غالبية العقائد الجديدة كالاشتراكية والسلام وكأنها عقائد تعمل للخلاص كآلهة الاقدمين المجردة.

- الحاجة الى أفكار مجردة جديدة. فحين تسقط بعض الافكار المجردة القديمة، تحل مكانها أخرى جديدة. فقد خلفت الاساطير الشعبية اخرى أكثر تعقيد «كفكرة الانسانية مثلاً. كذلك تحول العلم الى نوع من الاسطورة، باعتبار ان الكنيسة تريد ان تصبح أكثر تطوراً بتحولها الى «العلمية».

الفصيلة الثالثة -
الحاجة الى إبراز العواطف
عبر الانفعالات الخارجية الطامرة:

يعالج باريتو (Pareto) هذه الفصيلة باختصار. ترافق المشاعر القوية عادة بعض الاعمال التي لا ترتبط أحياناً مباشرة مع هذه الاحاسيس لكنها تشبع الحاجةالى العمل. إنها الحاجة الى إظهار مشاعرنا وانفعالاتنا بأعمال مختلفة. وقد تبلغ هذه الحاجة الى التعبير حد التعسف. ولا يدرج باريتو (Pareto) سوى نوعين في هذه الفصيلة.

- الحاجة الى العمل التي تبرز بالتنسيق وهي تظهر غالباً بالترابط مع فضالة الفصيلة الاولى.

-القداسة الدينية: تؤدي الرغبة في إظهار المشاعر الى الفرح والهذيان، ترافقها الاناشيد والرقص والتشنج والتمثيل أحياناً ـــــــ

الفصيلة الرابعة
الفضالة المتعلقة بالاجتماعية:

إنها الفضالة التي تدعم وتقوي الحياة في المجتمع على أساس النظام الذي لا يقوم المجتمع بدونه ويعتبر مستحيلاً. ويضـن باريتـو (Pareto) باعطاء تفسيرات أعم ليتوسع في الانواع التي تضمها هذه الفصيلة.

- المجتمعات الخاصة: يميل الناس الى التجمع في ظل الطوائف الدينية، والتجمعات الرياضية، والنوادي الادبية.

- الحاجة الى التماثل. إنها الرغبة التي تشتعل في قلب الانسان وتثيره الى دفع الآخرين على التفكير والعمل وفق أسلوبه ولو اضطر الى إستعمال العنف وقمع من يعيش أو يفكر بطريقة مختلفة. وتتيح دراسه هذا النوع لباريتو (Pareto) الفرصة لتحليل ظاهرة التقليد والتعصب الذي يؤدي بحجة الحفاظ على الوحدة الى الاستبعاد والاقصاء بتهمة البدع والهرطقة، والحكم بالحرق، التي باتت تحمل في يومنا هذا اسم جرائم المعتقدات. يوجد من جهة شعور بمعاداة أو كراهية كل ما هـو جديد، في الوقت الذي لا يعتـرف البعض بمنفعـة شيء الا اذا كان مستجداً.

- الشفقة والقسوة: إن هذه المشاعر رغم تناقضها، تترابـط فيما

بينها أو تتعاقب لدى كائن واحد. فالذي يشفق على اللص وقد أوقفه البوليس، يملأه العداء ويعميه الحقد حين يتعرض هو بدوره الى السرقة. ونشهد في عهدنا هذا امتداداً لمشاعر العطف رغم التناقضات. ففي الوقت الذي تتعدد فيه القوانين المناوئة للجنوح نجد العدالة أكثر رأفة إزاء الجانحين «يبدو ان الشفقة على الجانحين والمنحرفين تتزايد، وتتضاءل إزاء ضحاياهم». ويمكن توضيح هذا التناقض بديالكتيكية الوجود والغياب: «إن مشاعر الشفقة تشتد وتحتد على الحاضرين، وتضعف على الغائبين. إن هيئة المحلفين ترى القاتل فتشعر بالشفقة عليه، وكذلك الامر بالنسبة الى القضاة. وهم لا يرون الضحية، لقد اختفت. ويتحول التفكير بها الى واجب ثقيل. وتذكروا ان هؤلاء المحلفين الذين برأوا قاتلا - سيرغبون إن شهدوا غداً جريمة، سيرغبون بكل الحاضرين معاقبة المجرم بقسوة. إن هذه الفضالة هي التي تدفعنا اليوم الى إتهام مجتمعنا بكل هذه السهولة وتحميله كل مسؤولية شقائنا. وينقلب العطف أحياناً، ويتحول الى مسبب للثورة والقيام بالاعتداءات. فالانسان ينفر لا شعورياً من الالم بصورة عامة، ويكره بصورة خاصة الامل اللامجدي. وهكذا يحترم المواطن ويقدر ويحب شفقة الحكام الاقوياء ويسخر ويهزأ، ويحتقر شفقة الحكام الضعفاء. فهو يعتبر الثانية ضعفا وجبناً ويعتبر الاولى كرماً.

- ميل الفرد الى ان يفرض السوء على نفسه في سبيل مصلحة الآخرين. يتطلب كل مجتمع للبقاء حداً أدنى من التسامح بين

أعضائه، أي نوع من التوافق. وتختلف نسبة هذا التوافق باختلاف درجة التكامل والتلاحم. ولا يمكننا فهم هذا التسامح الذي نجده أيضاً لدى بعض الحيوانات التي تفدي وتحمي صغارها الا إذا رددناه الى الفضالة. فلا بد « ان تكون مريضاً فعلاً» بالعقد الاجتماعي»، « والدين الاجتماعي، والتضامن» لتتخيل ان الرجال يدافعون عن موطنهم كما يدفع الشركاء في مؤسسة تجارية نصيبهم. ويشير باريتو (Pareto) هنا الى النظرية التي كانت سائدة في ذلك الحين، نظرية شبه العقدين البورجوازين. (quasi contrat debourgeois) ويمكن ان يذهب هذا التسامح ليبلغ حد التضحية وتعريض الحياة للخطر. وهو يدفع الناس أحياناً الى اقتسام خيراتهم مع الآخرين. يجب الا نكتفي باعطاء تفسير إنساني صرف لهذا الميل، فهو لا يخلو من الانانية والحساب. إن دلالة المشاعر لا تستبعد تناقضها فالمرء لا يعتنق الاشتراكية بصورة مثالية أو حباً بالعدالة الاجتماعية فقط، بل يفعل ذلك مدفوعاً بمصالحه. ففي ظل عودة الاسرة الملكية الى العرش كان لا بد من حضور القداس للنجاح في العمل، وفي ظل لويس فيليب (Louis – philippe) كان من الافضل قراءة فولتير (Voltaire)، وفي ظل نابوليون الثالث (Napoleon) كان من الواجب إعلان عدم الاهتمام بالسياسة. وفي يومنا هذا من المناسب ان تكون اشتراكياً وثورياً. كذلك هو أمر أصحاب المؤسسات والبورجوازيين الذين يتحالفون مع الاشتراكيين. يمكنكم أمام مطالبتهم بالقوانين الاجتماعية « يمكنكم الاعتقاد ان حب المستقبل الصرف هو الذي يفتعل في داخلهم، وهم

يتحرقون الى اقتسام أموالهم، وقد الهبهم هذا الحب. لكن انتبهوا لما سيحصل بعد تبني «القوانين الاجتماعية» وسترون ان ثرواتهم لن تنخفض بل ستزداد، الى حد يكونون قد أخذوا فيه من الآخرين ولم يعطوهم شيئاً.» خطأ المثقفين يكمن في إنقيادهم لكوميديا التصريحات والمطالبة بالعدالة الاجتماعية الصادرة عن كل مكان.

- مشاعر المراتب الاجتماعية. تعتبر العلاقة بين الاعلى والاقل درجة أساسية في المجتمع على اختلاف الافكار التي يقوم عليها. «تتحول فكرة المراتب الاجتماعية في المجتمع ولكنها تبقى وتستمر دائماً في المجتمعات التي تطالب ظاهراً. بالمساواة بين الافراد». يظهر هذا النوع من الفضالة بعدة سبل: أولاً بامتثال التابعين، هذا الامتثال الذي يعود الى أسباب عديدة منها الخوف والاحترام والعاطفة، فنحن نقبل دائماً بسلطة أعلى وأن اختلفت الميادين من فريق الى آخر. «هناك الكثيرون من الفوضوين الذين يقبلون بايمان كبير هيمنة الاطباء وأطباء الصحة الذين لا يخلون من الدجل». يمكن وبسبب قوة استمرار الافكار المجردة، يمكن الا يكون الخضوع والانقياد لرجل بل لرمز كالشهرة مثلاً، فقد كان من المناسب مثلاً في الماضي إجادة اللاتينية، وكان من اللائق إهمال المظهر، ولكن مما لا شك فيه أن العادات هي التي تسيطر دائماً. تتميز هذه الفضالة بظاهرة اخرى وهي الحاجة الى الحصول على تأييد وموافقة المجموعة. «تعتبر حاجة الانسان التي يشعر بها ليبرز في المجموعة، ويحصل على تأييدها، تعتبر شعوراً، قوياً يشكل

أساس المجتمع الانساني الحقيقي. وتعمل هذه الحاجة بصورة ضمنية دون ان تعبر عن نفسها بصراحة وكثيراً ما يفتعل عدم الاهتمام من يبحث عن الحصول على أكبر قدر من الاعجاب والمجد».

- التقشف والزهد. نلاحظ لدى الانسان شعوراً خاصاً لا نجده أبداً لدى الحيوانات، شعور يدفعه الى تعذيب النفس، والامتناع عن الملذات. إنه ميل يتعارض مع الغريزة التي تدفعنا الى البحث عن الاشياء الرائعة والجميلة والهرب من نقيضها. ونخطىء إذا اعتبرنا التقشف أمراً فريداً في الكاثوليكية، فنحن نجده في غالبية المجتمعات. كان قائماً في سبارطة (Sparte)، وكان بعض الفلاسفة اليونانيين ينصحون به. ونرى ان البوذيون يمارسونه ولا يذكر باريتو (Pareto) التزمت الذي حلله فيبر (Weber)، بل يشدد على نساك العلم المقدس (Sainte science). وهو يتساءل إن لم تكن هذه الفضالة تنتمي الى فصيلة خاصة، بدلاً من ان تكون نوعاً فقط. «إنها الفصيلة الكبيرة التي تضم أعمال الامتناع والترفع عن الملذات، والآلام التي يفرضها الانسان على نفسه إراديا. وتتميز الانواع في هذه الفصيلة بتباين أهداف التضحيات وكثافتها وشدتها.» وهو يعترف مثل فرويد (Freud) ان المجتمع لا يمكن ان يبقى ويستمر دون تضحية أو إكراه أو نظام. إذن هذه الفضالة متلازمة مع الحياة الاجتماعية. «تبدو لنا أعمال التنسك والزهد على أنها أعمال مرتبطة بفضالة الاجتماعية، أعمال يبهت ويضعف ويختفي أحياناً فيها هدف الاجتماعية، فيما تتعاظم

الكثافة وتنمو وتكبر دون اتزان لتبلغ حد الغلو. ويمكن لامتناع الفرد هذا وترفعه عن الملذات ان يتجاوز المنفعة الذاتية، ليصبح نافعاً ومفيداً للآخرين وللمجموعة وحيث يندر الغذاء يبدو الصيام مفيداً. وحيث تندر الثروات ينفع الامتناع عن الاستهلاك الشهواني كل المجموعة. إن المجتمع الانساني كان لينحل لو ان كافة الرجال خضعوا وانقادوا لغرائزهم الجنسية عند رؤيتهم لامرأة». ويرتكز علم الاقتصاد على الرغبة في الامتناع عن الاستهلاك الفوري من أجل خير مستقبلي. ويندد باريتو (Pareto) بالتقشف والزهد الممارس لذاته، دون أي نفع يرجى، لا من أجل ضبط الحواس بل من أجل خنقها وقتلها. ففي جذور وأصول مثل هذه الحياة توجد مشاعر كامنة كالحسد والطموح والكبت: مثلاً هناك الكثيرات من مؤيدات النزعة النسوية اللواتي يكرهن الرجل لأنهن لم يجدن رجلاً يناسبهن ويوافقهن ويتحول هذا التضخم الى ظاهرة مرضية.ونجد باريتو (Pareto) يتخلى عن روح التجرد في التحليل ليتحول الى فريق حين يكتب في استنتاجه: تتأتى عن هذه الانواع من التقشف التي تحولت في بعض الاحيان الى مرض فتاك، والتي تفرض أحياناً على الآخرين، تتأتى الآلام التي أنزلت وما زالت تنزل حتى اليوم بالجنس البشري. إن الرجال بالتسامح معها وبقبولها طوعاً بدلاً من رفضها، وإبعادها، والقضاء على من يثيرها كما تقتل الافاعي السامة، يبرهنون عن قوة المشاعر المترابطة بها والتي تشكل انحرافاً للغريزة الاجتماعية التي لا يقوم المجتمع الانساني بدونها.

الفصيلة الخامسة -
تكامل الفرد وارتباطاته:

يعتبر باريتو (Pareto) هذه الفصيلة مكملاً لسابقتها باعتبار «أن الدفاع عن أموال المرء وزيادة كميتها عمليتان غالباً ما تختلطان». وبصورة أوضح تتعلق وترتبط هذه الفضالة بالدفاع والحفاظ على شخصه، وأمواله. «إن هذه المجموعة من المشاعر التي نطلق عليها تسمية «المصالح» تتسم بنفس طبيعة المشاعر التي ترتبط بها فضالة النوع الحالي. لذا من الطبيعي ان تشكل جزءاً منه ترتبط بها فضالة النوع الحالي ولكنها تتسم بأهمية جوهرية بالنسبة للتوازن الاجتماعي، لذا من المفيد دراستها بعيداً عن الفضالة».

وتعتبر المسألة أساسية، فقد تذرع البعض بهذا الابهام والالتباس الظاهر بين المصالح والمشاعر لاتهام باريتو (Pareto) بعدم التلاحم. الآن بالقول إذا كانت المصلحة هي أساس الاعمال المنطقية، فان الفضالة المدروسة هنا هي التي تتناول المصالح التي تشكل أساس الاعمال اللامنطقية: وأنواع هذه الفصيلة المختلفة هي التالية.

- المشاعر المتناقضة مع تحول التوازن الاجتماعي. إنها تدفع الفرد الى المطالبة بالتعويض عن كل إخلال بالتوازن الاجتماعي سواء كان

هذا التوازن هو المعمول به أم ذلك الذي يرنو اليه من الناحية المثالية. فكما كان يشعر حتى من لا يملك عبيداً لدى الاغريق بأنه قد أهين شخصياً عند تعرض سيد آخر الى خطف عبيده، كذلك يجري الاقتصاص باسم العدالة المثالية في مجتمع يؤمن بالثالوث المقدس من كل من يؤمن بعقيدة مخالفة. كما يندد المجتمع الاشتراكي بكل من يمتهن عقيدة مضادة، إن الشعور بالعدالة راسخ ومتوطد لدى الانسان، الى درجة يطلب معها الاشياء توزيع عادل لعائداتهم كما «يطلب الجنود الذين يتقاسمون الغنائم الانصاف في التوزيع، ويعتبرون ظلماً الاخلال بالقواعد المعمول بها في هذا المجال».

– الشعور بالمساواة لدى الطبقات الدنيا. تتناقض هذه الفضالة مع فضالة تسلسل المراتب الاجتماعية الواردة في الفصيلة السابقة. وهي تتناول مطالب مساواة الطبقة الدنيا بالعليا. وفي أغلب الاحيان يشكل هذا الشعور سبيلاً موازياً للمطالبة بالتمتع بنفس مكاسب وامتيازات الآخرين. «إن الشعور الذي يحمل إسم المساواة، قوي، وفعال، وحاد، لأنه ما من مساواة حقيقية ولأنه لا ترتبط بفكرة مجردة كما يعتقد بعض السذج من المثقفين، فهو يرتبط بمصالح الاشخاص المباشرة، هؤلاء الاشخاص الذين يريدون التحرر من بعض أنواع التفاوت التي لا تناسبهم وإقامة قواعد اخرى تلائمهم بصورة أفضل».

– إعادة التكامل بواسطة عمليات مرتبطة بالافراد الذين عانوا من الاختلال في التوازن. وتقوم هذه الفضالة في أصل ما يسمونه بطقوس

التطهير التي كانت سائدة في القديم، والتي يندر اليوم اللجوء اليها. ولا تهم طبيعة الاختلال - فهي يمكن ان تكون إتصالاً، أو تلوثاً أو خرقاً لممنوع أو تعد على قاعدة - فلا بد من إعادة التكامل والسبل متعددة منها: الاحياء، والتوضؤ، والتطهير والنضح بماء مقدس أو اعتراف المسيحيين. وتقوم هذه الفضالة على التمييز بين الطهارة وعدمها، وهما تشكلان فئتين اساسيتين في علم الاجتماع. وبالطبع تحتل ظواهر المحظورات وطقوس الطوطمية (إيمان بوجود صلة خفية بين شخص أو جماعة وبين طوطم ما) مكاناً بارزاً هنا. كذلك تشكل المشاعر الوطنية أصول مثل هذه الفضالة فالسويسري الفرنسي يطلب ان يقال جنيف (Genève) لاجنيف (Genf)، والفلامدي يطلب ان يقال بروجّ (Brugye) لابروج (Bruges).

- إعادة التكامل بواسطة عمليات مرتبطة بمن ساهم في اختلال التوازن. يوجد شعور يدفع الحيوان أو الانسان الى الرد على من أساء اليه. وأن يرد الاساءة بالأساءة. وطالما انه لم يحقق ذلك فهو يشعر بالضيق وكأنه يفتقر الى شيء ما. لقد تعرض تكامله للاختلال ولن يعود الى حاله الاول الا عند قيامه ببعض العمليات ضد من اعتدى عليه. ونجد نماذج هذه المشاعر في تلك التي تدفع الى الانتقام أو المبارزة. ويمكن ان تتناول هذه الفضالة كائناً واقعياً، كما يمكن ان تتناول كائناً خيالياً، كالانسان الذي يرتد عن إيمانه أو يمتنع عن الصلاة لأن الله لم يستجب لمطالبه ودعائه.

الفصيلة السادسة - الفضالة الجنسية:

نبدأ القول بأن هذه الفضالة لا تتضمن فروعاً نوعية على خلاف الفصيلة الثالثة، كما لا يتضمن تشعبات الى أجناس على خلاف الخمسة الاخرى. وكما سبق أن رأينا لا يهتم باريتو (Pareto) بالغريزة الجنسية موضوع علم النفس، بل يعنى فقط بالفضالة التي تبرز عبر البراهين والنظريات سواء نادت بالحرية الجنسية أو عارضتها. علماً أنه يهاجم المترفين. ونترك جانباً هذه المتاهات الكلامية لنكتفي بالقول إنه يعنى بنقاط كثيرة: ان يبين كيف يمكن لهذه الفضالة ان تقوم في علاقات بريئة طاهرة ،وأنها تولد الجزء الاكبر من الآداب والفنون (نحت فاجر في الكنائس أحياناً) وأنها تغزو الاديان، وفق الرومان القائلين بوجود آلهة خاصة تشرف على تخصيص المهر، ومهمة قيادة الزوجة الى منزل زوجها، وخلع حزام العفة لدى المرأة، وإتمام الزواج، والولادة، الخ.. إذن يوجد تأليه للعمل الجنسي. وتكون هذه الفضالة أصل عبادة المرأة في عدة ديانات، كما تشكل السبب في رفض الخطيئة الجسدية، وكذلك في التسامح مع البغاء ومنعه. وهي تغزو بصورة متوارية الادب البناء «إن المنادين بالفضائل الذين يحاربون العادات السيئة، يفعلون ذلك بطريقة تثير الرغبة.. ولنتجاهل هؤلاء الذين يتذرعون بحجة تثقيف الشباب للحفاظ على عفتهم، فيضعون الكتب لإطلاعهم على تفاصيل العمل الجنسي. المهم في رأي هذه الفضالة، هو المجموعة الفلسفية،

والادبية والاخلاقية أو الصحفية التي تعالج قضية الجنس.»

لا حاجة للتعليق المطـول على نظـرية الفضالـة. وإن كان من الواجب الاشارة إلى إمكانية عمل مختلف هذه الفضائل متلازمة. ونجد ان فضالة الفصيلتين الاولتين تتدخلان باستمرار بالتعاون مع فضالة بقية الفصائل وسنجد في بقية المؤلف ان باريتو (Pareto) ، سيعود خصوصاً عند معالجة السياسة الى فضالة الفصيلتين الاولتين اللتين تحددان التناقض الاساسي بين روح الخلق والتطـور، والابتـكار والتجـدد وبـين روح الاستقرار، والنظام، والبقاء. ويأخذ عن هذه النظرية استنتاجات فيما خص التاريخ والفلسفة، استنتاجات تقبل النقض خصوصاً حين يعلن «أن فضالة الفضيلة الثانية كانت أقوى لدى الرومانيين منهـا لدى اليونانيين.» أو حين يحاول إقناعنا بأن أثينا وفرنسا في بداية القرن، كانتا تملكان فضالة من الفصيلة الاولى وان سبارطة وبروسيا القرن الثامن عشر كانتا تملكان فضالة من الفصيلة الثانية. وقد شكلت هذه النظرية بالنسبة لباريتو (Pareto) الاساس لإبراز العناصر الكامنة في النشاطات الانسانية في معنى متباين عن ذلك الـذي يقصـده علـم التحليل النفساني، معنى أكثر عمقاً أيضاً. فمن جهة يحـاول باريتـو (Pareto) ان يبين بأن الانسانية تحتاج الى الفضالة لتبرير الاعمال اللامنطقية، ذلك ان المجتمع الذي ينتظم فقط على أسـاس مبـادىء العمل المنطقي أو المنهج المنطقي - التجريبي، وبالتالي على أساس العلم، سيكون غير قابل للحياة. وقد أخذ عليه إعطاؤه أهمية كبرى

للاعقلانية ، بينالم يجد فيها سوى عامل توازن. ومن جهة اخرى كما يقول«ر. أرون (R.ARon): «إن تصنيف الفضالة والاشتقاقات هي عقيدة تدرس الطبيعة الانسانية كما تظهر في الحياة الاجتماعية». وتتوافق مختلف فصائل الفضالة مع مجموع المشاعر العاملة في كل المجتمعات، وعبر التاريخ. ويرى باريتو (Pareto) أن فصائل الفضالة لا تتبدل كثيراً، بكلمة اخرى إن الانسان لا يتغير بصورة أساسية. والتأكيد بأن الانسان لا يتغير في أعماقه يختلط مع نظرية الاستقرار التقريبي لفصائل الفضالة.

* * *

(ب) نظرية الاشتقاق:

الانسان هو مزيج من الغرائز والعقل، وإذا كان المنطق هو التعبير النهائي عن النشاط العقلاني، فان الفضالة هذه المشاعر القوية، المنتشرة هي التعبير عن الغرائز. وفي الواقع نجد ان النشاط المنطقي محدد بالفضالة - النوع الخامس من الفصيلة الاولى -، وأن المنطق يحاول بالمقابل السيطرة على الفضالة دون أن يتمكن فعلاً من تملكها تماماً. ويتولد عن جهد المنطق هذا ما نسميه الاشتقاقات التي تعني المنطق الظاهري الذي يحاول الانسان إضفاءه على الاعمال التي ترتكز في أسسها على دافع متبق بأصوله. ونقصد بهذا القول ان الاسباب المعترف بها لتصرفاتنا ليست هي الفاعلة دائماً. فالاشتقاقات تخفي الأسباب الحقيقة في ظل مجموعة من التبريرات والعقائد. وبكلمة اخرى

تحل الاشتقاقات مكان المنطق الحقيقي الذي يقوم على البرهان، منطقاً تبريرياً أو تقدم منطق الاحاسيس والمشاعر وفق تعبير ث. ريبو (Th. Ribot) الذي أخذه باريتو (Pareto). « يقتنع الناس بالمشاعر، لذا يمكننا القول بما أكدته التجربة، أن الاشتقاقات تستمد قوتها لا من الاعتبارات المنطقية التجريبية بل من المشاعر، ففي الاشتقاقات نجد ان النواة الأساسية تتكون من الفضالة أو من عدد معين منها. وتتجمع حول هذه النواة أنواع أخرى من الفضالة الثانوية. وتتولد هذه المجاميع عن قوة كبيرة، تحافظ عليها وتوحدها منذ إيجادها، وتعتبر هذه القوة هي الحاجة الى التطور المنطقي أو التطور المنطقي المنتحل الذي يشعر به الانسان، وهي الحاجة التي تبرز عبر فضالة النوع، (١,٥) » (والنوع ١,٥ هو النوع الخامس من الفصيلة الأولى أو ما يسميه باريتو Pareto بالحاجة الى التطور المنطقي). ونوضح القول يمكن تفسير المشاعر بالفضالة فاذا ساهمت هذه الاخيرة في التفسير، والتبرير والبرهان وصلنا الى الاشتقاق» إذن نجد أمامنا إشتقاقا حين نخفي مصلحة خاصة في ظل مطلب يتسم بالمصلحة العامة، أو حين نخفي غريزة السلطة فينا في تصريح تؤكد فيه امتهاننا السياسة رغبة تحقيق واجب. ويعتبر باريتو (Pareto) بصورة عامة ان الجزء الأكبر من العقائد السياسية، والاخلاقية، والدينية هي من الاشتقاقات لا تؤدي كافة النشاطات الانسانية الى الوقوع في الاشتقاقات فباريتو (Pareto) يستبعد في الواقع الاعمال الغريزية الصرفة والاعمال المنطقية الدقيقة: « نفتقر الى الاشتقاقات عند

الحدين، من جهة في الاعمال الغريزية، ومن جهة اخرى في العلوم المنطقية التجريبية. إننا نجدها في الحالات الوسيطة. وهكذا الحيوان الذي لا يفكر، والذي يقوم بأعمال غريزية لا يملك أية اشتقاقات. أما الانسان فانه يشعر بالحاجة الى التفكير والمنطق، وإخفاء غرائزه ومشاعره. لذا نجد ان بذور الاشتقاق لا تنقص لديه، وكذلك لا يفتقر الى الفضالة.. من جهة اخرى يبدو العمل المنطقي الصرف غريباً عن الاشتقاقات لأنه لا يحتاج الى تبريرات. «في المواد المتعلقة بحياة المجتمعات نجد ان النظريات الملموسة تتألف من الفضالة والاشتقاقات. فالفضالة هي تعبير عن المشاعر. وتضم الاشتقاقات تحليلات منطقية ومغالطة منطقية، ومظاهر المشاعر المستعملة في الاشتقاق. وهي تعبير عن الحاجة الى التفكير التي تراود الانسان. إذن يمكن القول ان الاشتقاق لا ينطوي فقط على ما هو مغلوط أو منتحل منطقياً، فهو يضم ويمكن ان يضم عناصر غرائزية بسبب الفضالة التي تشكل أساسه والعناصر المنطقية الصرفة ذات الطابع التجريبي.

ما يميز الاشتقاق هو انه (α أ) معلل أكثر منه منطقي لذا فهو يفسح المجال أمام العديد من السجالات، والمتاهات اللامتناهية. وهو يدعي واهماً انه العنصر الاهم في النشاط، في الوقت الذي يخفي فيه فقط الفضالة التي تعتبر وحدها أساسية.(يميل علماء اللاهوت، والماورائيات، والمصلحون، والمثقفون) يميل كل هؤلاء الى إعطاء المرتبة الاولى للاشتقاقات.»فهم يعتبرون الفضالة من المسلمات أو المبادىء، والهدف هو بلوغ التحليل المنطقي. وكما انهم لا يتفقون حول الاشتقاق، فانهم

يتباحثون حوله ويتخيلون انهم يعدلون الوقائع الاجتماعية إذا برهنوا على غلط إحدى الاشتقاقات، هم يتوهمون ولا يفهمون ان خلافاتهم بعيدة عن عدد كبير من الناس إنهم يعتقدون انهم قضوا على إحدى الاشتقاقات، فتبرز لهم في شكل جديد. «الاثر الوحيد الذي نحصل عليه بالقضاء على الاشتقاق هو استبداله بآخر». ودور عالم الاجتماع هو عدم الخلود الى المظاهر وهذه المشادات المشهدية، والبحث عن الفضالة التي تخفيها. (ب b) الاشتقاق لين، «وتتميز الاشتقاقات بصورة عامة بطبيعتها المطاطة» فهي بتخليها عن الدقة المنطقية، قادرة على التكيف مع الظروف، أو التناقض وعدم التلاحم معها، التعرج أو المواربة، التغير أو الثبات العقائدي، لأنها لا تهدف الى البرهان بل تريد الاقناع والتبرير. وهي على خلاف الفضالة التي تبقى على حالها، دون تبدل، فانها تتنوع وتتبدل وفق الظروف. «إن الاشتقاق يتبدل والفضالة تدوم وتبقى» وهو يتلاعب بمصادر اللغة.

وتعتبر هذه الملاحظات فعالة سواء بالنسبة لذلك الذي يضع نظرية جديدة، أو ذلك الذي يتلقى الفكرة ويستجيب لها، فنحن نعتقد أننا نأخذ أو نقبل بالاشتقاق لأسباب منطقية تجريبية، في الوقت الذي تدفعنا المشاعر في تحديد موقفنا واتخاذه. بكلمة اخرى ان الاشتراكي، أو المناصر للسلام، سواء كان حزبياً مناضلاً أو قائداً، يعمل هو ومنافسوه على أساس قاعدة الاشتقاق وتحت تأثير الفضالة. كذلك هو الحال بالنسبة لبعض النظريات التي تدعي العلمية فهي تخضع الى

نفس القانون وتعالج الاشتقاق في الوقت الذي تظن فيه انها تناقش الافكار بصورة منطقية. «إن من يباشر دراسة الظواهر الاجتماعية، يتوقف أمام مظاهر النشاط، أي أمام الاشتقاق دون الصعود الى أسباب النشاط نفسه أي الى الفضالة. وهكذا يتحول أحياناً تاريخ المؤسسات الاجتماعية الى تاريخ للاشتقاق وتاريخ للتوسعات التي لا تعتمد على أساس». واعتقدالبعض انه دون تاريخ الديانات وهو يدون تاريخ علوم اللاهوت. وأنه كتب تاريخ المؤسسات السياسية وهو يحرر تاريخ النظريات السياسية. ويعتبر باريتو (Pareto) ان العلم الذي لا يخضع للمنهج المنطقي التجريبي، والذي يهمل الفضالة هو علم خاطئ إذ أنه يتحول بذلك الى نظام اشتقاق بدوره.

يمكن دراسة الاشتقاق من زوايا مختلفة مثلاً في علاقتها بعلم المنطق، لمعرفة مدى صحة البرهان وإن لم يكن سوى برهان مغلوط. ويعود مثل هذا البحث الى علماء المنطق لا الى علماء الاجتماع وكذلك نتمكن من تدليله من زاوية الواقع التجريبي، وهذا ما فعله باريتو (Pareto) في الفصول الاولى من بحث علم الاجتماع (Traite de sociologie) حين حاول تحديده بواسطة المنهج الاستقرائي، تحديد القيمة التجريبية لمختلف النظريات التي تدعي العلمية. ومهما بلغت أهمية هذه النقاط فانها تبقى تابعة ومكملة برأي عالم الاجتماع، الذي تقتضي عليه مهمته تحليلها لا من أجل تحقيق منفعة معينة، لا قناع القارئ مثلاً بل لابراز بعض التماثل والاطراد في الوقائع الاجتماعية. فحين يكتشف عالم المنطق خطأ التحليل، أو يكشف عن منطق مغلوط

فان مهمته تنتهي. أما مهمة عالم الاجتماع فانها تبدأ على خلاف ذلك: إذ يتوجب عليه البحث عن سبب قبول مثل هذا المنطق المغلوط، وعن سبب قدرته على الاقناع. فالمنطق المغلوط الذي لا يشكل سوى حجة منطقية دقيقة لا يهمه كثيراً، لأنه لا صدى له بين الرجال. فهو يعني بالدرجة الاولى بالمنطق المغلوط أو المنطق الذي يأخذ به عدد كبير من الناس. علم المنطق يبحث عن سبب خطأ التحليل، أما علم الاجتماع فانه يبحث عن سبب حصوله على مثل هذا الرضى، وهذه الموافقة». فلا بد من وضع علم اجتماع للعقائد. وكما يجري دائماً فان النظرية تؤدي الى التصنيف، وهي تضم كما بالنسبة للفضالة جوهر النظرية. ويميز باريتو (Pareto) بين أربعة فصائل من الاشتقاق، أي أربعة مصادر رئيسية نعود اليها بصورة شعورية أو لا شعورية، لاضفاء مظهر منطقي على البرهان التبريري الذي يأخذ من المشاعر. وهو يقسم هذه الفصائل الى أنواع ولكنه لا يوزعها الى شعب وفئات على خلاف الفضالة.

الفصيلة الاولى -
التأكيد والاثبات:

يؤخذ بالفكرة أو النظرية ويعمل بها لأن أحداً ما أكدها، ووجدتا الرضى والقبول. وهكذا يصدق الناس واقعة نقلت في جريدة، لأن صحفياً تكفل بنقل تفاصيلها وسردها. ونقبل بنفس الطريقة بالوصايا

الاخلاقية والامثال والحكم المتنوعة . فنحن ندخل الى الجامعة أو نلتحق بخدمة العلم بعد حصولنا على البكالوريا لنراعي العادة الجارية . ويحمل التأكيد والاثبات « قيمة مطلقة أو مسلمة بديهية ، أو مذهبية ، وهو يتراوح بين الانباء البسيطة أو البيانات ذات التماثل التجريبي ، وغالباً ما يرد بطريقة لا نعرف معها إذا كان يعبر فقط عن وقائع تجريبية أو أنه يساهم في النوعين » . ويميز باريتو (Pareto) بين ثلاثة أنواع .

– الوقائع التجريبية أو الوقائع الخيالية . الاثبات هنا يستعين بالتجربة . وبالطبع لا نجد أي اشتقاق إذا كانت الواقعة من النوع المنطقي التجريبي ، ذلك ان الاشتقاق لا يتوفر الا في حال الرجوع الظاهري الى التجربة كما في حالة الصحفي الذي يفترض ان المقال المنشور عن الصين يرتكز على براهين ، لا تقبل النقاش ، أو على وثائق ، متينة وصحيحة . « إن الاثبات البسيط لا يملك قوة البرهان ، ولكنه يملك أحياناً قوة إقناع كبيرة » وهذا هو حال الاثبات المكرر ، هذا النوع من الاثبات والتأكيد الذي يؤكد عليه باريتو (Pareto) بقوة . وتلجأ الى هذه الطريقة كل الاعلانات الدعائية مهما اختلف مصدرها . فلكثرة تكرار فكرة أمامنا ، ننتهي بتصديقها والاعتقاد بها ، لأن الاثبات يكتسب بكثرة تكراره قوة خاصة ، ويتحول الى ذريعة عمل . ويكتسب سمة الاشتقاق . أو يجري تأكيد الاثبات ، باثباتات اخرى من نفس النوع ، وذلك بتقديم إجراء سياسي على انه ديمقراطي وإنساني وتقدمي . وأخيراً يمكن إدخال الاثبات التعسفي أو الخيالي ضمن مجموعة من الإثباتاتالتجريبية ، فيحصل على الموافقة بفضل صحة بقية المقترحات .

- المشاعر والاحاسيس، يستغل الاثبات المشاعر فيتم قبوله من هؤلاء الذين يحملون نفس المشاعر. ذلك ان المناضل الحزبي يعتبر أي تأكيد ذاتي لقائده حدثاً موضوعياً. كذلك يمكن ان يتم الالتحام على أساس المشاعر أي القبول باعلان الاثبات بثقة وحزم وبنبرة المقتنع.

- مزيج الوقائع والاحداث. ويفسر هذا النوع ذاته باسمه ولا يوجب أي تعليق.

الفصيلة الثانية -

السلطة:

إنها الحجة القوية التي تقدم في ظل مظاهر مختلفة. فغالباً ما نعطي أهمية كبرى لتعليقات من يملك سلطة سياسية كبيرة، أهمية موازية ولو تعرض للقضايا الجمالية. كما نعطي أحياناً أقوال العالم الفيزيائي السياسية قوة استنتاجاته العلمية. ويمكن أن تعود هذه السلطة الى شخص أو تقليد، أو فكرة ومن هنا تنبع الانواع العديدة.

- سلطة شخص أو عدة أشخاص.. ففي الماضي كان الناس يخضعون لسلطة الشعراء، ونجد اليوم أن آخرين قد أخذوا مكانة هؤلاء الشعراء. كذلك كما كان اليونان يستشهدون بهوميروس والرومان بفرجيل والالمان بغوته (Goathe)، نرى اليوم ان ماركس (Marx) هو سيد الموقف ويقوم هذا الاشتقاق على أساس فضالة مشاعر الاجلال.

- سلطة التقاليد، والعادات، والعرف. فقد حلت اليوم مكان عبارة «حكمة القدماء» القديمة صيغة جديدة وهي «تقاليد الحزب» وقد حلت مكان سلطة الثورة سلطة مؤلفات اخرى. ويقول باريتو (Pareto) انها حاجة سائدة رغم الترفع الظاهر عن العادات. ذلك ان كل تنظيم وكل مجموعة تخلق عادات خاصة بها تعود اليها عند الحاجة.

- سلطة كائن الهي أو التجسيد. لقد حلت سلطة اخرى مكان سلطة القوة القاهرة - كما يشاء الله، سلطة بعض الافكار المجردة كالديموقراطية، والتقدم، والامة، والعلم.

الفصيلة الثالثة -

التوافق مع المشاعر أو المبادئ

نرفع المشاعر والاحاسيس عادة الى مرتبة المبادئ.. «وغالباً ما نجد ان التوافق يقوم مع مشاعر صاحب الاشتقاق أو مشاعر من يقبل بهذا الاشتقاق، في الوقت الذي يبدو فيه انه توافق مع مشاعر كل الرجال، ومشاعر العدد الاكبر من الشرفاء.. ثم تنفصل هذه المشاعر عن الموضوع الذي حققها لتشكل مبادئ. ويضم هذا التصنيف عدداً كبيراً من الانواع».

- المشاعر.فنحن نرفع الى مرتبة المبادئ الرضى العام. ونؤكد الايمان به بواسطة هذا التصديق الشامل. وقد اعتمد علماء اللاهوت هذه الطريقة دائماً للدلالة على وجود الله.

- المصلحة الفردية. «ويقتضي أحد المناهج الاكثر استعمالاً الخلط بين المصلحتين بفضل الاشتقاقات، والتأكيد على تشابهها والقول ان الفرد بالسهر على أموال مجموعته يحافظ على مصلحته الخاصة». ويحلل باريتو (Pareto) مطولاً، بهذا الخصوص، مبدأ بنتهام (Bentham) حول التماثل بين سعادة الفرد القصوى وسعادة الانسانية القصوى.

- المصلحة المشتركة. «إذا كانت هذه المصلحة حقيقية، وواقعية، وإذا أتم الفرد عمله في سبيل تحقيق هذه المصلحة فاننا لا نجد أي اشتقاق أو انحراف... ولكن غالباً ما يختلف الهدف الموضوعي عن الهدف الذاتي، فنحصل على أعمال لا منطقية نبررها بالاشتقاقات والانحرافات، ويستغل هذا الاشتقاق كل من يود الحصول على أمر، ويطالب به باسم المجموعة لا باسمه الشخصي. فهناك بعض رجال السياسة الذين يرغبون بشيء ما لهم فيطالبون به باسم الحزب، أو الوطن، أو المنطقة». ومن ضمن هذا المنطلق يوجه النقابيون مطالبهم باسم البرولتاريا، ويوجه الصناعيون مطالبهم باسم المصلحة العامة، أو باسم الطبقات العاملة والكادحة.

- الكيانات القانونية. لقد اعتدنا بعض العلاقات الاخلاقية والقضائية، فباتت تسيطر على أذهاننا، وقد تحولت بنظرنا الى مبادىء مطلقة. وهكذا تتسم في عهدنا فكرة العقد أو السلام بالسمة الشبه - الالزامية. ونأمل بأن نضمن المستقبل بهذه المفردات كما كانوا يعتقدون في القرون الوسطى بأنهم يقضون على غزوات الفئران بمحاكمتها وإدانتها.

- الكيان الماورائي .. يلاحظ باريتو (Pareto) ان هذا النوع من الاشتقاق يستخدمه المثقفون والمفكرون، وهم يبررون أعمالهم باسم الانسانية، والتضامن، والعدالة، والمساواة .. ويتعرض باريتو (Pareto) لمفهوم الالزام والواجب الجاثم لدى كانت (Kant)، الذي نصب واجباً مطلقاً. ومن جهة اخرى نجد اننا حاربنا بضراوة، وطويلاً فكرة الحق الالهي فلم نشعر بأننا استبدلناها بارادة الشعب. ذلك ان أي نظام سياسي يبرر شرعيته بحجة تعني مفهوم الحق الالهي.

- الكيانات الخارقة. ويتناول وسائل التبرير المناسبة لغير المثقفين، وهي لا تتضمن فقط الواجب الجاثم ولكن رب الوصايا العشر يفرض عليهم الخشية والاحترام.

الفصيلة الرابعة -

البراهين الشفهية:

كرس باريتو(Pareto) لهذه الفصيلة أكبر عدد من الصفحات فهناك فصل كامل من مبحث علم الاجتماع (Traite de ologie) يحلل رياء اللغة ومورابتها، وحيل وإبهام الاسلوب الخطابي. ويقول باريتو (Pareto) « تشكل هذه الفصيلة من الاشتقاق الشفهي الذي يتولد عن استعمال عبارات لا تحمل معنى محدداً، عبارات مبهمة، موارِبة لا تتوافق مع الحقيقة. وإذا رغبنا اخذ هذا التصنيف بمعناه

الواسع ، فانه يطبق على كافة أنواع الاشتقاق التي لا تتوافق مع الواقع . يشمل كل أنواع الاشتقاق ، فلا يبقى من موجب لتمييز الفصيلة الرابعة عن غيرها . » أحياناً نكتفي بالمنطق الشكلي الصرف ، وأحياناً ننتقل بواسطة الوسائل المدوخة من الشيء الى اللفظ ، أو بالعكس من اللفظ الى الشيء . وهنا أيضاً يفضل باريتو (Pareto) التدقيق في الأنواع وتفحصها ولا يتوقف طويلاً عند العموميات .

- عبارة مبهمة وغير محددة تشير الى أمر واقعي ، وأمر غير محدد يتوافق مع لفظة معينة . ويبين باريتو (Pareto) ان أنواع منطقية كثيرة كالقياس المتسلسل تستغل إبهام مفهوم معين لصبغ سمة المنطق . وهكذا نتمكن من رد كل الفضائل الى الاشتراكية حين لا نهتم بتحديد مفهومها . فالتحديد يقضي في الواقع على الابهام .

- اللفظ الذي يشير الى شيء ، ويولد مشاعر ملحقة ، أو المشاعر التابعة التي تدفع الى اختيار لفظ . فمعنى بعض المفاهيم يختلف بالنسبة لانتمائنا العاطفي الى نظرة فلسفية ، أو فريق سياسي . فنحن نعتبر ديموقراطية خاطئة تلك التي يعتبرها أعداؤنا صحيحة . وحين يتمسك الارثوذكسي بايمانه ، ويبقى وفياً له نصفه بالثبات ، أما الملحد الذي ينتهج نفس التصلب فانه يعتبر معانداً . وخلال الحرب يسمى عامل الاستخبارات إما مخبراً ، أو جاسوساً وهذا وفق الفرقاء ، وترتكب الحكومة ، بقتلها فوضوياً معتدياً ، جريمة بنظر الثوريين ، أما الثوري الذي يملك زمام السلطة ويقوم بنفس العمل فانه يدعي النيل من المجرم باسم الشعب وقضيته . والبوليس هو هيئة حماية بالنسبة للسلطة ، ووسيلة

قمع بالنسبة للمعارضة. أما إذا تسلمت المعارضة معايير الحكم فان البوليس يعود ليشكل هيئة حماية بالنسبة اليها.

- لفظة ذات معاني مختلفة، وأمور مختلفة يشار اليها بعبارة واحدة. ويدرس باريتو (Pareto) . بهذا الخصوص عدة أمثلة ومنها مفهوم السلام، والتاريخ، والطبيعة. ولكننا لن نتابع فكرته، ذلك انه يعتمد الشرح المطول، لذا سنكتفي بعرض روح دراسته. فمن غير المفيد مثلاً استعراض المعاني التي تقلبت بها كلمة طبيعة من عهد أرسطو الى عهد روسو (Rousseau) . يمكن لكلمة سلام ان تحمل عدة معاني وفق إعتبارنا لها حالة فورية، أو وضع نتطلع اليه. ونحن نصف باختلاف تبنينا أحد النموذجين، سياسة الحكومة إما بالمسالمة أو بالداعية للحرب. كذلك يمكننا المواربة مع لفظة تاريخ بالخلط بين معناها الفلسفي والطوباوي كتفسير للمستقبل. كذلك يطرح باريتو (Pareto) قضية ثانية. إذ يمكن الانتقال من الشيء الى اللفظة بوصف الكائنات بالشياطين، كذلك يمكننا الانتقال من الكلمة الى الشيء. والقول بأنه لا بد وأن تتطابق كلمة شيطان مع أمر واقع، لأنها موجودة.

- الاستعارة، المجاز والقياس. يمكن استعمال هذه الطرق الثلاثة وخصوصاً القياس كوسائل كشف، وإن كان لا يسعنا ان نصل معها الى استنتاجات أكيدة، كما في المنهج شبه المنطقي الذي يجسد كل ما هو قياسي. فنحن نستطيع ان نبسط على مجموعة الظواهر القياس، هذا القياس الذي لا يسود الا بعض سماتها ومظاهرها. ويتمكن مناوئو

الحكم بالاعدام من الخلط بين ظاهرتين مميزتين حين يسيئون استعمال الاستعارة، ويصورون إنزال حكم الاعدام بقاتل على انه اغتيال شرعي. وكذلك هو حال الاستعارة التي تصور الملكية على انها بعض ضروب السرقة. صحيح ان مثل هذه الطرق والمناهج تؤثر على القارىء، لكن من المؤكد ان لا قيمة علمية لها.

- الالفاظ المبهمة، غير المحددة، التي لا تنطبق على أمور مادية، ملموسة لكل عصر ألفاظه التي تنطبق دون استثناء على حل أية قضية. فهناك بعض علماء الاجتماع الذين لا يتركون مجالاً للاضافة حين يعلنون ان الوضع المدروس يقتصر على مشكلة علاقات الانتاج. ويستعمل آخرون بنفس الطريقة مفهوم الاستلاب. ويأخذ باريتو (Pareto) مثلاً لفظة التجاوز المعمول بها في عصره.

نظرية الاشتقاق، كنظرية الفضالة لديه، لم تكن الالتثير عدداً من قرائه. فمن المسيء القول ان الخطابات التي نعتبرها متلائمة، والافكار التي نعبر بهاعنها تفتقر الى المنطق، ونحن نقبل بأن يتم البرهان على حساب رجال السياسة، بعد ان تحول الهزء من أقوالهم الى العموم بفضل الصحف. ولكن باريتو (Pareto) يذهب أبعد من ذلك ويبين بواسطة منهجه المنطقي التجريبي، ان كافة النظريات الفلسفية ودون إستثناء، سواء كانت ماورائية، أو تدعي العلمية كالماركسية تخضع لنفس الانتقاد. ويتطرف في موقفه، ويجري تشبيهات رهيبة بالنسبة لخيلاء بعض قرائه، حين يوضح بأن العقيدة التي تتسم بالتقدمية

والانسانية والتحرر والتي تم الاعتراف بها بالاجماع تقريباً، هذه العقيدة ليست سوى اشتقاق، لأننا إذا أعدناها الى الفضالة الكامنة، نجد انها لا تختلف عن التطير القديم، أو عن العقيدة الرجعية التي تهزأ وتسخر منها. وتتعرض الاخلاقية المرتبطة بذهنية المثقفين، تتعرض إلى ضربة قاسية حين يؤكد باريتو (Pareto) على أهمية هذا المنطق المنتحل باعتبار ان المجتمع يعجز عن البقاء والاستمرار إن تميز بالعقلانية الكاملة والمتلاحمة، أو اتسمت المسالك الانسانية بالمنطق الذي تدعيه، أو خضعت كلها الى المنهج المنطقي التجريبي. كذلك لا يتوقف نجاح عقيدة وانتشارها لا على صحتها المنطقية، ولا على محتواها العلمي، بل على المشاعر وحدها، أي أن نجاحها يرتبط بقدرتها العاطفية. «فيما خص المعرفة يملك العلم المنطقي - التجريبي وحده القيمة، أما فيما خص العمل والنشاط فمن الافضل التخلي عن الانقياد للمشاعر». لقد كانت الضربة قاسية، أضف أن باريتو (Pareto) قد تمكن بفضل نظرية الفضالة والاشتقاق من خرق سبر أولية الدعاية قبل ان تطغى على النفوس بعد حرب ١٩١٤ - ١٩١٨. إنه يقوض الاوهام ويهدمها. وتكفينا عبارتان لتجسيد هذه الحقيقة «هناك اشتقاق يكثر العمل به، إنه الاشتقاق الشفهي. ففي عهد عودة الملكية الفرنسية، كان كل ما يسيء الى الحزب الحاكم يعتبر «ثورياً وكان هذا تنديداً كافياً. أما اليوم فيقال «رجعي» وهذا تنديد كاف ايضاً. بهذه الطريقة نطلق المشاعر الحزبية والطائفية (فضالة الاجتماعية الفصيلة الرابعة)». أو فيما خص معرفة

القيمة الاجتماعية للماركسية ، نجد ان الاطلاع على نظرية فائض القيمة لدى ماركس (Marx) وتقييم صحتها يوازي بالنسبة لدراسة قيمة المسيحية الاجتماعية ، يوازي معرفة ما إذا كان التنصير يغسل الخطيئة الأصلية وكيف ان هذا الامر معدوم الاهمية أو قليلها .

* * *

(ج) - الترابط والتلازم بين الفضالة والاشتقاق

« الآن وبعد ان بتنا نملك نظرية عامة ، يسعنا الاهتمام من جديد بالموضوع الذي عالجناه مباشرة » . هذا ما يعلنه باريتو (Pareto) في الفصل الذي يكرسه لميزات وصفات الفضالة والاشتقاق . ونحن نعرف انه كان يبحث عند مباشرته فصل الفضالة التي أشار اليها في ذلك الحين بحرف (a) ، كان يبحث عن عناصر هذه النظرية . إذن بلغ الهدف . فالفضالة والاشتقاق هي الشروط الواجب توفرها لفهم الاعمال اللامنطقية ، ويمكننا بالتالي ان نفسرها تماماً كالاعمال المنطقية . وتبدو النظرية العامة للمجتمع ، التي بدت ضرورتها إثر المقاومة التي لقيتها النشاطات الاقتصادية ، والاعمال المنطقية في الواقع الاجتماعي الملموس ، تبدو هذه النظرية ممكنة بدورها ، يعني انه يمكننا وضع علم اجتماع يسنح المجال أمام التقصيات التي تتسم بالعلمية . ويرى باريتو (Pareto) انه من الضروري قبل التعرض لهذه المهمة الجديدة ، تحليل مختلف أنواع الترابط والتلازم بين الفضالة والاشتقاق ، هذا الترابط القادر على

المساهمة في تسهيل وتهوين المهمة الجديدة. وهو يكرس لهذه القضية أطول فصل في مبحث علم الاجتماع (Traité de sociologie)

الفضالة التي يتوجب علينا عدم منحها «وجوداً موضوعياً هي من العوامل التي تحدد «التوازن الاجتماعي». ولكنها تبقى كامنة، وما تشهده بصورة مباشرة هو الاشتقاق؛ ذلك ان باريتو يعتبر للأسف ان علم الاجتماع يقف عند ما هو مشهود تجريبياً، دون دفع التحليل نحو العمق. يجب الا نعتقد بامكانية العودة المباشرة من الاشتقاق الى الفضالة التي نحدده ونتحكم به. القضية أكثر تعقيداً»، لأنه يتوجب علينا ان نفك الغاز ومواربة المنطق المنتحل الذي يستغل الظواهر لاخفاء السياق الحقيقي، وبالتالي الفضالة الحقيقية. فمن يكتفي بدراسة الاشتقاق يكتشف خلافاً كبيراً بين الأديان، ولكنه حين يصل الى الفضالة ويجدها يرى ان الامر «لا يتعدى الأشكال المتنوعة لأساس واحد، وأن التطير الذي تعتقد بأنه قد زال تحول ليبقى ولكن بشكل آخر.» ويساعدنا البحث عن الفضالة في فهم السبب الذي يجعل من انواع مختلفة من الاشتقاق التي تبدو لنا متناقضة تماماً أو متعارضة يجعلها تنبثق عن نفس الأساس. ومن هنا تبرز أهمية إقامة تقارب وتشبيه قد يدهش للوهلة الاولى، لكنه يحمل معنى كبيراً وإيحاء واسعاً بالنسبة لعالم الاجتماع. مثلاً على ذلك «لقد زال واختفى الزياج الكاثوليكي لكنه استبدل» بالمواكب «والمظاهرات السياسية

والاجتماعية». وهذا لأن الفضالة تتغير ببطء بينما يتميز الاشتقاق بالتنوع الى درجة نظن معها ان الواحد يشكل تقدماً بالنسبة للآخر. ولكنه لا يعني أكثر من الظاهرة الخارجية عند مراعاته من زاوية الفضالة. وهكذا تبقى الحاجة الى التماثل والاطراد هي نفسها، رغم أنها ترتبط كل مرة بظواهر مختلفة على مستوى الاشتقاق. وتشكل تحليلات باريتو (Pareto) من زوايا مختلفة مساهمة في نظرية الصورية (simulation).

ولا تقدم الفضالة، ككل الافتراضات، الا معرفة تقريبية من الواقع. لذا لا بد من مراعاة علاقاتها بالاشتقاق وفق مبادئ التبعية المتبادلة، والسببية المتعددة. ويمكن ان يقرب هذا المنهج في تحليل الواقع، من منهج المادية التاريخية التي تستخدم التفاعل بين البنية والبنى الفوقية، وإن بقي هناك خلاف أساسي بالنسبة لباريتو (Pareto) لأنه «لا يمكن فصل الوضع الاقتصادي عن بقية الظواهر الاجتماعية التي يرتبط بها بالتبعية المتبادلة. وبالتالي لا يمكن إحلال علاقة واحدة بين السبب ومؤثراته مكان العلاقات العديدة المتشابهة التي تتضافر وتتشابك». التأكيد بأن مسبباً واحداً هو الفاعل عند التحليل الاخير هو من سمات نظرية تتجاوز حدود التجربة وتتخلى بهذا عن صفتها العلمية لتتحول الى الماورائيات. إذا رغبنا في استخدام المخطط التفسيري للفضالة والاشتقاق، لا بد من التذكر بأننا حين نتكلم «عن أثر الفضالة على بقية العوامل الاجتماعية، لا نهتم سوى بجزء من الظاهرة، وان هناك جزء يشتمل ليس فقط على أثر هذه الوقائع على الفضالة بل على آثار كل هذه الظواهر المتبادلة». ولنفس الاسباب نجد

ان العلاقة بين الفضالة والاشتقاق ترتكز على التفاعلية» لقد رأينا ان الفضالة تتميز بالاستقرار أكثر من الاشتقاق، لهذا تمكنا من الملاحظة بأنها تشكل جزئياً «مسبب» الاشتقاق، ولكن دون ان ننسى أثر الاشتقاق، الثانوي القادر ان يكون أحياناً «مسبب» الفضالة ولو بطريقة تبعية». ويمكننا إيجاز هذا الاثر المتبادل للمفهومين كما يلي:

«يمكن للفضالة ان تؤثر..أ) على أنواع أخرى من الفضالة.. ب). وعلى الاشتقاق. كذلك يمكن للاشتقاق ان يؤثر ..ج) على الفضالة د) وعلى الاشتقاق». إذن لا يستبعد ان يكون مصدر الاشتقاق في أنواع الفضالة المتناقضة (الفضالة في الفصيلة الاولى والثانية) ولا أن يكون الاشتقاق متنافراً. ونجد ان الكثيرين من المثقفين يستخدمون كل قدراتهم في التمويه المنطقي للتوفيق بينهما ظاهرياً. فيما يكتفي الباقون بالتوفيق بين الاشتقاق وعواطفهم.

لا بد من التأكيد على تأثير الاشتقاق على الفضالة «فبفضل هذا الاثر وحده، يملك الاشتقاق فعالية كبيرة في تحديد التوازن الاجتماعي. فالاشتقاق الذي يفسح المجال فقط أمام حاجة الانسان الى المنطق، والذي لا يتحول الى مشاعر وأحاسيس أولاً يوطد المشاعر ويدعمها، لا يؤثر على التوازن الاجتماعي. إنه ليس أكثر من اشتقاق آخر»

ينتج عن هذا «أن الاشتقاق مقبول ليس لأنه يقنع الناس، بل لأنه يعبر بوضوح عن أفكار يملكها هؤلاء الناس بصورة مبهمة، ملتبسة. هنا تكمن الظاهرة الاساسية بصورة عامة. وحين يؤخذ بالاشتقاق

ويقبل به ، فانه يزيد من قوة ، وحدة المشاعر التي تجد في هذا السبيل وسيلة للظهور». إذن نحن نفقد غالباً وقتنا في محاولة إبراز السمة اللامنطقية للعمل. والرجل الذي يفكر بصورة منطقية صحيحة وحده يوافق على إظهار خطئه. لا بد في سبيل محاربة عمل لا منطقي من مجابهة المشاعر بعضها ببعض. وهنا ايضاً يجب الا ننقاد للأوهام. فكثيراً ما يساهم الدحض المنطقي للبرهان العبثي في دعمه خصوصاً حين يكون مرتكزاً على مشاعر قوية: ويتكرر هذا الحادث كثيراً خصوصاً وان الاشتقاق يستطيع ان يدعم نوعاً آخر من الاشتقاق. ويستنتج باريتو (Pareto) أن الصمت هو أفضل وسيلة لحرمان الاشتقاق أو البرهان العبثي من قوته.

ويمكننا ان نتساءل كيف يتوصل الناس الى تحقيق أهداف إيجابية وضعية، وهم يعملون غالباً بصورة لا منطقية. لم يهمل باريتو (Pareto) هذه القضية ويلاحظ ان المجتمع كان ليتهدم ويتقوض، لو ان مثل هذه الدلالات والبراهين لا تتوافق بصورة أو باخرى مع الوقائع. وهو يحل هذه القضية بسرعة باستبعاد حل داروين، وبادخال مفهومه حول الطبيعة الانسانية ضمنياً: وإذا كانت الاعمال لا منطقية، ولا يعني هذا إنها منافية للمنطق، إذا كانت لا منطقية فهذا لأنها بنيوية مركبة وتتضمن عناصر منطقية. ولا تتولد الفضالة والاشتقاق عن الصدفة، لأن الطبيعة الانسانية مزيج من العقل والغريزة. فهذه الاعمال تتضمن النوعين، وتقف في مرتبة وسط بين النقيضين اللامنطق

الكامل والمنطق. وهي تتطور آخذة بالغريزة والمنطق أي انها تصلح نفسها حين تبدو آثارها مضرة « نلاحظ انه يمكن إصلاح الفضالة التي تبتعد عن التجربة بالاشتقاق الذي يبتعد عن المنطق، فيقترب الاستنتاج من الوقائع التجريبية».

* * *

٤ - التوازن الاجتماعي:

رأينا عند دراسة عالم الاقتصاد ان باريتو (Pareto) اعتبر التوازن المخطط الموجه في اقترابه الاجتماعي، ولكنه أعرب عن بعض التردد بسبب صعوبة تحديد متقلبات ومتغيرات التوازن الاجتماعي. ويساهم اكتشاف الفضالة والاشتقاق بحل القضية جزئياً. رغم ان هذه المبادئ أدبية أكثر منها رياضية، رغم التباسها الا انها قادرة على ان تشكل مقاربات في تحليل المجتمع الشامل. ويبدو ان باريتو (Pareto) عني في البداية بعلم الاجتماع لمساعدة علم الاقتصاد على فهم المقاومة الملموسة الذي يجدها في المجتمع. وتبدلت رؤاه حين كرس جهوده وبحوثه لدراسة علم الاجتماع. اتسعت نظرته الى المجتمع دون التناقض مع دراساته السابقة، سوى وعيه المتزايد لبعد علم الاجتماع. فهو بدلاً من مراعاة علم الاجتماع من زاوية علم الاقتصاد، سيدرس علم الاقتصاد من زاوية عالم الاجتماع ، أي انه سيحاول إدماج علم الاقتصاد مع بقية النشاطات الاجتماعية في نظامه الاجتماعي. ويبرز هذا التحول في فصل «مبحث علم الاجتماع (Traité de Sociologie)

المسمى «شكل المجتمع العام». وهو لا يقبل فقط القول «بأن دراسة الكثير من الوقائع الاقتصادية لا تتم دون الاستعانة بعلم الاجتماع. ولكنه يستطيع القول بعد العودة الى مخططه الموجه، بوجود قياس بين التوازن الاقتصادي والتوازن الاجتماعي .. وان هذا القياس كبير الى حد يمكن معه اعتبار أوضاع وحالات النظام الاقتصادي كحالات خاصة من حالات النظام الاجتماعي العامة. بكلمة اخرى بقي باريتو (Pareto) أميناً لحدسه الاول حول أهمية مفهوم التوازن، لكنه بدلاً من النظر الى الامور من زاوية التوازن الاقتصادي كما في الدروس (Cours) والموجز (Manuel) في الاقتصاد السياسي، راعاها من زاوية التوازن الاجتماعي، فالتوازن الاقتصادي هو مظهر من مظاهر التوازن الاجتماعي العام. ويبدو ان وعي أهمية الاعمال اللامنطقية في المجتمع هو أحد أسباب هذا التحول. ولا شك ان الكثيرين سيعمدون الى معارضة نظريته الاقتصادية مع نظرية علم الاجتماع لديه كما يعتقد البعض بوجود قطيعة لدى كانت (Kant) بين إنتقاد المنطق الصرف (Critique de la Raison pure) وإنتقاد المنطق العملي (Critique de la raison pratique). وسيجيب باريتو (Pareto) ان الخلق والابداع لا يخضع لقواعد المنطق وحدها، هذا المنطق الذي لا يمكنه الابتعاد عن ظروف انطلاقه دون ان ينكر ذاته.

ما يتوجب الاشارة اليه هو ان مفهوم التوازن أساسي لفهم فكر باريتو (Pareto) الاقتصادي والاجتماعي. فقد وضعت مفاهيم الفضالة

والاشتقاق لتكوين هذه النظرية. لذا لا بد من تحليلها عن قرب. التوازن ليس تحليلياً تأليفياً،فباريتو (Pareto) يعتبر التأليف خاصاً بالعمل، باعتبار انه ينسق العوامل المختلفة التي يدخلها خلال تطوره. العلم تحليلي، ولا بد من دراسة التوازن من زاوية تحليلية، لأنه يشكل مفهوماً علمياً يهدف الى تفسير وإيضاح شكل المجتمع العام. إذا لم يكن التوازن تركيباً فهو بالمقابل نظاماً. ويتوجب علينا أن لا نأخذ بالنظام وفق معناه الفلسفي كمجموعة أفكار يضعها الفكر وفق ترتيب محدد مسبق، بل بمعناه العلمي كنظرية تقوم على عناصر، ومتغيرات، وتماثل، واطراد. ويذكر باريتو (Pareto) بالنظام الشمسي وهو يحدد مفهوم النظام الاجتماعي: «سواء كان عدد العناصر التي ندرسها كبيراً أو صغيراً فاننا نفترض أنها تشكل نظاماً نسميه النظام الاجتماعي ونقترح دراسة طبيعته وخصائصه. ويتبدل شكل هذا النظام كما تتغير سماته وميزاته مع الوقت. وحين نشير الى النظام الاجتماعي فاننا نقصد هذا النظام المعطى في وقت محدد، أو النظام الخاضع للتحولات المتعاقبة في مجال وزمن معينين.» إن ما يهم باريتو إذن ليس التوازن لذاته، بل حالة التوازن بكل تبدلاتها كما يؤكد هو نفسه «إذا رغبنا في التفكير العقلاني الدقيق. لا بد لنا من تحديد الحالة التي نرغب دراسة النظام الاجتماعي فيها، هذا النظام الاجتماعي الذي يتبدل شكله باستمرار. الوضع الحقيقي، أو المستقر لهذا النظام له ظروفه وشروطه الذي ندرسه من خلالها. إذا راعينا النظام الاجتماعي في وضعه المستقر نجد انه يتميز بتنافر العناصر التي تحدد حالة التوازن. وإذا راعيناه في

وصفه المتحرك فانه يتميز بحركة الظواهر الاجتماعية التموجية». ومن هنا تبرز وجهة النظر المزدوجة التي يتوجب علينا دراسة نظرية باريتو (Pareto) للمجتمع عبرها.

(أ) التنافر الاجتماعي:

أتاحت لباريتو (Pareto) رغبته في تنسيق عدد من المتغيرات من زاوية علم الاقتصاد الصرف، وبحوثه حول توزيع الثروات، أتاحت له فهم سمة التنافر في المجتمع. ولا يعني هذا التنافر في المجتمع أن المجتمع في نزاع مستمر، والا فقد مفهوم التوازن معناه، بل ان استقراره النسبي ناتج عن عناصر مختلفة ومتباينة، وعن بعض القوى المتلاقية، المتعادية أحياناً.

ويحكم تنافس هذه القوى ويوجه التطور الاجتماعي، ويمكنه ان يثير أحياناً الاضطرابات والثورات. لذا يتميز التوازن الاجتماعي بالعرضية، فهو أقرب الى التسوية والتوفيق، منه الى التنسيق والتجانس التأليفي. وهذا يعني ان التماثل والاطراد الذي يكتشفه عالم الاجتماع، بعيد عن انتظام العمل الاجتماعي المتشعب تبعاً للمجموعات والطبقات. لا تخضع الارادة الى الذكاء المنطقي الصرف لأن قوة الغرائز تقضي على ديناميكية المنطق. لذا لا يسع عالم الاجتماع الا وصف، ومحاولة فهم التنافر الاجتماعي دون ان يتمكن من القضاء عليه. ويرى باريتو (Pareto) ان هذا ليس دوره، دور عالم الاجتماع، فمثل هذه المهمة تتجاوز حدود العلم المنطقي التجريبي. فهو يعتبر ان المجتمع هو مسرح لعبة مستمرة من الفعل وردود الفعل تترجم وتظهر على صعيد علم

مبحث العلوم بضرورة مراعاة التبعية المتبادلة و إدراك العلاقات الاجتماعية ضمن فئة السببية المتعددة . ويستعمل باريتو (Pareto،) عبارة جميلة ليصف عجز المنطق النسبي : حيث يسيطر، يكون أي عمل مستحيل لسبب بسيط هو ان النشاط يتوقف بدوره . وهكذا نجد أنفسنا في قلب مسألية باريتو (Pareto)، العمل والمنطق وقائع لا يمكن مناظرتها وقياسها بصورة مشتركة . وهذا لا يعني انه ينال من العقلانية في سبيل تمجيد وتفخيم اللاعقلانية . إنه يدون ملاحظته، دون ان يصدر حكماً . وهو يسخر من هؤلاء الذين يعتقدون بامكانية حل القضية الاجتماعية عقلانياً ، لأنهم يجهلون هذه الحقيقة الاساسية .

وتلتقى فكرة تنافر المجتمع التي يؤكد عليها باستمرار في مبحث علم الاجتماع (Traité de sociologie) ، نجدها في موجز علم الاقتصاد السياسي (Manuel d'economie Politique) . إن المجتمع الانساني ليس متجانساً . فهو يتشكل من عناصر متباينة ليس فقط بصفاتها الواضحة كالجنس ، والسن ، والقوة الجسدية ، والصحة الخ . بل بصفاتها التي لا تبرز بمثل هذا الوضوح ، وإن كانت لا تقل أهمية كالصفات الفكرية ، والاخلاقية والنشاط، والشجاعة ، الخ . ويستمد منها فوراً استنتاجاً أساسياً بالنسبة للتحليل الاجتماعي إستنتاج سيوجه ويحكم كل مفهومه السياسي . تتطابق المطالب بالمساواة مع أهداف ذاتية ، أي أنها تشكل اشتقاقاً ، لا يمكن تنفيذه وضعياً . «الزعم بأن الناس متساوون من الناحية الموضوعية ، عبثي الى درجة

لا يستحق معها الدحض، على العكس من ذلك ان الفكرة الذاتية حول المساواة بين الناس واقع كبير الاهمية، يعمل بقوة لتحديد التغيرات التي يتعرض لها المجتمع». بكلمة اخرى ان المساواة هي تعبير عن فضالة: الحاجة الى التماثل والاطراد.

تعتبر عناصر التوازن الاجتماعي متعددة ومتغيرة، بعضها فاعل بصورة مباشرة، وبعضها تابع وبعضها الآخر عابر لأنه مرتبط بزمن ومكان محددين. «يحدد شكل المجتمع كافة العناصر التي تؤثر عليه، وهو يعود ويؤثر من جديد بدوره على هذه العناصر. يمكن بالتالي القول بوجود تأثير متبادل». فمن المؤكد مثلاً ان تطور المجتمع يحدده جزئياً أثر بقية المجتمعات عليه، كما يحدده وضع المجتمع السابق. ويكتفي باريتو (Pareto) بتدوين هذه العناصر وتسجيلها، دون ان يؤكد عليها، ويتوقف مطولاً عند أربعة تحديدات بدت له أهميتها وهي:

١ - العناصر المادية من فيزيائية وبيولوجية وجغرافية كالمناخ والأرض والجنس البشري، والحيوانات، والنباتات. ويطلق عليها تسمية الظروف الخارجية (Circonstances exterieures)، ثم ٢ - الفضالة والاشتقاق. وتأتي في الدرجة الثالثة المصالح، وأخيراً القوة والخبث.

فيما خص النموذج الاول يعترف باريتو (Pareto) بأهميته ولكنه ينكر عليه قيمة التفسير الشامل على خلاف نظريات البيئة وبقية النظريات المشابهة التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. فهي

تكتفي بالعموميات المبهمة، ولم تنجح حتى الآن في تحديد طبيعة تأثير هذه العوامل بطريقة علمية. فمسألة الجنس البشري تفتح المجال أمام أوسع التفسيرات، وأكثرها تنوعاً دون ان تتمكن من الوصول الى استنتاجات نافعة علمياً. لقد حللنا مطولاً العامل الثاني وهو الفضالة والاشتقاق، فلا حاجة لنا للعودة اليه الا للاشارة بأن باريتو (Pareto) يرى فيه العوامل الاجتماعية النوعية المثالية. وسنعمد الى تحليل القوة والخبث والحيل فيما بعد عند دراسة فكر باريتو (Pareto) السياسي. ويبقى علينا ان نحدد مفهومه لدور المصالح.

يثير هذا المفهوم الاخير الكثير من المشاكل، لأن العديد من دارسي باريتو (Pareto) وخصوصاً سوروكني (Sorokni) وج بيرين (G Perrin) يأخذون عليه إما عدم تمييزه الواضح بين الفضالة والمصلحة، أو اهماله تحديد دورها والاكتفاء بالاشارة اليهما من ضمن العناصر الاساسية في التوازن الاجتماعي. نظراً لأن مهمتنا الاساسية هي عرض فكر باريتو (Pareto) لا دحض بعض التأويلات، سنبذل جهودنا في تفسير هذا المفهوم وتوضيحه. سنطيل على القارئ إن رغبنا الاشارة الى النصوص التي تبين ذكره لمفهوم المصلحة كلما تعرض للمتغيرات في النظام الاجتماعي وتحدث عنها. صحيح ان ميدانه المختار والمفضل هو علم الاقتصاد ولكنه لا يملك الخصوصية. أوضح باريتو (Pareto) مفهوم المصلحة في مؤلفاته الاقتصادية، لذا لم يجد من داع لاعادة تفسيرها في علم اجتماعه، واكتفى بتعدادها كعامل مهم في

التوازن الاجتماعي. سنختصر القول ونوجز بأن الفضالة بالاضافة الى الشهوات والمصالح الخ.. تلعب دوراً أساسياً في تحديد التوازن الاجتماعي. أو «إن المشاعر والمصالح هي التي تحدد بصورة أساسية هذه النشاطات، التي تتفوق في بعضها المشاعر وتتقدم على المصالح».
يعترف باريتو (Pareto) بصورة عامة ان المصالح توازي بأهميتها المشاعر في تحديد التوازن، وأنهما كلاهما يولدان الاشتقاق. رغم وجود اختلاف بينهما، فاذا كانت الاحاسيس لا تفسح المجال الا نادراً أمام الاعمال المنطقية، فان الامر يختلف بالنسبة للمصالح وخصوصاً في علم الاقتصاد. لا بد ان تضيف الى الفضالة، المصالح كوسيلة حكم. فهي تستطيع أحياناً ان تمهد الدرب الوحيد لتعديل الفضالة. ولا بد من الانتباه الى ان المصالح وحدها، التي لا تثقلها المشاعر تشكل وسيلة تأثير كبيرة لدى الافراد الذين تسيطر عليهم فضالة غريزة التنسيق وبالتالي على عدد كبير من أعضاء الطبقة الحاكمة. ولكنها غير فعالة إن لم ترتبط بالمشاعر حين يتعلق الامر بالتأثير على الافراد الذين تسيطر عليهم فضالة إستمرار المجاميع (Persistance des agregets) وبالتالي على عدد كبير من أعضاء الطبقة المحكومة الخاضعة. يشكل هذا النص دليلاً على خطأ هؤلاء الذين أخذوا مثل بيرين (Perrin) مفهوم المصلحة وفق المعنى الاقتصادي وحده. فلا بد لفهم مفهوم المصلحة لدى باريتو (Pareto) من أخذه وفق معناه الواسع.

يجب عدم الخلط بين المصلحة كمفهوم علم الاقتصاد الصرف،

والمصلحة كمتغيرة في التوازن الاجتماعي. ذلك ان المصلحة بمعناها الاقتصادي تدل على البحث عن أقصى الاشباع، وهي تشكل بهذه الصفة مع الاذواق، والميول والرغبات أحد معطيات علم الاقتصاد الصرف. ويواجه باريتو (Pareto) بهذه الصفة بين المصلحة والفضالة لأن الاولى تشكل أساس التفكير والبراهين والدلالات المنطقية كالذوق وهذا ما يبرز من نص سبقت الاشارة اليه والذي يحدد فيه ان الفضالة تتوافق مع بعض الغرائز، لامعها كلها ثم يضيف. «لا يسعنا ان نجد سوى الغرائز التي تولد البراهين والدلالات ولم نلتقِ تلك التي لا تغطيها البراهين. يبقى إذن كل الشهوات البسيطة والاذواق، والاستعدادات، وفي الوقائع الاجتماعية هذه الفصيلة الهامة التي نسميها المصالح.» لم تعد المصلحة بمعناها العام إحدى المعطيات البسيطة التي تشكل مفترضاً للبرهان المنطقي، فهي قادرة كالفضالة على توليد الاعمال المنطقية المموهة أو اللامنطقية. ونشير، في هذه الحالة الى التمثيل الواعي لهدف نود بلوغه، سواء كان هذا الهدف سياسياً أو اقتصادياً أو دينياً أو غير ذلك. وهي تحلل في هذا المعنى الجديد كالفضالة والمشاعر ويقول باريتو (Pareto) «تندفع الافراد والتجمعات، بالغرائز والفكر لامتلاك الاحوال المادية النافعة، أو المسرة للحياة، والبحث عن الاحترام والفخر. يمكن إطلاق اسم المصالح على مجموعة هذه الميول». ويمكن للمصلحة ان تختلط مع فضالة الفصيلة الخامسة، ولكن من المفيد معالجتها على انفراد نظراً لدورها الاساسي في تحديد التوازن الاجتماعي. وهو يلخص فكرته على الشكل التالي:

«يتحدد شكل المجتمع ليس فقط بالظروف الخـارجية، بل بالمشاعـر، والمصالح، والبراهين، والدلالات المنطقية التجريبية الهادفة الى إشباع المشاعر والمصالح، كذلك يتحدد تبعياً بالاشتقاق الذي يعبر، ويقوي أحياناً هذه المشاعر والمصالح ويقوم بدور الدعاية». كلما عالج الاعمال اللامنطقية والتوازن الاجتماعي في مؤلفاته يعمل باريتو (Pareto) على ربط المشاعر بالمصالح ليشير الى انها تشكل مكونات وعناصر أساسية في النظام الاجتماعي، لأنها تعكس تأثير بقية العوامل كالبيئة. ونقرأ في موجز علم الاقتصاد السياسي (Manuel d'économie Politique) «إذن يمكننا التوجه الى المشاعر والمصالح لدفع الناس الى العمـل، وجعلهم يسيرون في الدرب الذي نرغب فيه. كذلك نجد في مؤلفه الهام تحول الديموقراطية (La transformation de la democratie) . حين تتغير المشاعر، والاذواق، والمصالح ستتبدل أيضاً مبـادىء تفكيرنـا. لا قبل ذلك.» هذه ليست سوى بعض الامثلة، نجد الكثير منها في هذه المؤلفـات وغيرهـا مثـل الاساطـير والعقائـد (Mythes et Ideologies) وفي مبحث علم الاجتماع (Traité de sociologie) .

لا يمكننا القول ان باريتو (Pareto) تعرض للمصلحة عرضياً. خصوصاً وانه ناقشها مطولاً تحت تسمية اخرى وهي المنفعة الاجتماعية. ويبدو ان هذه الحقيقة قد أفلتت من حكمة بعض دارسيه فلم ينتبهوا اليها فهي تشكل مفهوماً أساسياً في نظريتـه حول التـوازن والتنافـر الاجتماعي. وقد رأينا في الفقرة المخصصة لعلم الاقتصـاد ان باريتـو

(Pareto) يميز بصورة أساسية بين (Ophelimité) والمنفعة (Utilité) ولنذكر بايجاز ميزات (Ophelimite). فهي تحدد السياق الذي نبحث عبره عن أقصى الاشباع في حالة الذوق أو المصلحة المعينة. إذن لا داعي للتساؤل عن كيفية تشكل الذوق، إذا كان حصيفاً أم لا. فنحن ندرس الشخص الاقتصادي بتسلسل أفضلياته، ونحاول بناء العمل المنطقي بتقديم أفضل الوسائل لتوفير أقصى الاشباع. إذن يمكن التحقق من (Ophelimité) الاشباع بالمنهج المنطقي - التجريبي، كما أنه قابل للقياس. باختصار ان الانسان يتصرف بصورة منطقية عندما يحاول ، حين تتوفر له مصلحة معينة أن يضمن أقصى إشباع (Ophelimité) وتشكل المنفعة من جهتها مفهوماً أكثر إبهاماً، وأكثر تعقيداً. لأنها تتعلق بما يعتبره كل فرد أو كل مجموعة نافعاً ومفيداً لها. ولا يعتبر الشيء مفيداً وفق هذا المعنى، الا حين يقرر أحد الافراد أو إحدى المجموعات نفعه لهم. لكن هل هو نافع حقاً؟ ما يعتبره أحدهم كذلك، يمكن أن يعتبره آخر مضراً ولأسباب مدعومة في الحالتين. هل من المفيد الاكتفاء بالبحث عن الثروة، أم من الافضل التخلي عنها وتفضيل حياة الزهد والتقشف.ما هو الشيء الاكثر نفعاً للأمة؟ المجد العسكري؟ أم الازدهار الاقتصادي؟ أم الشهرة الفنية؟ على كل حال إن حل القضية أصعب من حل (Ophelimité) الاشباع في علم الاقتصاد.

ولا بد لنا رغم إهمالنا بعض التمييزات، واكتفائنا بالضرورية من مراعاة الانواع التالية.

(أ) منفعة الفرد:

س ١ - المنفعة المباشرة.

س ٢ - المنفعة غير المباشرة التي يحصل عليها الفرد بوصفه جزءاً من المجموعة.

س ٣ - منفعة الشخص بالنسبة لمصالح بقية الافراد.

(ب) منفعة إحدى المجموعات المعينة:

(ب ١) منفعة المجموعة المباشرة التي تراعى بصورة منفصلة عن بقية المجموعات.

(ب ٢) المنفعة غير المباشرة التي تحصل بتأثير بقية المجموعات.

(ب ٣) منفعة مجموعة بالنسبة لمنافع بقية المجموعات.

«وهذه الانـواع المتباينـة من المنفعـة لا تتوافـق بل تعانـي من التعارض الظاهر». لا يبدو ما يعتبره الفرد نافعاً من الناحية الـذاتية كذلك في رأي المراقب المتجرد الذي يحاول الحكم بموضوعية بعيداً عن الاهواء والافكار المسبقة.

كذلك هنا خلاف بين أقصى المنفعة بالنسبة للمجموعة، وأقصى منفعة المجموعة. فنحن نتعرض لقضية مدخل في إحـدى الحـالات، ولقضية اختيار في الثانية. ذلك انه يمكن في مجتمع معين، نظـراً الى إحدى المصالح كالمصلحة العامة مثلاً، يمكن ان نحدد بالدلالة المنطقية - التجريبية، حداً لا يقبل التجاوز،حداً تتوقف عنده المصلحة العامة

حتى لا تتحول الى الاضرار بغالبية الاعضاء. لنفترض ان السلطة «تعمل بصورة منطقية ومن أجل بلوغ مصلحة معينة فقط. صحيح ان هذا لا يجري الا نادراً ولكنه ليس من الضروري ان نهتم هنا بهذا الواقع، لأننا ندرس حالة نظرية، افتراضية لا الحالة المادية والملموسة. في هذه الحالة لا بد للسلطة العامة من المقارنة بين مختلف المصالح، وليس من الضروري البحث الآن في المعايير التي تستند اليها.»

المصلحة القصوى بالنسبة للمجموعة تقتضي إيجاد التوازن الذي يضمن أقصى منفعة للمجموعة دون النيل من مصلحة الافراد الذين يشكلون هذه المجموعة أو إنقاصها. أما أقصى منفعة المجموعة، فانها ترتبط باختيار الحكومة بين عدة أهداف قائمة: القوة العسكرية، الازدهار الاقتصادي، العدالة الاجتماعية أو كلها مجتمعة. فبينما كان من الممكن في الحالة السابقة، إدخال بعض الانسجام، فاننا في هذه الحالة أمام موجب الاختيار بين هذه العناصر المتنافرة التي نعجز عن تحديدها بالدلالة المنطقية التجريبية لأنها لا تتناول سوى بعض القيم. فكل شيء يرتبط بالمبدأ الذي يتم الاختيار باسمه، اختيار هذا الهدف المعين دون غيره. يشكل تعدد الاهداف الممكنة، والمتناقضة أحياناً، دليلاً على تنافر الحياة الاجتماعية الكبير. كذلك نجد في صلب المجموعة الواحدة، أن التجمعات المختلفة ترمي الى أهداف مختلفة، ومتباينة أحياناً، فاحداها تبحث عن نشر السلم والثانية عن الثورة، والثالثة عن هدف وطني الخ... فما هو مفيد لأحداها ليس بالضرورة كذلك بالنسبة للآخرين.

تدل هذه الاعتبارات ان مفهوم المنفعة مبهم، لا يمكن تحديده بصورة عامة، لأنه يرتبط بالهدف الواجب تحديده. فليس هنالك من منفعة تسري على كل الافراد، وكل المجموعات. وهنا تقف النقطة الفصل بين المفهوم الاقتصادي الصرف والمفهوم الاجتماعي. ففي علم الاقتصاد الصرف يمكن لنا، إذا كنا نملك مصلحة محددة، ان نحدد المسلك المنطقي الذي يوفر أقصى إشباع أي (Ophelimité). أما في علم الاجتماع فاننا لا نستند الى مصلحة معينة، بل نراعي عدداً من المصالح المتباينة. «اختار علم الاقتصاد مبدأ واحداً، هو إشباع الفرد، وأكد أنه الحكم الوحيد على هذا الاشباع. هكذا حددت المنفعة الاقتصادية أو الاشباع (Ophelimité). ولكننا إذا طرحنا قضية البحث عما هو أنفع للفرد بغض النظر عن رأيه، فسرعان ما تبرز ضرورة إيجاد مبدأ، مبدأ يكون كيفياً حكمياً.» وهنالك أيضاً صعوبة إضافية فالمجتمع ليس مجموعة افراد، لذا لا يكفي لمعرفة منفعة المجموعة، جمع منفعة الافراد الاقتصادية (Ophelimeté)، لأن درجات أفضلياتهم مختلفة متباينة، وهي غالباً ما تتميز بالتنافر والتضاد. «لو ان منفعة الافراد كانت كميات منسجمة، وكان يمكن بالتالي مقارنتها وجمعها، لما كانت دراستنا صعبة على الاقل من الناحية النظرية. فنحن كنا لنجمع مصالح مختلف الافراد فنحصل على منفعة المجموعة التي يشكلونها.. لا معنى للتعرض لجمع هذه الكميات، فهي غير موجودة، ولا يمكن تخيلها.» ويدل تعارض المنافع على التعارض بين المصالح. وأضف الى صعوبة التوفيق بين المصالح، كثرة الاشتقاق فيها

المشاعر تماماً ومن هنا نشأ هذا التقارب الذي يثيره باريتو (Pareto) بين هذين المفهومين. «من هنا يتوجب علينا الاستنتاج ليس فقط باستحالة حل القضايا التي تطرح في نفس الوقت مصالح متنافرة متباينة، بل بوجوب القبول عند معالجة هذه المصالح المتباينة، القبول بافتراض يجعلها ممكنة المقارنة. وحين نفتقر الى هذا الافتراض، وهذا ما يحدث دائماً تصبح معالجة هذه القضايا عبثية. إنها إشتقاق يغلف بعض المشاعر التي يتوجب علينا دراستها دون الاهتمام بقشرتها».

يكفي تحليل المصلحة لابراز تنافر المجتمع، لأن المنافع متباينة نظراً لاختلاف الاهداف التي يتطلع اليها الانسان، باعتبار انه يمكنه ان يرغب في تحقيق قيم متباينة ومتضادة. ومن هنا تكثر الاستنتاجات. أولاً على صعيد علم المبحث، لا يسعنا ان نطبق الرياضيات كما في علم الاقتصاد الصرف لتحديد التوازن الاجتماعي، لأن الكميات الفاعلة لا تتميز بالانسجام.

ثم على صعيد التحليل، إذا كان صحيحاً ان المصلحة تنشأ عنها أعمال منطقية في ظل بعض الظروف كما في علم الاقتصاد الصرف،إن هذه المصلحة التي تغرق كالعواطف في الاشتقاق فانها تتحول في المجتمع الى مصدر للأعمال اللامنطقية. بكلمة اخرى إن المصلحة تشكل كمية قابلة للتحديد في سياق المنفعة الاقتصادية (Ophelimité) ، لا في سياق المنفعة الاجتماعية. وإذا أخذنا في حسابنا بقية المتغيرات كالمشاعر والظروف الخارجية كالقوة، بأن التنافر الاجتماعي يقوى ويشتد، لا يوجد بسبب هذا التنافر سوى طريقة

واحدة لتفسير المجتمع عقلانياً. فهو يفسر بالتوازن بين العناصر التي تؤثر باستمرار على بعضها البعض. ولا يجد باريتو (Pareto) أية صعوبة في إدخال تقسيم المجتمع الى طبقات، وصراع الطبقات في نظامه بعد ان فرض توفر شرطين. فمن جهة يكون هذا التقسيم متلاحماً مع المجتمع. ومن جهة ثانية «لا تتميز أية طبقة إجتماعية بالانسجام، فهي تضم الكثير من التنافس في صلبها» وبالتالي فان تفسير العقلاني للمجتمع لا يعني أنه هو عقلاني أيضاً.

رغم ان باريتو (Pareto) يرفض القول بأنه يقيم الامور الا انه مامن شك ان نظرية التوازن الاجتماعي التي تقوم على أساس التنافر الاجتماعي، توضح بعض مواقفه التي تتجاوز إطار التحليل العلمي. وهو يرى انه لا يمكن التغلب على مسألة التنافر الاجتماعي، لذا فان كل نظرية تدعي إيجاد حل متناغم بانقاص بعض العناصر تتسم بالعبثية. فذلك غير ممكن الا اذا كانت كل المسالك منطقية. ومن نشأ عداؤه للاشتراكية التي تقوم على أمل مشابه لا بد من تحديد الهدف الذي يتوجب على المجتمع بلوغه عبر الدلالة المنطقية التجريبية. لا وجود لمجتمع يحدده «المنطق» وحده، كذلك لا يمكن لمثل هذا المجتمع القيام. وهذا ليس لأن آراء الناس المسبقة تمنعهم من اتباع تعاليم المنطق، بل لأن معطيات المسألة التي نرغب في حلها بواسطة البرهان المنطقي التجريبي غير متوفرة.

* * *

(ب) حركة الاحداث الاجتماعية التموجية:

إذا عجزنا عن تحديد أي مجتمع بالمنطق كلياً، فيمكننا القبول بوجود تقدم بطيء نحو تعدد الاعمال المنطقية، باعتبار ان أنواع الفضالة تتغير هي أيضاً ببطء. «إن الرأي الذي يصف جزءاً كبيراً من النشاط الانساني بالمنطقي ليس مخطئاً، فهو يتوافق مع الوقائع. الا ان هذا الاقتراح غير محدد ككل تلك الاقتراحات التي يضعها الادب مع مكان النظريات العلمية ويحلها مكانها. ويرى باريتو (Pareto) أن تقدم المنطق لا يتم بصورة مستمرة، تخطيطية بل بصورة موزونة، دورية، مما يدفعه الى التحفظ الفوري إثر الملاحظات السابقة. فنحن نشهد من جهة تطوراً في بعض قطاعات النشاط الانساني، في بعضها وليس فيها كلها. فهذا النشاط بارز في العلوم والفنون، والاقتصاد لا في السياسة، ويتوجب علينا من جهة اخرى عدم الخلط بين السياق الاحصائي ومجرى الاحداث العادي. هناك مراحل تطور، وركود وتقهقر أو توسع وانهيار. يبدو ان ديناميكية الحركات الاجتماعية تخضع لقوانين التغير والاهتزاز. وهذا ما تؤكده بنظر باريتو (Pareto) الاحداث والوقائع التاريخية فقد عرفت أثينا وسبارطة وروما إذا اكتفينا بأمثلة العهود القديمة عرفت مرحلة من التطور، والثراء والقوة، تبعتها أزمة وانهيار. صحيح ان هذه التغيرات تتفاوت في مدتها، ولكنها حقيقة غير قابلة للنقاش. فنحن نستطيع ان نشهدها في كافة المجتمعات وفي غالبية الاحداث الاجتماعية.

أعلن باريتو (Pareto) نظريته لأول مرة فيما خص الازمات الاقتصادية. «لا تشكل مظاهر النشاط الانساني. تقدماً مستمراً، فهي تشبه عادة شكل المنحنى المتموج». وسرعان ما بسط هذه الحركة الدورية على بقية الظواهر الاجتماعية. وهكذا كتب في الموجز (Manuel) «تشكل الازمة حالة خاصة من قانون الاتزان والايقاع العام، هذا القانون الذي يهيمن على كافة الظواهر الاجتماعية». ويعلن باريتو عن قناعته في الانظمة الاشتراكية (Systèmes Socialistes) «تبدو الحركة الاخلاقية والدينية كالحركة الاقتصادية إيقاعية، وهذا لأسباب معروفة جزئياً ومجهولة جزئياً، أسباب يتعلق بعضها بطبيعة الانسان النفسانية، يولد إيقاع الحركة الاقتصادية الازمات الاقتصادية، التي تدرس في عهدنا الحالي بعناية كبيرة. بينما يمر إيقاع الحركة الاخلاقية والدينية دون ان يخلف وراءه أي أثر. وإن كان يكفي العودة الى التاريخ لاستشفافه بوضوح». لقد راعينا الاستدلال بهذا النص. لأنه أفضل تفسير حول هذه المسألة. ذلك أن باريتو (Pareto) إذا أسهب في التفاصيل في مبحث علم الاجتماع، فان فكره لا يتميز فيه بهذه الصلابة وهذا الايجاز، ومن الممل تعداد كل الامثلة التي درسها من أجل وضع هذه النظرية كشؤون الاصلاح والملكية الخاصة.

تحمل الدورية (PERIODICITE) ثلاثة معاني على الاقل لدى باريتو (Pareto) : فإما أن تشهد الظاهرة الاجتماعية مرحلة من النمو واخرى من الانحدار. ومثل على ذلك انتشار سلطة أثينا ثم إنهيارها، أو

تشهد تعاقب مرحلتين متوازيتين في نفس الزمن، مثلاً على ذلك مرحلة الايمان التي تليها وتعقبها مرحلة من الشك تليها مرحلة من الايمـان وهكذا. خصوصاً وان الامر لا يتعلق دائماً بنفس الايمـان، فاذا كان النوع الاول هو الايمان الديني، فان النوع الثانـي يمكن ان يكون إشتراكياً(العقيدة الاشتراكية)، أو اننا نشهد انبثاق نفس النموذج من الظواهر في ظل مظاهر مختلفة خلال المسيرة التاريخية مثلاً تجددالنخبة التي تأخذ كل مرة من طبقات اجتماعية مختلفـة. صحيح ان المعرفـة البسيطة الساذجة أدت الى بناء مفهوم دورية الاحداث بالقياس مع اتزان الاحداث الطبيعية (تعاقب الخصب والجفـاف، أطـوار القمـر) وهكذا ساهم المفهوم التموجي بولادة البراهين والادلة القطعية وأدى الى التعميات السريعة. ويعتقد باريتو (Pareto) بقدرته على بناء نظريته على الوقائع، مستنداً الى إيضاح الامور بنظرية الفضالة والاشتقـاق وخصوصاً تعاقب واطراد فضالة الفصيلتـين الاولى والثـانية (غـريزة التنسيق، أو فضالة التجديد والابتكار واستمرار التكونات أو فضالة البقـاء). لذا تخضـع الفضالـة كالاشتقـاق الى قانـون التغـيرات، والاهتزازات كالظواهر الاجتماعية تمامـاً، وقـد توصـل باريتـو بفضـل إفتراضـه المتعلق بالتطابق والتماثل النسبي للطبيعة الانسانية عبر الزمن، الى الاستنتاج من جهة بأن الحركة الايقاعية دائمة، ومن جهة اخرى ان هذه الحركة تحقق تغيرات شكلية لا أساسية. وقد عبر في تحـول الديموقراطية (Transformation de la democratie) بوضوح عن هذه العلاقة التضمينية لهذا الثبات والاستمرار الاساسي: إذا بقينا في

هذا الميدان التجريبي ، إذا درسنا الأحداث كوقائع ، وتركنا جانبا الايمان نكتشف بسرعة ان العهود ليست متجددة سوى باشكالها . فهناك إجمالاً نقاط توافق والتقاء في رؤوس المنحنى المستمر للحركة . وإذا صعدنا عبر تيار التاريخ نجد المسيحية قبل المسيح ، والمحمدية قبل محمد . والديمقراطية قبل الثورة الفرنسية ، والبولشفية قبل ثورة لنين .

تتراوح الاهتزازات وفق البعد ، والمدة والكثافة ، ويميز باريتو (Pareto) بين الاهتزازات الرئيسية والثانوية والعارضة ، التي نخلطها غالباً مع التكرار البسيط ، والاهتزازات الطويلة ، والقصيرة المتوسطة الاجل . ولا يعطي هذا التصنيف المفيد أي عنصر من أجل معرفة أفضل للظاهرة التموجية . لذا نجد أكثر أهمية هذه الملاحظات حول إمكانية الخلط بينهما وبين مفهوم السببية . ترتبط اهتزازات مختلف أجزاء الظاهرة الاجتماعية بعلاقة تبعية متبادلة ، تتساوى مع هذه الاجزاء نفسها . إنها تعبير عن مظاهر تغيرات هذه الاجزاء . وإذا أصرينا على استعمال لفظة سبب ، يمكننا القول ان مرحلة الانحدار هي سبب مرحلة النمو والصعود التي تعقبها والعكس بالعكس . ويجب ان نأخذ بهذا مع علمنا ان مرحلة النمو مرتبطة بمرحلة الانحدار التي تسبقها والعكس بالعكس . إذن يمكن القول بصورة عامة ان المراحل المختلفة تشكل ظواهر مختلفة لحالة واحدة ، ظواهر تظهر متتالية أمام الملاحظة . بكلمة اخرى لا تعتبر الاهتزازات المختلفة مستقلة عن بعضها البعض ، بل هي تحدد بعضها البعض ، وتشكل دورات مرتبطة ببعضها . إذن يجب

التحفظ في السببية. ففي عهد هدريين(Hadrien) ومارك أوريل (Marc – Aurele) بلغ منحنى هيمنة المثقفين والعقلانية أوجه ، ولكنه انحدر في الاتجاه المعاكس في ظل الامبراطور كومود (Commode) ونخطئ إذا رددنا سبب هذا التبدل في الايقاع الى « مساوئ» كومود (Commode) ، ذلك أن المنحنى المنحدر الذي برز في عصره هو تأثير طبيعي يبرره « نضج حصاد الايمان في أعماق الاسس الاجتماعية ، هذا الايمان الذي ظهر فيما بعد في الفلسفة الوثنية وفي عبادة ميترا (Mithra) وما يشبهها ، وبرز أخيراً في المسيحية . » ولا بد لنفس الاسباب ، من الحذر حين نشهد انهيار شكل ديني ، من الحذر من الاستنتاج ان المشاعر الدينية نفسها تنهار، فهي بفقدها الكثافة في ظل شكل معين يمكن ان تبرز في ظل أشكال جديدة . ومن جهة اخرى حين تبلغ إحدى الظواهر قمتها فهذا يعني ان الاهتزاز في الاتجاه المقابل بات قريباً . ومن هنا ينشأ الخطأ في تفسير الظواهر الاجتماعية وفق مسببات تخطيطية صرفة . « يمكن ان تكون المؤسسة أو الواقعة الاجتماعية التي نشهدها في عصر معين ، يمكن ان تكون ، وليس بالضرورة ، تحولات مباشرة لمؤسسة اخرى أو واقع آخر. إن التطور لا يتم بصورة عامة وفق خط مباشر، كما يتوجب علينا عدم الخلط بين شيوع بعض العناصر والأصل » .

* * *

(ج)- الفرد والمجتمع:

تتيح ظواهر التوازن، والاهتزاز فهم العلاقات بين الفرد والمجتمع بصورة أفضل. ويعتبر باريتو (Pareto) مجتمع دوركهايم (Durkheim) وحدة مجردة، ولا وجود لها فمثل هذا المفهوم لا يفيد العلم المنطقي التجريبي. فالمجتمع ليس في الواقع سوى مجموعة أفراد. وقد أكد هذا الموقف منذ دروس علم الاقتصاد السياسي (Cours d'économie Politique) يبدو لنا المجتمع الانساني كمجموعة واسعة من الخلايا التي تقدم الخدمات، وتستهلك المنتجات وتوفر، تبدو لنا مراكز يتحول فيها التوفير الى رساميل . وقد شدد على هذا الموقف في مبحث علم الاجتماع (Traité de sociologie) حيث يعلن بعد تحديد النظام الاقتصادي: إن النظام الاجتماعي أكثر تعقيداً. وإذا رغبنا في تبسيطه دون ارتكاب أخطاء كبيرة، لا بد لنا من إعتباره مؤلفاً من عدة خلايا، يحتوي على بعض الاشتقاق، وبعض المصالح، وبعض الميول. وتقوم هذه الخلايا المعقدة العلاقات بأعمال منطقية وأعمال لا منطقية. المجتمع مجموعة لذا لا يمكن تفسيره سوى وفق مفهوم التوازن. لكن هل يعني انه مجموعة افراد؟ لقد حدد باريتو (Pareto) موقفه من هذه النقطة عدة مرات.

يصف باريتو (Pareto) ضمن الفضالة، غريزة الاجتماعية، الامر الذي يعني ان المجتمع يشكل إحدى متطلبات الطبيعة الانسانية. ويحدد موجز علم الاقتصاد السياسي (Manuel d'économie

; Politique موقفه بصورة دقيقة. فاذا كان صحيحاً أن المشاعر الدينية والاخلاقية تساهم في الحفاظ على المجتمع فانها تفترض وجود شعور أقدم بالرفق والعطف والمعاملة بالحسنى. «فالمجتمع الذي يكره فيه كل فرد أخيه يعجز عن البقاء والاستمرار وينتهي بالزوال. لا بد إذن من توفر حد أدنى من الرفق والمودة المتبادلة الضرورية ليتمكن أعضاء هذا المجتمع من تبادل التعاون، ومقاومة عنف المجتمعات الاخرى. ويمكن ان تتراوح مشاعر العطف فوق هذا الحد الادنى بين الزيادة والنقصان». ويشكل المجتمع رغم مشاعر الرفق مسرحاً لقوى متناقضة، قوى يميل بعضها الى الاتحاد والتماثل ويميل بعضها الآخر الى الانقسام والتباين، أو وفق العبارات الواردة في تحول الديموقراطية (Transformation de la démocratie)، يندفع بعضها نحو المركز فيما يبتعد بعضها الآخر عنه. ويميل أحد هذين النموذجين من القوى وفق الظروف الى التفوق والرجحان، فينتج عن هذا تنافر المجتمعات وهذه الحركة التموجية: ويرتبط الامر بالتنافس بين الفصيلتين الاوليين من الفضالة. «من الواضح، انه لو كانت الحاجة الى التماثل قوية لدى كل فرد لمنع أي واحد من الابتعاد عن التماثل القائم في المجتمع الذي يعيش فيه، لما كان للمجتمع أي مسبب داخلي للانحلال. ولكنه كان لا يملك في نفس الوقت مسبباً للتغيير سواء نحو زيادة أو في نقصان منفعة الفرد أو المجتمع، وبالعكس إذا غابت الحاجة الى التماثل، لما كان المجتمع ليبقى، ولاضطر كل فرد الى الذهاب في سبيله كما تفعل السنوريات والكواسر وغيرها من الحيوانات-نظرية التوازن وحدها علمية لأنها

تتوافق مع ملاحظة الاحداث والوقائع. لذا لم يحكم باريتو (Pareto) لأي من تيولوجية الجمود الاجتماعي أو التغير الاجتماعي.

يرفض باريتو (Pareto) أن يرى، بسبب تعدد الاعمال الانسانية المتنافسة والمتعارضة، التي تشكل خامة العلاقات الانسانية، يرفض ان يرى في المجتمع كياناً ماورائياً يفوق الافراد ويعلو عليهم. ولا يمكننا إقامة تعارض منهجي بين الفرد والمجتمع، كذلك من غير المفيد إجراء البحوث حول الاصول الفردية والاجتماعية لبعض التطلعات. «من العبث البحث عما إذا كان للمشاعر الاخلاقية أصول فردية أو اجتماعية. فالانسان الذي لا يعيش في المجتمع هو إنسان غريب، نجهله تماماً، كذلك المجتمع المتميز عن الافراد هو فكرة مجردة لا تتوافق قط مع الواقع. إن كافة المشاعر التي نلاحظها لدى الفرد الذي يعيش في ظل المجتمع هي مشاعر فردية من زاوية معينة واجتماعية من زاوية اخرى. والماورائية الاجتماعية التي تشكل ركيزة لمثل هذه البحوث هي ماورائية اجتماعية فقط ترمي الى الدفاع عن بعض العقائد الاولية.» كانت مسألة العلاقات بين الفرد والمجتمع موضوع رسالة باريتو (Pareto) الى الكونغرس الدولي للفلسفة في جنيف ١٩٠٤. ويمكن تلخيص دراسته كالتالي: إن مفاهيم المجتمع والفرد، هي مفاهيم مبهمة وملتبسة وفق الزاوية التي نراعيها منها. يبدو لنا مفهوم الفرد وأولاً أكثر تحديداً، لأنه كائن حي، قابل للتحديد والمراقبة، ويبدو لنا مفهوم المجتمع مبهماً مجرداً. وإذا نظرنا الى الامور من زاوية اخرى مختلفة، يبدو

لنا الفرد وهماً ، ويتعدد تصور المجتمع ، ذلك أن لا وجود لفرد لا يعيش في المجتمع وبالتالي فلا وجود للفرد كفرد صرف. إذن نقف أمام أمر متناقض : فمن جهة نجد ملاحظة عادية ، متكررة أي ان المجتمع ليس تجمعاً من الافراد ، وأن هؤلاء الافراد يكتسبون لعيشهم في المجتمع سمات وميزات جديدة . ومن جهة اخرى لا نملك الفرد الصرف المجرد . وهذا التناقض غير قابل للحل « فاذا كان بوسعنا مراقبة أناس منعزلة ، وأخرى تعيش في المجتمع لتمكنا من معرفة مدى اختلافهما ، ولتكمنا من فصل الفردية عن الاجتماعية ، ولكننا نفتقر الى العنصر الاول في هذه المقارنة ولا نعرف سوى الثاني » . للتخلص من هذه الصعوبة يعمد الاختصاصيون في العلوم الاجتماعية الى ابتكار حلول وهمية وفق مشاعرهم ، مثل نظرية العقد الاجتماعي ، ونظرية التعاضد ، ونظرية الوحدة المعنوية والدينية والثقافية بين الرجال ، ونظرية الاغلبية التي تحكم على الاقلية باسم مصلحة العدد الاكبر ، أو نظرية الحقوق الطبيعية للأفراد ، هذه الحقوق التي يتوجب على المجتمع حمايتها . ولا تشكل هذه النظريات سوى اشتقاق من المنطق المموه اللاعلمي . فكل ما يمكننا ملاحظته هو « أن الافراد الذي يكونون المجتمع يملكون بعض المصالح المشتركة وبعض المصالح المتناقضة » . المجتمع ليس سوى التوازن الحر بين هذه القوى المؤثرة على الفرد والمجتمع . هذا هو الحل الذي تبناه باريتو (Pareto) في الانظمة الاشتراكية (socialistes Systèmes) .

لاحـظ هيربـير سبنسر (Herbert spencer) محقـاً ان ميزات المجاميع تنتج عن السمات المتمثلة في أجزائها. ولا يرتـكز نقـد هذا الافتراض على أسس قوية فهو يدعي ان ميزات المجاميع لا يشكل جمعاً لسمات الاجزاء، ولا يتم بتجميعها. وهذا صحيح تماماً ذلك ان حاصلة عدة أشياء ليست بالضرورة تجميعاً لها. فاذا تعرض جسم لقوتين متمثلتين كمية واتجاها بخطين مستقيمين يلتقيان في نقطة، فانه يتحرك وكأنه دفع بقوة متمثلة بالخط القطري لمتوازي الاضلاع المبنـي على الخطين الاولين. هل يمكن الاعتراض بأن هذه القوة ليس محصلة القوتين الأولين لأنها لا تساوي مجموعها؟ لا أحد ينكر بأن الرجال الذين يشكلون مجموعة لا يفـكرون ولا يتصرفـون كما يتصرفون لو كانـوا منعزلين، ولكن هذا لا يمنع ان صفات الجماعة تنتج عن سمات أجزائها إن النظام الاقتصادي والحكومي لشعب ما هو في الحقيقة محصلة سمات هذا الشعب. ولكن هذه الطريقة في التعبير ليست صحيحة تماماً، لأن هذا النظام يتدخل بدوره لتعديل هذه الصفات وتغييرها. ويوجد هنا سلسلة من الاعمال والتأثيرات، أي أننا نملك هنا نظاماً من التوازن بين عدة قوى أكثر مما نملك ظاهرة تقتصر على مسبب وآثار هذا المسبب.

إن نظرية الفضالة، والتوازن الاجتماعي، ومفهوم العلاقـات بـين الفرد والمجموعة تشير بوضوح الى ان باريتو لم يكن يرغب بوضع علم الاناسة. صحيح ان مفهومه حول الطبيعة الانسانية يتضمن توجها في علم الاناسة، الا ان التحليل الاجتماعي يدحضها، لأنهـا تجعـل من الفضالة إفتراض بحث وتتجنب خلطها مع المشاعر أو الغريزة.

الفصل الرابع

العالم السياسي

عرف باريتو (Pareto) أولاً كعالم إقتصاد، وسرعان ما تغلب فيه عالم الاجتماع. وقد حول إنتباهه في نهاية حياته الى تحليل الظاهـرة السياسية، وخصوصاً إدراك مفهـوم الديموقـراطية وأسباب انحـلال البورجوازية، والجدير بالذكر أن باريتو (Pareto) قد اهتم بالسياسة منذ مطلع شبابه، وراودته فكرة الدخول الى حلبتها. كذلك يتضمن الفصلان الاخـيران من مبحـث علـم الاجتماع (Traite de soc- iologie)دراسات طويلة عن المجتمع السياسي. وقد عمد بعد مغادرة جامعة لوزان (Lausane)، وخلال تقاعده الى التخفيف من بحوثه الاجتماعية، وفضل التحليل السياسي، كما يدل آخر مؤلفاته الهامة تحول الديمقراطية، (La transformation de la democratie)، الذي ظهر عام ١٩٢١. ويمكننا القول انه بدأ وظيفته السياسية في نهاية حياته، فقد طلب منه تمثيل حكومة موسوليني (Mussolini) في عصبة الامم، وأصبح عشية وفاته عضواً في مجلس شيوخ المملكة الايطالية.

حاول دراسة السياسة باتباع درب عالم الاقتصاد، وعالم الاجتماع أي أنه التزم بالوقائع دون البحث عن وضع نظرية إصلاحية منقذة. وقد تبنى الموقف الميكيافيلي القاضي بالفصل بين علم الاخلاق والسياسة. ويتوافق هذا الموقف بالنتيجة مع الموقف الذي إعتمده دائماً: وهو عدم الخلط بين صحة التحليل، والمنفعة الاجتماعية للنظرية: «إذا بدت لي إمكانية الاستنتاج من الوقائع بأن بورجوازيتنا تسير نحو نهايتها، فانني لا أقيم «منفعة» أو «مضرة» مثل هذا الحدث، كما لا أستطيع الحكم على

الواقعة المشابهة التي تمت عند سقوط الأسياد الاقطاعيين، والتي هيأت لها الحروب الصليبية. كذلك لا يسعني نصح البورجوازية تغيير خطها، ولا الوعظ لاصلاح العادات، والاذواق، والافكار المسبقة، ولا الادعاء بأنني أملك وصفة طبية لمعالجة المرض الذي تعاني منه البورجوازية، والذي يعاني منه المجتمع أيضاً، على العكس من ذلك إنني أعلن جهلي لمثل هذا البلسم، إذا افترضنا وجوده، الامر الذي لا أعتقده. فأنا مثل الطبيب الذي يتعرف على مرض السل لدى مريضه دون ان يعرف كيف يداويه». إذن لا يمكن للعالم السياسي الا أن يفكر بإمكانية تقديم الاحكام القيمة.

ويكتفي بالاعتراف، بالامر القائم دون التقدم بأي إقتراح حول ما يجب ان يكون. ذلك أننا إذا لم نكن نملك معرفة وطيدة بالمطلق، لا يمكننا الحكم الاكيد على صحة أو سوء أي حدث تاريخي. هل تعتبر محرمات الحكام الثلاثة في روما، والارهاب في عهد الثورة الفرنسية الاول، وإرهاب البولشفية أمراً «خيراً» «أم سيئاً؟» تملك المشاعر والايمان والدلالات، التي تنشأ عن المفاهيم الاولية من ورائية أو غيرها، تملك حق حل هذه المسألة، تملك هذا الحق دون العلم المنطقي-التجريبي الصرف.

هل هنالك حكومة أفضل؟ يعتبر عالم الاجتماع مثل هذا السؤال عبثياً ليس فقط بسبب إبهام اللفظة المستعملة الافضل، بل لأننا

نفترض أمراً مستحيلاً، هذا الامر المسمى الافضل، الذي يتسمر فيه تيار الافكار . وسيتجنب لنفس هذه الاسباب، الحكم على أحد الاجراءات وآثاره، أهو عادل حميد، جيد، ضروري من الناحية الاخلاقية، أو مفيد. «كانت سبارطة (Sparte) ترفض منح المواطنية للغرباء وروما (Rome) كانت تهبها بصورة غير مباشرة، بقبولها العبيد المعتقين في عداد مواطنيها. ما هو الحكم على مثل هذه الاجراءات.

١ - من زاوية ما يسمى المساواة بين الناس، وحقوقهم الخالدة، والانسانية؟

٢ - من زاوية الآثار الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية؟

هذان سؤالان متباينان، لا علاقة مشتركة بينهما».

بالطبع لم يمتنع باريتو(Pareto) في مجالسه الخاصة والعلنية أحياناً عن إبداء رأيه في الاحداث التي يشهدها. ونرد من يود تذوق روحها التهكمية الى مذكراته (Mon journal) .

١ - النخبة والطبقات الاجتماعية:

لا نجد لدى باريتو (Pareto) نظرية الدولة - بل نجد نظرية المجتمع العام - لا بد من الانطلاق من الملاحظة العادية، حول انقسام كل مجتمع الى طبقتين: «طبقة عليا ينتمي اليها عادة الحكام، وطبقة دنيا ينتمي اليها المحكومون.» ولا يقبل هذا الواقع العام أي نقاش رغم

الاشتقاق، والانحراف الذي يحاول إخفاءه بمختلف النظريات، التي تتناول ما يجب ان يكون ولا يمكن ان نعالج علم السياسة بصورة منطقية، إن نحن أهملنا الظاهرة الاساسية من التنافر الاجتماعي: «يبدو لنا المجتمع ككتلة متنافرة، منظمة من الناحية التسلسلية. هذا التسلسل ما زال قائماً حتى اليوم، باستثناء المتوحشين الذين يعيشون متفرقين كالحيوانات». على كل حال لا يمكن للمجتمعات الانسانية البقاء دون هذا التسلسل. «تقل الطبقة العليا عدداً عن الطبقة الدنيا. وهي تشكل أقلية حتى في الانظمة الديموقراطية، ويمكن الاشارة الى هذه الاقلية وتسميتها بتعابير مختلفة: اوليغارشية أرستقراطية، الا ان باريتو (Pareto) يفضل استعمال عبارة النخبة. ويتميز التنافر الاجتماعي من هذه الزاوية بالتعارض بين النخبة والجماهير، هذا التعارض الذي يجدد التوازن الاجتماعي. وهو لا يهتم بالجماهير الا عرضاً، ذلك ان تحليلاته تتناول تشكيل النخبة وحركتها.

تتعدد أنواع النخبة، بتعدد النشاطات الانسانية. ويعود باريتو (Pareto) الى قانون توزيع الثروات ويعممه، ليعلن «إذا افترضنا الناس مقسمين الى طبقات بالنسبة الى سمات اخرى مثلاً الذكاء، القدرة على دراسة الرياضيات، الموهبة الموسيقية، الشعرية، الادبية أو السمات الاخلاقية الخ.. فاننا نجد بلا شك منحنيات متراوحة الشبه بذلك الذي حصلنا عليه بالنسبة لتوزيع الثروات.. فهذا المنحنى ينتج عن عدد كبير من الصفات، سواء كانت جيدة أو سيئة، والتي يوافق

جموعها ويؤيد الفرد الباحث عن الثروة والذي يحفظها بعد الحصول عليها. ولا يحتل نفس الافراد نفس المراتب في المنحنيات التي افترضنا تصويرها». هناك نخبة فنية، وعلمية، ودينية، وماجنة، كما هناك نخبة سياسية، وإقتصادية. ويشكل كروب (Krupp) جزءا من الارستوقراطية الاقتصادية، كما يشكل البطل في لعبة الشطرنج أو البطل الرياضي جزءا من نخبة اللاعبين، كما تعتبر عشيقة العاهل من النخبة الماجنة. ومن المهم ان لا نصنف النخبة في فئات خيرة أو مضرة. «فاختيار النخبة يتأثر بالاشكال الاجتماعية، وهي لا تتسم بالاطلاق، فهناك نخبة من اللصوص، كما هناك نخبة من القديسين.» كذلك هناك نخبة بين العمال الذين تثقفهم النقابات.

نتعرف الى المجتمع عبر نخبته، ولا يؤثر على سماته، وتطوره شيء مثل نموذج النخبة الذي يولده هذا المجتمع ويكشف علم الاجتماع عن واقع ثان: وهو عجز أية نخبة عن الاستمرار والخلود، فهي تخضع لقانون الاهتزاز والتغير. ويمكن تفسير هذا الواقع بظاهرة الانتقاء، هذا الانتقاء الذي يتسم بالحتمية، طالما تميزت المجتمعات بالتسلسل. وهكذا يهاجم باريتو (Pareto) الانسانيين بعنف، لأنهم يحاولون إخفاء عملية الانتقاء، شرط الحياة في المجتمعات. ويتم هذا الانتقاء وفق معايير متعددة، ومختلفة باختلاف النشاطات: النجاح العسكري، المناورة السياسية، البراعة المهنية، مواهب خاصة. إن الانتقاء هو عامل أساسي في التوازن الاجتماعي، لأنه يضمن الاستقرار في الحركة. إن الطبقة

العليا هي غالباً الاغنى، ولكن بما ان النخبة لا تبقى كذلك أبداً، لذا فهي لا تتمتع دائماً بالثراء. «هنالك واقع يتسم بأهمية كبيرة بالنسبة للفيزيولوجية الاجتماعية وهي ان الارستقراطية ليست دائمة. فهي تسير نحو الانهيار بسرعة متفاوتة. ولا يتوجب علينا البحث هنا عن مسببات هذا الواقع، يكفينا التأكد من وجوده وسريانه ليس فقط على النخبة التي تستمر بواسطة الارث، بل على تلك التي تتشكل بالاختيار. تعتبر الحرب مسبباً قوياً للقضاء على النخبة المحبة للحرب. وقد عرف هذا الواقع منذ القدم مما دفع البعض الى الاعتقاد بأن هذا المسبب، هو المسبب الوحيد القادر على القضاء على النخبة. ولكن هذا ليس بصحيح. فحركة انتقال النخبة مستمرة في ظل السلام، وهي تزول بسرعة ولا يتوقف الامر على إنقراض الارستقراطيين بارتفاع نسبة الموت على نسبة الولادة، بل بانحلال العناصر التي تكونها. ولا يمكن للأرستقراطيين الاستمرار الا باقصاء هذه العناصر، والمجيء بأخرى جديدة. «صحيح ان النخبة الصاعدة، حين تحاول ان تبني لها مكاناً تحت الشمس، فتصطدم بالعقبات، تعمد الى تقويض البنى وهدم الثروات، ولكنها تشكل أيضاً قوة إعادة البناء الذي يتيح التطور للمجتمع. «إذن يدخل انتقال النخبة في الطبقة الحاكمة عدداً أكبر من الاشخاص الذين يهدمون الثروة، كذلك يدخل عدداً أكبر من منتجيها. «تتعرض النخبة الى اضطرابات داخلية ترمي الى استبدال العناصر المنهارة بأخرى أكبر قدرة».

(أ) انتقال النخبة

Circulation des Elites

عرف باريتو (Pareto)، بمسألة إنتقال النخبة، كما إشتهر بقانون توزيع الثروات، ونظرية الفضالة والاشتقاق، فهي إذن إحدى أسس مؤلفاته. لقد رأينا ان كل مجتمع يملك نخبة، وهو لهذا السبب، تسلسلي البنية، ولا بد له للتطور، ومواجهة الصعوبات المتولدة باستمرار، ان تتبدل هذه النخبة. إما بأن تقبل النخبة القديمة بالتجدد بالدم الجديد، أو أن تتخلى عن مكانها بالعنف، إذا اقتضت الحاجة، لنخبة جديدة أكثر ديناميكية. وتنتمي عادة النخبة الجديدة الى الطبقات الدنيا، وتصعد في المراتب الاجتماعية، لأنها تملك الادارة في النجاح، وروح المغامرة التي افتقدتها النخبة القائمة، والرغبة في التمتع بامتيازاتها. إذن هناك إنتقال في النخبة، يؤكده التاريخ. «يمكننا ان نقبل بمجتمع يستقر فيه التسلسل ولكن مثل هذا المجتمع لا يتسم بالواقعية. ففي كل المجتمعات، حتى تلك التي تضم طبقات مغلقة يتغير التسلسل. ويكمن الخلاف والتباين بين المجتمعات بما يلي: يمكن لهذا التغيير ان يتم بسرعة متفاوتة. ونحن نشهد في تاريخ كل مجتمعاتنا زوال الارستقراطيات. وهذا واقع معروف منذ أقدم العصور. إن تاريخ المجتمعات الانسانية هو في الواقع تاريخ تعاقب الارستراطيات.

إذن انتقال النخبة هو واقع اجتماعي أساسي. فكل تسلسل اجتماعي غير محدد بصورة نهائية طالما أن التنافر هو شرط التوازن

الاجتماعي. ومن الهام ان يحافظ إنتقال هذه النخبة على هذا التنافر. لأنه يدفع مختلف فئات السكان الى التخالط، يمكننا ان نأخذ مثل روما التي افترست النخبة، والتي تمكنت من الابقاء على عظمتها بفضل هذا التجديد المستمر. فبعد ان إستنفذت الطبقات الزراعية، طلبت خدمة الصفوة من المقاطعات، وإستغلت البرابرة، الى أن سقطت لأنها لم تتمكن من تجديد نخبتها. إذن من الخطأ الاعتقاد بأن الازدهار لا يتم الا في ظل تسلسل صلب، مع العلم ان التغير السريع في النخبة يترك آثاراً لا تقل خطورة.

يمكننا القول ان ازدهار الامم يرتبط بالتكافؤ بين الاغنياء القدامى والجدد. فتفوق القدامى المطلق يعطي مجتمعاً باهتاً، مسمراً ويوقف كل تقدم، وتفوق الجدد يعطي مجتمعاً غير مستقر، ولا يسمح الا بالتقدم العارض.

صحيح ان كل نخبة تتمتع بالامتيازات تحاول الانغلاق على نفسها، الا ان هذا يسرع بها نحو حتفها.

تخفي أحداث كثيرة ظاهرة انتقال النخبة، من جهة أولى تبدو الحركة بطيئة، لذا فهي لا تلاحظ ولا تفهم الا بعد وقوعها، من جهة ثانية يميل المؤرخ الى الاكتفاء بالظواهر المشهدية، كأعمال التمرد، والثورات، والديكتاتوريات، ويكتفي بوصفها بدلاً من التحليل

العميق. فهذه الظواهر تشكل بصورة عامة التعبير عن تغير النخبة الذي يتم في ظل هذه الاشكال المموهة. إذن علينا ان لا ننخدع بالايديولوجيات. ويتم تغير النخبة باسم أنواع متعددة من الاشتقاق، أي ان النخبة الجديدة الصاعدة تخفي رغبتها في الارتقاء خلف سلسلة من المطالب المثالية، والاهداف النبيلة، كالحرية، والاقتراع العام، والمساواة، والعدالة الاجتماعية. وهو يعطي مثل سوريل (Sorel)، يعطي أهمية كبرى للأساطير، دون ان يجعل منها قلب تحليلاته، خصوصاً وان الناس يميلون بصورة عامة الى كل ما يدعى انه مطلب أخلاقي. لذا يتوجب على عالم الاجتماع الا يؤخذ بهذه التبريرات، وأن لا يعير أهمية لما هو تمويه، وإخفاء لارادة التسلط. «لا يمكن ان نفهم شيئاً من هذه الاحداث، إن لم نفصل بين الاساس والشكل الاساس هو حركة إنتقال النخبة، والشكل هو الذي يسيطر في المجتمع الذي تتم فيه الحركة. فهو يمكن ان يكون نزاع مثقفين في الصين، ونضال سياسي في روما القديمة، وخلاف ديني في العصور الوسطى ونضال إجتماعي في عصرنا الحاضر. فالمستاء في القرون الوسطى، كان يعبر عن حاجته الى الاصلاح باعتبارات وتأملات دينية، ويأخذ حججه وذرائعه من الانجيل، واليوم كان سيعبر عن نفس الحاجة بالنظريات الاشتراكية آخذاً حججه من ماركس (Marx).

يلاحظ باريتو (Pareto) بجلاء «أن نفس المثل التي تشكل قوة النخبة الصاعدة، تتحول الى ضعف بالنسبة للنخبة القائمة حين تقبل

بها من الناحية العاطفية. انه لأمر واقع، قبول النخبة الحاكمة تسرب الافكار الجديدة اليها. ولكن هذه الافكار لا تملك بالنسبة لها قوة الاسطورة القادرة على تعبئة الطاقات، فهي تحولها الى نزعة إنسانية تشل نشاطها. وهكذا نجد اليوم ان البورجوازية تقبل بعض أهداف الاشتراكية، كما حفر النبلاء قديماً «قبورهم بأظافرهم حين تعاطفوا مع مثال البورجوازية» إنها تسرع الخطى نحو حتفها، لأنها جعلت من هذه الاهداف موضوع حس جمالي، «الظاهرة التي تعلق دائماً انهيار الارستقراطية، هي غزو المشاعر الانسانية، والحساسية التي تجعلها عاجزة عن الدفاع عن مواقعها. «بكلمة أخرى حين يصبح البورجوازي اشتراكياً يستحق الطرد من قبل النخبة الجديدة لأنه لم يعد هو نفسه. «كل نخبة غير مستعدة للنضال من أجل الدفاع عن مواقعها، هي نخبة تعاني من الانحطاط، ولا يبقى أمامها سوى التخلي عن مكانها لنخبة جديدة تملك صفات الشجاعة التي تفتقر اليها. إنها تبني قصور الاحلام، إن هي توهمت ان المبادئ الانسانية التي تنادي بها ستطبق عليها، فالمنتصرون سيسمعونها منطقهم الخاص. لقد كانت سكين المقصلة تشحذ في الخفاء في نهاية القرن الماضي، حين كانت الطبقة الحاكمة الفرنسية تهتم بتطوير «مشاعرها». فهذا المجتمع العاطل، والعابث الذي كان يعيش كالطفولي في وطنه، كان يتحدث في سهراته الانيقة عن إنقاذ العالم من «التطير والقضاء على الدناءة» دون ان يشك لحظة واحدة بانه هو الذي سيحطم ويقضي عليه».

لم يهمل باريتو (Pareto) خلافاً لما يدعيه البعض، العامل الاقتصادي في سياق إنتقال النخبة، لأنه يبرهن انه يستعمل من قبل البعض كوسيلة دفاع ضد ارتقاء النخبة الجديدة، التي تستعملة بدورها كسلاح. وهو يرفض ان يمنحه قيمة التفسير الوحيد لأن علم الاقتصاد هو حجة اشتقاقية. ولا بد من رد انتقال النخبة بدوره الى الفضالة: بمعنى أن اشتقاق النخبة الصاعدة أقوى من اشتقاق المنهارة. وهذا لا يمكننا من الاستنتاج بأن النخبة الصاعدة، أفضل جوهرياً من تلك التي تحل مكانها. فهي ستتعرض بدورها عند بلوغها مبتغاها الى الانقسام بين مؤيدي المحافظة، ومؤيدي التيار السياسي الذين يرغبون في إطالة التغيير الحاصل بالتجديد المستمر. ويعتبر باريتو (Pareto) ان الانتقال من نخبة الى اخرى ليس سوى انتقال من توازن اجتماعي الى آخر، أي انه يتوجب على التوازن الجديد ان يتم كالسابق بمحاولة التوفيق بين القوى المتنافسة. إن انتقال النخبة هو سيرورة لا نهاية لها: سيرورة لا يمكن لأي نخبة ان تنتصر فيها بصورة نهائية، لأنها ببلوغها القمة تتعرض للمطالب الجديدة، وللبحث عن التجديد. ولن تفلت الاشتراكية من هذا المصير. «يشكل ضعف روح المقاومة لدى الطبقات العليا، والجهود المثابرة التي تبذلها دون وعي منها، للاسراع في انهيارها، تشكل إحدى أهم الظواهر في عصرنا. هذه الظاهرة هامة ولكنها ليست استثنائية، فالتاريخ يقدم لنا أمثلة مشابهة، ولا شك انه سيقدم المزيد منها، طالما استمر انتقال النخبة، أي أبعد مما تصل اليه توقعاتنا بشأن المستقبل. وقد استعاد هذه الفكرة في مبحث علم الاجتماع

(Traité de sociologie) الارستقراطيات لا تدوم. فمن المؤكد انها تزول بعد فترة معينة ومهما كانت الاسباب. التاريخ هو مقبرة الارستقراطيات.

(ب) النخبة الحاكمة

(L, elite gouvernementale)

تنقسم الطبقة العليا بدورها الى فئتين: « سنترك جانباً هؤلاء الذين يلعبون بصورة مباشرة أو غير مباشرة دوراً في الحكم، فهم يشكلون النخبة الحاكمة، والباقي يشكل النخبة غير الحاكمة. لا يعالج باريتو (Pareto) سوى النخبة الاولى، النخبة الحاكمة. فهي لا تشكل أرستقراطية فقط، بل هي في الغالب اوليغارشية. أي انها في نفس الوقت الذي تدير فيه شؤون البلاد، تعمل لحسابها الخاص، فأما ان توطد بنيتها لزيادة قوتها، أو يثرى أعضاؤها. ويمكن لهذه الاوليغارشية ان تأخذ أشكالاً مختلفة عبر التاريخ: البرلمان، اللجنة المركزية في الحزب الخ.. ورغم ان هذه التجمعات لا تبرز بمثل هذا الوضوح في ظل نظام تعسفي أو سلطوي، فان الاوليغارشية موجودة وقائمة رغم كل شيء. إذ يتوجب علينا عدم الاكتفاء بالاشخاص الذين يقومون بوظائف رسمية، بل يجب ان ننتبه الى هؤلاء الذين يؤثرون في الكواليس، والتي تعتبر نصائحهم فعالة.. ويمكن أن نقسم النخبة الحاكمة بدورها الى ثلاثة شعب:
(أ) الرجال الذين يرمون الى تحقيق أهداف مثالية، والذين يتقيدون بدقة ببعض قواعد السلوك.

(ب) الرجال الذين يرغبون في تحقيق مصالحهم ومصالح زبائنهم. وهم ينقسمون الى قسمين

(ب. أ) الرجال الذين يكتفون بالسلطة ويتركون لزبائنهم المنافع المادية.

(ب. ب.) الرجال الذين يبحثون لأنفسهم وأتباعهم عن المنافع المادية وخصوصاً المال.

ونجد لدى الفئة أ فضالة الفصيلة الثانية المسيطرة وهم شرفاء بصورة عامة، لكنهم طائفيين متعصبين. ولدى الفئة ب تسيطر فضالة الفصيلة الاولى، وهم لهذا أكثر قدرة على الحكم من السابقين وهم يستخدمونهم كالصابورة لأنهم يمنحون الحزب بعض مظاهر الشرف. ويعتبر (ب. أ) من الشرفاء لذا يمكنهم القيام بدور الكفيل مثل (أ). ويعتبر (ب. ب.) من الاشرار رغم انه يكلف البلاد أقل من (ب. أ) الذي تخفي نزاهته الشخصية الكثير من الفساد وعمليات النهب المتنوعة.

هذا يعني ان النخبة الحكومية لا تتمتع بالانسجام أكثر من الطبقة العليا بصورة عامة، والمجتمع ككل. ونخطىء من الناحية الاجتماعية إن حددنا لها أهدافاً مدروسة كتلك التي تشير اليها برامج العمل « إن الميل الى تجسيد الافكار المجردة، أو إعطائها واقعاً موضوعياً كبيراً الى درجة يتصور معها العديد الطبقة الحاكمة كشخص، أو كوحدة مادية على الاقل، ويفترضون وجود إرادة مشتركة لها، ويظنون انها تحقق البرامج باتخاذ الاجراءات المنطقية. » ويصور باريتو (Pareto) هذا التنافر

بابراز التناقض بين أصحاب الدخل رR والمضاربين في البورصة سS ، هذا التناقض الذي تتميز به الدول الرأسمالية ،وإن كان موجوداً في ظل أشكال اخرى في الدول الاشتراكية ، وهو يؤكد انعدام التشابه رغم بعض الخطوط المشتركة ، بين من يسميهم أصحاب الدخل رR والمحافظين ، وبين المضاربين سS والتقدميين أو الثوريين . كذلك يجب عدم فهم هذا التمييز ضمن معناه الاقتصادي وحده . فالخلاف بين هاتين الفئتين يعود الى الفضالة ، فنحن نجد لدى الفئة الاولى رR ان الفصيلة الثانية هي المهيمنة . فيما تهيمن لدى الفئة الثانية سS ميزات الفصيلة الاولى : « إن الفئة الاولى محافظة ، معادية للتجديد ، تخشى الوطني والقومي . أما الفئة الثانية فهي على العكس من ذلك مجددة ، تنقب عن الاعمال الرابحة ، عالمية فهي قادرة على ممارسة نشاطها في كل مكان ، فالمال لا وطن له . نجد في الفئة الاولى المتأصلين ، الذين يملكون أفكاراً مسبقة قوية ، من ذوي الآفاق المحدودة ، ونجد في الفئة الثانية كائنات جريئة مقدامة مقاتلة ، مفرطة الحيوية ، مستعدة للقبول بكل جديد ، لا تفقد الشجاعة ، يمكنها الانتماء الى الاشتراكية أو الفوضوية وفق خططها بالوصول الى الى السلطة . ونجد هذه النماذج في كافة الطبقات العليا ، وتبدل سياسة البلاد وفق هيمنة إحداها . « وتقوم الفئتان بوظائف مختلفة الاهمية في المجتمع . فالفئة (سS) هي سبب التغيرات والتقدم الاقتصادي والاجتماعي ، والفئة (رR) تشكل على العكس من ذلك عنصر إستقرار يحمي ويقي من حركات الفئة (سS) المغامرة . يبقى المجتمع الذي يسيطر عليه افراد الفئة (رR) جامداً ،

مبلوراً، أما المجتمع الذي يسيطر عليه أفراد الفئة (سS) فانه يفتقر الى الاستقرار. فهو يعيش من التوازن اللامستقر الذي يختل إثر أي حادث داخلي أو خارجي.» أو كما يقول باريتو (Pareto) يتعرض البلد في الحالة الاولى الى المعاناة من الناحية الاقتصادية، فيما يعاني في الحالة الثانية من الناحية السياسية. ويمكن للتناقض بين هاتين المجموعتين ان يتحول الى نزاع.

تشكل وحدة الطبقات الحاكمة أسطورة. فالنخبة تتنازع فيما بينها، وهي في الواقع ظل للتنافر الاجتماعي. وما يهم باريتو (Pareto) هو سبيلهم الذي يعتمدونه للحصول على رضى الطبقات الدنيا أي المحكومين. وهو لا يتغير ولا يتبدل قط، انه ما يسميه بعلاقة رب العمل السيد بمواليه. فمن المؤكد ان الطبقة الحاكمة تعمل هي أيضاً تحت تأثير الاشتقاق، وعلى أساس الفضالة كما رأينا، ولكنها أكثر قدرة على استغلال الاشتقاق سواء للاستئثار بالسلطة أو للحفاظ عليها. وهي تلجأ أولاً الى الطبقة المحكومة من الناحية التأسيسية. « تستغل الطبقة الحاكمة للحفاظ على السلطة أفراداً من الطبقة المحكومة. ويمكن توزيع هؤلاء الافراد الى فئتين تتوافقان مع الوسائل الاساسية التي تضمن السلطة. فئة تستعمل القوة وتلجأ اليها كالجنود، والبوليس وفئة ثانية تناور وتستخدم الحيل ابتداء من عملاء السياسيين الرومانيين حتى موالي السياسيين المعاصرين». هناك وسيلة اخرى تقتضي توفير الازدهار الاقتصادي لكنها لا تتسم بالحسم فالمهم هو التأثير على الافكار.

ويلاحظ باريتو متهكماً ان إثارة الافكار المعنوية تتسسم بالفعالية. «الرأي الاخلاقي هو أكثر ما يؤثر على الشعب. وهكذا يتهم العدو الديني والسياسي بخرق قواعد الاخلاق». فنحن نمنح باسم التبريرات الاخلاقية، الشرعية للإقتراع العام، والمساواة. أو ننادي بالحقوق والمصلحة العامة. وما الصراع من أجل الحرية سوى «صراع بين نخبتين متنافستين». كذلك هناك الاشتقاق الذي يستعمل خطوة الحقيقة: فكل فريق متنازع يصور موقفه وكأنه الحقيقة الوحيدة: «فكل الثوريين يؤكدون ان الثورات السابقة لم تؤد بالنتيجة سوى الى خداع الشعب، وثورتهم التي يرنون اليها، هي وحدها الثورة الحقيقية. فقد أكد بيان الحزب الشيوعي عام ١٨٤٨ «كل الحركات السياسية لم تكن حتى اليوم سوى حركات أقلية لصالح الاقلية. إن الحركة البرولتارية، هي الحركة العفوية التي قامت بها الاغلبية الكبيرة، لصالح الاغلبية الكبيرة». وللأسف ان هذه الثورة التي ستقدم للانسان سعادة مطلقة، ليست سوى سراب مخيب للآمال، سراب لن يتحول الى حقيقة. تشبه هذه الثورة العصور الذهبية. المنتظرة دائماً ولكنها تضيع في ضباب المستقبل وتفلت من المؤمنين بها. في اللحظة التي يعتقدون أنهم قد أمسكوا بها. ويعتبر باريتو (Pareto) الثورة وسيلة لاحلال اوليغارشية مكان اخرى.

(ج) الطبقات الاجتماعية (Les Classes Sociales)

لا يمكننا، ان لم نكن نعتبر ان النظرية الماركسية حول الطبقات الاجتماعية تشكل الحقيقة النهائية، التي لا تتطلب سوى بعض التصحيحات، لا يمكننا نبذ واستبعاد مفهوم باريتو (Pareto) لأنه يبتعد في بعض النقاط عما رآه ماركس (Marx). ولعل أسوأ انتقاد يوجه اليه هو الادعاء بأنه لم يأخذ بالعامل الاقتصادي ويهتم به. فهو يعتبر الطبقة، ظاهرة معقدة، ككل المجاميع والمظهر الاقتصادي هو واحد من العناصر. «هناك سمات كثيرة تساهم في تشكيل الطبقات الاجتماعية.. هناك أحياناً الولادة، الاصل المشترك سواء كان حقيقياً أو مفترضاً، بعض الممارسات الدينية، وحدة الاهتمامات الخ.. ولعل إحدى أهم المسببات في تباين الطبقات الاجتماعية هي الثروة. فالاغنياء يميلون الى التجمع معاً، كالطبقة المتوسطة أو الفقراء تماماً.» وهو لا ينكر الوعي الطبقي، لكنه لا يقبل ان يكون كافياً وحده لاضفاء السمة على ظاهرة الطبقة بسبب التفاوت الحتمي بين الواقع الموضوعي والواقع الذاتي «لاحظ الاشتراكيون وجوب عدم الاكتفاء بالثروة المطلقة، ومراعاة الثروة النسبية، أي وجوب مراعاة تقييم الناس لهذه الثروة» وعدم الاكتفاء بالواقع الموضوعي ورؤية الواقع الذاتي.. وهم محقون. فالسعادة والتعاسة هما أمران ذاتيان بصورة أساسية. صحيح ان هناك حداً للاملاق يختلط فيه بالنسبة لغالبية الناس الواقع الموضوعي بالواقع الذاتي. ولكن هناك، قبل بلوغ هذا الحد هامش واسع، لا يمكننا فيه

إقامة توافق وترابط كامل بين الواقع الذاتي للسعادة والتعاسة والواقع الموضوعي لقدر متراوح من الفتن».

وككل أي تجمع اخر، تشكل الطبقة مجمعاً، وهي تتميز لهذا بالتنافر. فالطبقات الاجتماعية تنقسم في داخلها، ليس فقط بسبب إختلاف المصالح. بل لتباين الفضالة التي تحرك الاعضاء وتدفعهم. وهذا صحيح ايضاً بالنسبة للطبقة العاملة لوجود تسلسل إجتماعي في عالم العمل وهذا صحيح أيضاً بالنسبة للرأسماليين: لقد خلطنا، وما زلنا نخلط بين من يحصلون على عائدات من أراضيهم أو من مدخراتهم وبين المتعهدين ونعتبرهم جميعاً من الرأسماليين. وهذا يضر كثيراً بمعرفة الظاهرة الاقتصادية، ويضر أكثر بمعرفة الظاهرة الاجتماعية. فهاتان الفئتان من الرأسمالية تملكان في الواقع مصالح مختلفة متباينة غالباً ما تتناقض. وهما يتعارضان فيما بينهما أكثر من الطبقتين المسماتين «الرأسمالية والبرولتاريا».

إن الفصل المتصلب بين الطبقات هو رؤية نظرية يمكن المطالبة بها لأسباب سياسية: فنحن نشهد في الواقع تبادلاً فيما بينها وعلاقات حتمية مستقرة. «ليست الطبقات الاجتماعية منفصلة تماما حتى في البلاد التي توجد فيها الطبقات المغلقة. ويجري في الامم الحديثة المتقدمة إنتقال كثيف بين مختلف هذه الطبقات». وحدها العقيدة ذات السمة اللاهوتية قادرة على الفصل بين ما يختلط في الواقع الاجتماعي بشكل غير ظاهر. ذلك ان التنافس بين الطبقات يحكمه التنافس بين النخبة، أي ان النخبة ترتكز على طبقة لاضعاف أو قهر النخبة الأخرى التي

تشكل بوصفها الاقتصادي، المدافع عن طبقة اخرى. «لا تتميز اية طبقة اجتماعية بالتجانس. فهي تعاني دائماً من التنافس، ويحاول كل فريق ان يجد نقطة إرتكاز له في الطبقات الدنيا هذه هي الظاهرة العامة. لقد كان لغالبية الثورات قادة من الاعضاء المنشقين عن نخبة معينة». ويمكن ان نسمي بالاستناد الى الاشتقاق، «الانحرافي» «والرجعي» من يبتعد عن الخط الذي يتبعه فريقه: إنه إنبعاث البدع المتوسطية. وتدل الوقائع الاجتماعية ان الاشتراكية منقسمة، قابلة للتأويلات المختلفة كالاسلام والمسيحية هل تعتبر البرولتاريا واقعاً «متجانساً؟ تدلنا الملاحظة على وجود عدة أحزاب تدعي الانتماء اليها، وتتقاتل فيما بينها بضراوة. هناك طوائف اشتراكية، كما كان هناك بدع مسيحية، وتبدو الاورثوذكسية دائماً على انها فكرة الاقوى. يوجد بين الاشتراكيين رجال مؤمنين بها، صادقين، وهناك ايضاً فريق يبحث عن مصلحته ويفتش عنها. إذا كانت الثورة ظاهرة، فان الثوريين ليسوا كذلك «لاحظ دوتوكفيل (De Tocqueville) محقاً ان الثورة لم تفعل سوى انتهاج أساليب النظام السابق. ونجد اليوم ان الطبقات الاجتماعية الجديدة التي بلغت السلطة تملك نفس الامتيازات التي كانت تتمتع بها الطبقات المسيطرة والمهيمنة في السابق. في ظل النظام القديم، نادراً ما كان يعاقب النبلاء الذين يمارسون أعمال العنف على الاشرار. في ظل النظام الجديد إنتقل هذا الامتياز الى العمال المضربين الذين يسعهم دون التعرض للعقاب، أو بعقاب شكلي، إساءة معاملة وقتل العمال الذين يرغبون في متابعة العمل».

لا يجد باريتو (Pareto) أية صعوبة بالقبول بصراع الطبقات. وهو يتفق في هذه النقطة مع الماركسية، ولكن تفسيره مختلف عنها . إن صراع الطبقات الذي وجه اليه ماركس (Marx) الانتباه، هو واقع حقيقي نجد آثاره في كل صفحة من صفحات التاريخ، ولكنه صراع لا يتم بين طبقتين فقط، طبقة البرولتاريا وطبقة الرأسمالية، فهو موجود في كافة المجموعات التي تملك مصالح متباينة وخصوصاً بين النخبات التي تتنازع على السلطة . والنخبة التي تملك السلطة وحدها هي التي تملك المصلحة في نكران هذا الصراع لتبعد عن هذا الموضوع إهتمام الطبقة المعرضة له، دون ان تضعف قدرة أعضائها على المقاومة. فالطبقة التي تملك السلطة قد حصلت على كل ما يمكن لصراع الطبقات ان يقدمه لها.

ولا يبقى أمامها سوى الحفاظ على ما اكتسبته، منع الآخرين من حرمانها منه كما نهبت هي الطبقة التي حلت مكانها». وبما أن هذا الصراع هو أحد مظاهر النزاع المستمر بين النخبات، بين تلك الحاكمة، وتلك التي تتطلع الى الحكم، فمن غير المحتمل ان يزول يوماً. ولو وصلت الى السلطة طبقة ترتكز على البرولتارية، لأن نخبة جديدة مختلفة ستحرك البرولتاريا لاقصاء الطبقة الحاكمة. وهكذا يبدو وهماً إمكانية القضاء على النزاع بين الرأسمال والعمل. ولا يمكن تبرير مثل هذا الامل والتطلع الا بواسطة الدلالة المنطقية المنتحلة « فصراع الطبقات ليس سوى شكل من أشكال الصراع من أجل الحياة، وما يسمى « النزاع بين العمل ورأس مال» ليس سوى شكل من أشكال صراع الطبقات،

لقد ساد الاعتقاد في القرون الوسطى بامكانية نشر السلام في المجتمع بزوال النزاع الديني. هذه الخلافات الدينية كانت شكلاً من أشكال صراع الطبقات، وما زالت جزئياً حلت مكانها النزاعات الاشتراكية. افترضوا قيام الجماعية، وزوال الرأسمالية، من الواضح ان الرأسمال لن يتنازع يومها مع العمل؛ ولكن ما يكون قد زال هو شكل من أشكال صراع الطبقات، شكل ستحل مكانه أشكال اخرى. وسينشأ النزاع بين مختلف عمال الدولة الاشتراكية، بين «المثقفين» «واللامثقفين»، بين مختلف أنواع السياسيين »، بين هؤلاء «السياسيين ومرؤوسيهم» بين المحدثين والمحافظين». ونحن نرى أن الصراع يتخذ باختلاف العصور، وباختلاف الظروف، ان صراع النخبة يتخذ شكل الخلافات الدينية، أو شكل الخلافات الاقتصادية أو غيرها. إذن كان ماركس (Marx) محقاً في الاساس ولكنه أخطأ باعتقاده ان الاقتصاد وحده هو أساس صراع الطبقات الامر الذي دفعه الى الطوباوية.

٢ - القوة والحيلة:

تشكل القوة إحدى المتغيرات الاساسية في كل توازن إجتماعي.. ولكن باريتو (Pareto) لم يهتم بها في البداية، ولم يع أهميتها الا بتقدم مؤلفاته الاجتماعية. ولعله احتاج الى التخلص من آثار حبه للسلم في شبابه، أو لعله أخذ هذا العنصر الجديد بعين الاعتبار لاقتناعه بعجز علم الاقتصاد وحده عن حل القضايا الاجتماعية. على كل لا تهمنا الاسباب التي دعته الى التأمل والتفكير بدور القوة الاجتماعي. لنعمل

على تحليل مفهوم القوة لديه. إنه يعتبر القوة عنصراً حاسماً في منع المجتمع من الانحلال، وهي تشكل بذلك قوة تحضير لا مثيل لها. ذلك ان رفض اللجوء الى القوة لا يبرر انهيار الانظمة فقط كنظام الملكية الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، بل يفسر أيضاً إنحلال الحضارات، أضف أنها تمنح الحركة للتجديد، وتتيح ضمان الاستقرار الاجتماعي، وهما الشرطان الاساسيان في كل توازن اجتماعي. صحيح ان القانون يشكل العامل الحاسم في التنظيم الاجتماعي الا انه بدأ بقوة الافراد المنعزلين، وهو يتحقق اليوم بقوة المجموعة. فلا بد دائماً من القوة». أضف ان التعارض الكلاسيكي بين القوة والقانون هو جزء من التمويه بواسطة الاشتقاق. «تفتقر دائماً أنواع الاشتقاق الى معنى محدد. كل الحكومات تلجأ الى القوة، كما تؤكد كلها قيامها على أساس المنطق والعقل». ففي الواقع سواء جرى الامر بالاقتراع العام أو بدونه، فان الاوليغارشية هي التي تحكم، وتعرف انْ تعطي التعبير الذي ترغب فيه للارادة الشعبية، يمكن للصيغ التي يستعملها باريتو (Pareto) ان تبدو جارحة بنظر هؤلاء الذين يفكرون بواسطة الاشتقاق، ويعطون هذا الاشتقاق ويولونه أهمية أكبر من الفضالة. وهو يعتقد بضرورة عدم الاهتمام بهم لأن واجب علم الاجتماع الاساسي هو تحليل الوقائع، ووصف ما يجري فعلاً في المجتمعات، دون إضفاء قساوة الدافع، ودون اخذ التبريرات بعين الاعتبار، لأن كل نظام سياسي يدعي صنع سعادة الشعب: «لا معنى للقضية التي تبحث عما إذا كان يتوجب علينا أم لا استخدام القوة، وإذا كان الامر مفيداً. فالجميع يلجأ

الى القوة سواء من جهة هؤلاء الذين يحاولون الحفاظ على بعض التماثل والاطراد، أو من جهة هؤلاء الذين يحاولون مخالفتها وانتهاكها. وعنف هؤلاء يقاوم ويهاجم عنف اولئك. كل من يؤيد الطبقة الحاكمة ويدعي رفضه استعمال القوة من انما يرفض استعمال القوة قبل المنشقين الذين يريدون التخلص من قواعد التماثل. وإذا قال انه يؤيد استعمال القوة فهو يؤيد في الواقع، استعمال السلطة لها في قمع المتمردين» إن بطء أسلوب هذا النص وثقله لا ينال شيئاً من حدة الفكرة الاجتماعية: كل من يدعي نظرياً رفض استعمال القوة، يلجأ دائماً الى إستعمالها أو تأييد استعمالها.

إذن هناك واقع قاس، حتمي، يفرض نفسه بعنف، واقع تؤكده كل التجربة، وكل التاريخ، دون ان تنجح أية نظرية في تعديله، أو ضبطه: كل مجتمع يلجأ الى استخدام القوة، حتى حين ينكر ذلك. فمنذ قرون وأفضل النوايا الحسنة تنصب في ثلم واحد. ولا بد من التيقظ لعدم الوقوع في الوهم، ذلك ان أكثر الانظمة إدعاء بوضع حد للعنف، هي التي تستعمله بقسوة أكبر. هذا هو القانون: «فالكائن الانساني الذي يخشى رد الضربة بضربة مماثلة، ويخاف إهراق دم عدوه، يضع نفسه بعمله هذا تحت رحمة عدوه. لقد كان للخروف دائماً الذئب الذي يفترسه، وإذا أفلت اليوم من هذا الخطر فلأن الانسان يحفظه لغذائه. وكل شعب يخشى الدم الى درجة يجهل معها الدفاع عن نفسه سيتحول عاجلاً أم آجلاً الى فريسة شعب محارب. فما من شبر من كرتنا لم يغزه السيف، ولم يسيطر على الشعب الذي يحتله بالقوة. لو ان الزنوج كانوا

اقـوى من الاوروبيين لكان الزنـوج هم الـذين يتقاسمـون اوروبا اليوم لا الاوروبيين هم الذين يتقاسمون افريقيا. الحق الذي تدعي الشعوب التي تحمل اسم متحضرة امتلاكه، حق غزو بقية الشعوب التي تعتبرها من غير المتحضرة، هو حق مضحك، أو هو لا يشكل شيئاً آخر مختلفاً عن القوة، إنه القوة. وطالما بقـي الاوروبيون اقـوى من الصينيين سيفرضون عليهم قوتهم. أما إذا أصبح الصينيون أقوى من الاوروبيين فان الادوار ستنقلب، فمن غير الممكن ان تواجه الشعارات الانسانية مهما كانت أي جيش بفعـالية» وتبقـى افضـل الدساتـير والقواعد، والقوانين حبراً على ورق إن لم تدعمها القوة. الامثولة مرة، ولكنها لم تكذب أبداً. ففي ميدان السياسة يبدو الحسام أقـوى من الحقيقة، فلـه تدين الكثـير من الديانـات بوجودهـا. «يدين نجـاح الاصلاح في المانيا الى حسام الامراء، فلو افتقد هذا السلاح للقي نهاية بدعة الالبيجو (Albigeois). سواء شئنا أم لا تشكل القوة حماية، فالنظام السياسي المنهار يفسح العنان للعنف الاعمى. على كل حال إن إقصاء القوة لا يساهم في خدمة العدالة ولا في خدمة السلام. «إذا لم تكن الطبقة الحاكمة تعرف، أو لا تريد، أو لا تستطيع استعمال القوة لقمع كل خروج عن التماثل في الحياة الخاصة، فان نشاط الفوضويين من المحكومين يحل مكان نشاطها. فمن المعـروف في التـاريخ ان الثـأر الشخصي يزول أو يبرز وفق موقف السلطة العامة من الجرائم «وتراوحه بين الحزم والتساهل».

إذن لا يمكن ان نؤيد في نفس الوقت صراع الطبقات، وان نتبنى المشاعر الانسانية دون الوقوع في تناقضات الاشتقاق. فمثل هذا العمل لا منطقي. ويعني إستبدال نخبة بأخرى ان علاقة القوى كانت مناسبة للنخبة المنتصرة. ولا يعني ان قضيتها أكثر عدلاً. وتملك الاقلية التي تقرر اللجوء الى العنف كل فرص النجاح إذا تردد العدو في استعمال نفس الاساليب. لذا تدخل القوة في تحديد الطبقة الاجتماعية، كالوضع الاجتماعي أو نوع الحياة. على كل حال لا يسمع صوت الطبقة الا إذا كانت تشكل قوة، أو كانت تؤثر على علاقة القوى القائمة. «لا يجري احترام طبقة إجتماعية الابقدرالقوةالتي تملكها.وإذا لم تعن هي بمصالحها فكيف نتصور ان بقية الطبقات منافساتها ستهتم بذلك؟ يعلمنا التاريخ ان الناس القادرين على الدفاع عن حريتهم، هم وحدهم الذين تمكنوا من الحفاظ عليها؛ وقد أخذت من الآخرين، الذين ما كانوا ليستعملونها لو تركت لهم شفقة من قبل الكبار. وإذا كانت البورجوازية الانكليزية تحافظ على حريتها، فذلك لأنها تملك القدرة على الدفاع عنها والا فانها تفقدها.» لا يمكن ان نفهم هذا المقطع دون العودة الى نظرية التوازن الاجتماعي. من السخف ان نفرض الحرية على هؤلاء الذين لا يرغبون فيها، لأن حب الحرية يفترض أولاً الاستعداد للدفاع عنها، والا لما تعدت عملية التزوير. يعترف هؤلاء الذين يتراجعون عن النضال من أجل حريتهم باستعدادهم القبول بتوازن تفرضه قوة أجنبية، غريبة، ويذهب هذا النص أبعد فيري ان التوازن الاجتماعي يقوم على إرادة الحرية،

والمساواة، وملاحقة بعض المصالح، بالاضافة الى ضرورة القوة.. مما يستدعي القول من زاوية التوازن الاجتماعي ان الحرية من أجل الحرية أمر عبثي مثل المطالبة بالمنفعة من أجل منفعة. يفرض التوازن بطبيعته توافقاً، بين إرادة الحرية، ومطلب المساواة، والاهتمام بالعدالة واللجوء الى القوة: التوازن هو كلمة لا معنى لها، إن خضع الى تطلع أو عامل واحد. والمجتمع الذي لا يعترف سوى بالحرية هو مجتمع عبثي كالمجتمع الذي لا يقوم الا على الاقتصاد، أو على الدين، بكلمة اخرى يرفض التوازن الاجتماعي خصوصية عنصر أو مثال، لأنه يشكل محصلة، عدة عناصر وتطلعات متنافسة، متباينة أحياناً. لذالا يرضى باريتو (Pareto) ان نرغب في القوة من أجل القوة فقط. ونخطىء إذا اعتبرنا تشديده على ضرورة القوة نوعاً من المدح. وهو يندد فقط بمن يسميهم بالانسانيين لأنهم يتجاوزون الواقع، ويزدرون حتمية القوة. هذه القوة التي نعجز عن التخلي عنها. وهو يرفض على السواء النزعة الانسانية، والكلبية، لأنهما كلاهما ينكران التوازن الاجتماعي بمواقفهما الخاصة المتطرفة. ما يتميز به باريتو (Pareto) هو إعترافه بأهمية القوة دون السقوط في إجلال هذه القوة.

لا تشكل القوة وسيلة تتيح حل كل المشاكل وكل الصعوبات، لذا يتوجب عدم اللجوء اليها دائماً، لا بد من دراسة كل حالة وتقدير مدى منفعة استخدام القوة فيها. لا بد من إستعمال القوة بشكل لائق. لا يؤدي ضعف السلطة وحده الى الفوضى، بل يؤدي اليها ايضاً

استعمال القوة الكثيف والمتكرر. فالطغيان بتعسفه الذي يريد حل كل المشاكل بالقوة، يشكل أحد أشكال الفوضى. يملك المجتمع المتوازن أوليات قانونية وتأسيسية تهدف الى حل المشاكل دون ضرورة اللجوء الى القوة، بكلمة اخرى لا ينشأ الاستقرار عن وجود القوة وحدها. ولكن لا بد من الاعتراف ايضاً بأهمية الاشتقاق. فباريتو (Pareto) لا يتوقف عن التشديد على إمكانية منفعتها باعتبار ان المجتمع لا يشمل الاعمال المنطقية فقط. وان الناس حتى الحكام منهم يقومون بأعمال لا منطقية. إن الاشتقاق يمنع استعمال القوة بصورة غير موآتية، غير مناسبة، وهو يستهجن النظريات التي تندد بالقوة بصورة مبدئية، وتبريرات القوة، وأعمالهاالتميزية.

بما ان القوة تشكل وسيلة طبيعية للعمل الحكومي، وعاملاً أساسياً في التوازن الاجتماعي، فان رفض تطبيقها لأسباب إنسانية هو موقف خاطئ، ذلك انه إذا ما رفضت الحكومة استخدامها سيلجأ اليها آخرون بدلاً منها وفي ظروف غير نظامية: «يرفض بعض الحالمين استعمال القوة بصورة عامة. وإما ان تكون هذه النظريات لا تملك أي أثر واما إنها لا تهدف سوى الى النيل من مقاومة الحكام مفسحة المجال أمام عنف المحكومين.» بكلمة اخرى إن نظرية اللا عنف مثملة، ليس لأنها تخلط فقط بين القوة والعنف (كما سنرى فيما بعد) بل لأنها تشكل وسيلة مواربة لتشجيع المخالفة في المجتمع. فهي تفيد عادة «المنشقين» الذين لا يترددون في اللجوء الى القوة العمياء، إذا تأثر الحكم بانسانية

مثل هذا المبدأ. ولا بد لنفس الاسباب من التنديد باستعمال الارهاب الذي ازداد في عهدنا. فهو يفرض التوازن الاجتماعي للاحتلال، لأنه يمنع استعمال القوة ضد المجموعات ولا يقبل بها الا لردع جرم فردي أو خاص. أكد باريتو (Pareto) عدة مرات على هذا المبدأ الاساسي ولكنه لم يحدده بمثل دقه الفقرة التالية« إننا نميز بين الفرد الذي يقتل أو يسرق لحسابه الخاص، وذلك الذي يرتكب نفس الاعمال لخدمة حزبه. ونرى أن الشعوب المتحضرة تسمح بتسليم المجرم الاول، وترفض تسليم الثاني. بل ان التسامح يتزايد فيما خص الجرائم المرتكبة إبان الاضرابات أو غيرها من النزاعات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية. كذلك هناك رضى عن مقاومة المعتدين بصورة سلبية، ومنع رجال السلطة العامة من استعمال أسلحتهم سوى في حالة الضرورة القصوى. ولا يتوفر أبداً حالة الضرورة القصوى هذه، فطالما بقي رجل السلطة حياً، يعتبر ان الضرورة لم تبلغ حدها الأقصى. من غير المفيد القبول بطابع الضرورة القصوى هذه حين يقتل رجل الامن ويعجز بالتالي عن الاستفادة، من لياقة هذا الاذن باستعمال السلاح. ويبدو القمع بواسطة المحاكم أكثر ميوعة».

إذن هنالك حدود لاستعمال القوة. ونستطيع القول إذا رغبنا بالحكم على مفهوم باريتو (Pareto) انه يؤيد إستعمال القوة باعتدال. ولا بد من مراعاة ثلاث نقاط في هذا المجال. أولاً يجب عدم الخلط بين القوة والعنف فهذا الاخير لا يشكل بالضرورة تعبيراً عن القوة، بل هو في الغالب

دلالة ضعف «يجب عدم الخلط بين العنف والقوة . فالعنف يرافق الضعف ويتبعه ، فنحن نجد أفراداً وطبقات فقدوا قوة الاستمرار في مناصبهم ، يزيدون من كراهيتهم بضربهم العشوائي . فالقوي لا يضرب الا حيث تقتضي الضرورة ، ولا يمنعه عن ذلك شيء تراجان (Trajan) كان قوياً ولم يكن عنيفاً. كاليغولا (Caligula) كان عنيفاً ولم يكن قوياً» . ويأخذ باريتو (Pareto) على البورجوازية ،جهلها فضائل القوة ، وتحظيرها بصورة غير مباشرة ميدان العنف الاعمى الفوضوي . «يكمن خطأ العصر الحالي الكبير في اعتقاده بامكانية حكم الناس بالمنطق الصرف ، دون اللجوء الى القوة التي تشكل أساس كل تنظيم إجتماعي . ومن المثير للدهشة ان نرى ان عداء البورجوازية المعاصرة للقوة يترك المجال سانحاً أمام العنف . فالمتمردون يفعلون ما يريدون وقد اطمأنوا لعدم وجود عقاب . ويضطر أكثر الناس ميلاً الى السلم الى الانضمام الى النقابات ، واللجوء الى التهديد والقوة ، بسبب الحكام الذين لم يتركوا لهم سوى هذا السبيل للدفاع عن مصالحهم» . ولا شك ان باريتو (Pareto) قد قرر هذا النص متأثراً بموجة عمليات الاعتداء الفوضوية التي انهالت على أوروبا عام ١٩٠٠ ، ولكن ما من شك ، انه يعطيه بعداً أعم .. ويطرح العنف قضية نظرية ، هي مسألة تبريره فنحن نملك نظريات تجيز لجوء المحكومين الى العنف مهما كانت الاحوال ونظريات اخرى ترفض إستعمال الحكم له . يتعلق الامر في الواقع بالاشتقاق ، الذي يحاول لأسباب اخلاقية ، أن يبرر العنف باسم المبادئ ، في الوقت الذي يتعرض فيه علم السياسة لعلم الذمامة اي تقييم الاجراءات

الواجب اتخاذها في ظروف معينة. وهكذا يعتقد باريتو (Pareto) ان العنف هو الحل الأخير الواجب استعماله لتقويم وضع فاسد او الخط الواجب إتباعه لاحلال نخبة جديدة جدية قادرة على قيادة المجتمع مكان النخبة المنهارة العاجزة عن الحفاظ على التوازن الاجتماعي.

باريتو ليس معادياً للثورة ولا مضاداً لها، ولكنه يرفض التخلي عن الميتولوجيا الثورية وعن الرومانسية. فهو ينبذ عقيدة الثورة من أجل الثورة، والتغيير من أجل التغيير، كما يرفض مبدأ القوة من أجل القوة، أو المساواة من أجل المساواة. فالتوازن الاجتماعي لا يقوم على موانع نظرية، بل يرتكز على عناصر وعوامل تعمل سوية. «كانت الحرب والثورات نافعة أحياناً، ولكن هذا لا يعني ذلك دائماً. ولا يؤمن باريتو (Pareto) بأهداف الثورة المثالية، لأن مثل هذه الاهداف لا تتحقق. فكل المنفعة تكمن في حلول نخبة جديدة أكثر ديناميكية مكان النخبة القديمة الضعيفة. ويشارك باريتو ملاحظة ج سوريل (G Sorel) الساخرة بأن المثالية الثورية تدعي تغيير العالم، في الوقت الذي تعجز فيه عن تغيير عادات الافراد. في الواقع ان الثورة الحديثة ليست سوى شكل من أشكال إنتقاء النخبة، يستبدل التنافس العسكري والديني القديم بالنزاع الاقتصادي والاجتماعي،إذن يبقى أساس القضية على حاله، الاشكال وحدها تتبدل. بكلمة اخرى لا شيء يبرر العنف الثوري لذاته. إن تبرير العنف من أجل العنف هو مسألة خاطئة، لأن كل عنف يشكل مرحلة مؤقتة تتطلع الى التحول الى قوة شرعية. إن العنف الصرف هو حيواني، والاشتقاق الذي يبرز لدى الانسان يحاول

إضفاء الشرعية عليه. وتقتضي هذه الشرعية إستبدال الضعف الذي يخل بالتوازن الاجتماعي بقوة قادرة على الحفاظ عليه كل من يلجأ الى العنف اللا مشروع يرغب بتحويله الى عنف شرعي.

ينبع التحديد الثاني للقوة من ضرورة حصول الطبقة الحاكمة على حد أدنى من رضى المحكومين: «يبدو الرضى والقوة في التاريخ كوسائل حكم». لا يمكن للسلطة ان تتخلى عن العنف الا إذا حصلت على الاجماع وهو أمر صعب التحقيق، ويدخل ضمن الحدود القصوى. وهنا ايضاً يجب ان لا ننقاد للأوهام. فالرضى لا يعني قط المساهمة أو التمثيل الشعبي، فهذان يمكن تحقيقهما دون إيجاب. ويمكن لمثل هذه المناهج والسبل ان تحطم هذا المفهوم بادخال الانشقاقات والنزاعات. إن الاقلية هي التي تحكم حتى حال التمثيل الشعبي: «إذا استثنينا بعض الاستثناءات القليلة، القصيرة المدة نجد دائماً طبقة حاكمة قليلة العدد، تمسك بمقاليد الحكم معتمدة جزئياً على القوة، وجزئياً على إيجاب الطبقة المحكومة التي تفوقها عدداً. يرى باريتو (Pareto) ان أفضل سبيل للحصول على الايجاب لا يكون بالتأثير العنيف على الفضالة، بل استثمار تلك القائمة كما فعل الرومان. «ملكت روما فن الانتفاع من الفضالة، لذا تمكنت من إستيعاب عدد كبير من الشعوب المحيطة بها في إيطاليا وحوض المتوسط». وإستعمال الفضالة يعني أيضاً التلاعب بالاشتقاق، أي التحايل.

هنا تكمن النقطة الثالثة والاهم، يجب ان تتمكن الطبقة الحاكمة

وفق مبدأ مكيافلي من إستعمال القوة والحيلة بالتعاقب، أو ان تملك العناصر التي يعمل بعضها كالذئاب وبعضها الآخر كالأسود. فليس من المفيد دائماً اللجوء الى القوة.لا بد من إجادة تطبيق المنهج الثاني: الحيلة لمنع العنف أو مقاومته تلجأ الطبقة الحاكمة الى الحيلة، والغش، والفساد، وبكلمة واحدة تصبح حكومة الاسود حكومة ذئاب. وتنحني الطبقة الحاكمة أمام تهديد العنف ولكنها لا تستسلم سوى ظاهرياً، وتحاول الالتفاف على العقبة التي تعجز عن تجاوزها علناً.

ليس من المفيد دائماً كما تدل التجربة معارضة المنشقين علنا، فمن الافضل إبراز الليونة واستعمال الخدعة. لذا يبدو من المناسب ان تضم الطبقة الحاكمة أعضاء يعملون وفق فضالة الفصيلة الاولى، يستغلون غريزة التنسيق فيهم للتعويض عن طيش هؤلاء الذين يعملون وفق فضالة الفصيلة الثانية.. «فمن الصعب إبعاد طبقة حاكمة تجيد إستخدام الخديعة والغش. والفساد. من الصعب إذا نجحت هذه الطبقة في دمج أكبر عددممن يملكون في الطبقات الحاكمة هذه المواهب والميزات، ويعرفون إستعمال نفس الخدع، ليكونوا بالتالي قادة هؤلاء المستعدين للجوء الى القوة. وتكون الطبقة المحكومة التي تفتقر الى القائد، بلا تنظيم، عاجزة عن بناء أي شيء دائم».

إذا درسنا التاريخ، نلاحظ ان الانظمة التي تسيطر فيها الفصيلة الاولى من الفضالة قد تعاقبت مع الفصيلة الثانية، رغم أننا نجد غالباً مزيجاً من الاثنتين، وتعتبر الطريقتان فعالتين. ويمكن ان نذكر من ضمن الانظمة التي هيمنت فيها على النخبة فضالة الفصيلة الثانية

سبارطة وجمهورية البندقية. ومن ضمن الانظمة التي سيطرت فيها على النخبة فضالة الفصيلة الاولى أثينا، والجمهورية الرومانية، ويمكن ان نصنف في هذه الفئة الحكومات التيوقراطية، والانظمة العقائدية في عهدنا الحالي. ونجد في الحالة الاولى ان انتقال النخبة بطيء، فهذه العملية تبدو أسرع في الحالة الثانية. ولا يمكننا القبول باستعمال الحيلة وحدها، ليس لأن الذئاب لا يعرفون الشجاعة، بل لأنهم يفتقرون الى الايمان، ولا يحركهم المثال الضروري للحصول على رضى المحكومين الدائم. هنا أيضاً تعتبر المسألة، مسألة توازن باعتبار ان الحيلة تبدو عاجزة دون القوة. «هناك نزاع بين الحيلة والقوة. ولنقرر لا جدوى المعارضة بين القوة والحيلة ولو بصورة استثنائية، يبدو من الضروري البرهان على ان استعمال الحيلة أكثر منفعة من اللجوء الى القوة، لنفترض وجود طبقة حاكمة أ A في بلد معين، تضم أفضل عناصر السكان وأكثرهم قدرة على التحايل.. في هذه الحالة تفتقر الطبقة المحكومة ب B الى هذه العناصر، وهي لا تملك لهذا السبب أي أمل في التغلب على أ طالما بقي الصراع جارياً عبر الحيلة. وإذا اجتمعت القوة بالحيلة. فاننا نجد ان سيطرة أ ستكون دائمة. ولكن هذا الامر قلما يتحقق. فنحن نعرف أن غالبية من يستغل الحيلة يخشى استعمال العنف وبالعكس. لذا إذا جمعنا في الجزء أ رجال يجيدون استعمال الحيلة، ينتج عن هذا تجمع رجال أقدر على استعمال العنف في الفئة بـB . وإذا استمرت الحركة، في هذا الاتجاه، يميل التوازن الى الاختلال لأن Aأ يملكون الحيلة ولكنهم يفتقرون الى الشجاعة للجوء الى القوة، كما يفتقرون الى الوسائل. فيما

يملك بـB الشجاعة والوسائل، ولكنهم يفتقرون الى فن استخدامها. وإذا تمكن بـB من إيجاد القادة الذين يملكون هذا الفن، والتاريخ يعلمنا انهم يحصلون على هؤلاء من بين المنشقين عن Aأ، إذا تمكنوا من ذلك فانهم يملكون كل ما يلزم لتحقيق النصر وطرد Aأ من السلطة. لقد رأينا أمثلة متعددة في التاريخ، منذ العهود الموغلة في البعد حتى عصرنا الحاضر». إذن سبيلا السياسة هما القوة والخديعة، ويتوقف على الظروف، وروحية الطبقة الحاكمة تقرير استعمال أحدهما أو كليهما معاً.

٣ - السياسة والانحطاط:

سنترك جانباً ظاهرتين من هذه القضية. الظاهرة الاولى. معرفة تأثير ج موسكا (G.Mosca) الماكيافيلي الايطالي على باريتو (Pareto). هذا الاخير لم ينكر أبداً تأثيره عليه، ولكنه فضل تبني موقف مترفع عند سوآله بهذا الخصوص. ويعود الى المنقبين تحديد أهمية هذا النفوذ ونقاطه الاساسية، وتتعلق الظاهرة الثانية بالعقائد التي حاربها باريتو (Pareto). الاشتراكية، والبرلمانية، والديموقراطية، والانسانية وهو يرى انها إشتقاقات وانحرافات نخطىء بمنحها أهمية كبيرة. وتهدف هذه الفقرة الى إعادة جمع أفكاره الاساسية حول الظاهرة السياسية. لأنه هو نفسه لم يعط شرحاً متلاحقاً، متلاحماً.

يجب فهم السياسة وفق هدفها الذي يقتضي، ويوجب ما يسميه هوبس (Hobbes)، حماية الجماعة سواء كانت أمة أو شعباً، سواء

استعملنا القوة أو الحيلة في تأمين هذه الحماية فالمهم هو ضمانها بصورة فعالة وينتج عن هذا أثران:

- لا تخضع القضية السياسية للدائرة الفردية، لذا فهي لا ترتبط بقلق الضمير الشخصي، والاخلاق الفردية، بل تتناسب مع الجماعة، والجماهير. ومن هنا يبرز عداؤها لكل من يقدمون الضمير على سلامة المجموعة، وخلاصها باسم الاوهام الخاصة. وهذا لا يعني انها تتنكر لشرعية اهتزاز الضمير، أو الديالكتيكية الفردية أو الاجتماعية من زاوية علم الاجتماع، ولكنه يرفض الخلط بين متطلبات الفرد والضرورات الاجتماعية. باعتبار ان الفرد يشكل وهماً خارج المجتمع، والمجتمع يشكل فكرة مجردة إذا فصلناه عن الفرد. بكلمة اخرى يختلف الكمال الفردي، عن حماية المجتمع. لو ان الهيئة الحكومية تتطور وسط شعب يضم أفراداً مثاليين، لكانت الوسائل الشريفة والاخلاقية، تكون الوسائل الاكثر فعالية، لدعمها واستمرارها، ولكنها تقوم وسط رجال، أي وسط كائنات غير كاملة، لذا يتوجب عليها اللجوء الى وسائل تناسب هذه الكائنات، وتشكل مزيجاً من الخير والشر.

- يتقدم النشاط المادي، الملموس على المزايدات حول المجتمع المثالي، خصوصاً وان أفراد المجموعة لا يتفقون حول هذه المثل. بكلمة اخرى يجب ان تتراجع طهارة المبدأ أمام ضرورات الواقع. فليست الراحة الشخصية هي التي تدخل في اللعبة في السياسة. «تجعل الحياة لسياسية استحالة القبول بكل الآثار المنطقية للمبادئ التي نحترمها،

إذن لا بد من إيجاد سبيل لتفسير هذه المبادىء حتى لا تصطدم آثارها بظروف الحياة الواقعية». ولا يعني هذا انه يحتقر المبادىء، بل يعني ان قيمتها توجيهية، غير فعالة فوراً: التنظيم الذي يحقق العدالة والقانون فقط، ليس سوى مفهوم مثالي، كمفهوم الروح بلا جسد. إن المنظمات الواقعية تختلف عن ذلك . إن دور الدولة سياسي لا اخلاقي. فهي يجب ان تكون دولة، قبل ان تكون دولة قانون. والخطأ الذي يرتكبه عدد كبير من المنظرين هو تطلبهم الكثير في الوقت الذي لا يتحقق فيه سوى القليل. وهم يحتقرون للأسف هذا القليل باسم الكثير. «إذا كانت عبارة دولة اخلاقية تشير الى كيان ما ورائي، لا يقوم سوى في خيالهم، فمن المباح لهم ان يمنحوه كل الميزات التي يرغبون، أما إذا قصد الاشارة الى أمر واقع كمجموعة المصالح العامة، فاننا نجد هيئة تساهم في ميزات المجاميع الحسنة والسيئة».

تقوم السياسة بين جاذبية الضرورات الاجتماعية (الصعوبات المتولدة عن تعايش أعضاء المجموعة، أو القضايا التي تنشأ عن تعايش الامم)، وإرادة إنجاز تطلعات مادية، ومثالية مختلفة، تؤدي هذه المواجهة الى قيام نزاع داخلي وخارجي، وفق تفوق الميول والتطلعات على الصبر الضروري لحل الصعوبات، والمشاكل الناتجة عن هذا الوضع. من هنا يتولد الاشتقاق، وتنشأ العقائد، التي تهدف إما الى إضفاء الشرعية على السلطة القائمة، أو تبرير مطالب المرشحين للسلطة. وكما يلاحظ بوزينو (Busino)، بلغ باريتو (Pareto) في

نهاية حياته القناعة القائلة: بأن مفهوم السياسة المركزي هو السلطة، البعض يحاول الاحتفاظ بها، فيما يحاول البعض الآخر الاستئثار بها. وتتحدد القوى المتنافسة بالتنضيد الاجتماعي الحتمي، أو بوجود نخبة وطبقات إجتماعية. المهم إذن بالنسبة للنخبة المتنافسة هو الحصول على تأييد المحكومين بفضل العقائد والايديولوجيات إما ليتمكن من يمسك بالسلطة من المحافظة عليها، أو ليستأثر بها من يتطلع اليها. هذا هو أساس فكر باريتو (Pareto) السياسي، ولا بد من الانطلاق منه لتوضيح بقية مظاهر الحياة السياسية.

(أ) تأثر صراع الطبقات بالماركسية. فاتخذ في عصرنا الحاضر شكل المعارضة الجذرية بين البورجوازية والبرولتاريا. وهذا يعني ان النخبة التي تنتمي باصولها الى الطبقات الدنيا، والتي يتحدر قادتها باصولهم من البورجوازية (لغالبية الثورات قادة من الاعضاء المنشقين عن النخبة)، هذه النخبة ستحاول فرض نفسها باسم البرولتاريا. وفي الواقع لن تكون البرولتاريا هي التي تتولى مهام الحكم، بل الاقلية الاوليغارشية التي تتكلم باسمها. ويبقى المجتمع منقسماً الى طبقة حاكمة، وطبقة محكومة. وتملك هذه السيرورة حظاً وافراً في النجاح لأن البورجوازية ونظامها الذي يسميه باريتو (Pareto) (ديموقراطية تسلط الاثرياء. (Democratie Ploutocratique)، تعاني من الانحلال. صحيح ان نخبتها تحاول إنقاذ نفسها بالانضمام الى مثل إنسانية كاللاعنف، والسلام، وبمدح البرولتاريا، وإغداق وعود العدالة

الاجتماعية، لكن، كل هذا سيؤثر على البروجوازية الخجول، الضعيفة، والمنحلة، لكل النخبات التي تتعرض للانحلال، ولكنه لن ينال من عزيمة النخبة الجديدة، أنصار لينين مثلاً: على كل حال من بين القوتين المتمثلتين في المجتمع، نجد ان القوة الشعبية هي الاقوى حالياً، لذا ترتجف الدولة البورجوازية، وتتفتت سلطتها. وترى البلوطوقراطية الديماغوجية جزءها الأول يضعف، وجزءها الثاني يقوى ويتوطد. هناك اهتزازات تحد، وإن كنا لا نستطيع توقع تاريخها أو اتساعها. ولكن التغيير سيوجز باستبدال نخبة منهارة، باخرى أكثر حيوية دون ان تتعدل السياسة في أساسها وعمقها.

(ب) ولا شك ان النخبة الجديدة تنادي بالغاء الامتيازات ووضع حد لتجاوزات النخبة القديمة، ولكنها ستضطر بدورها، بوصفها أقلية أوليغارشية، تعمل لمصلحتها، وتحاول توطيد نفسها الى القيام بتجاوزات اخرى. لن تبني النخبة الاشتراكية العدالة، لكنها ستحاول اكتساب إمتيازات طبقة عليا. وستعمد لتبرير أعمالها الى نهب وسلب الطبقة القديمة لاشباع مؤيديها. «في كل عصر، وفي كل مكان، تدلنا ملاحظة الماضي، ومراقبة الحاضر ان الناس المنقسمين الى مجموعات يحصلون على الاموال الاقتصادية بانتاجها مباشرة، أو بنهبها من مجموعات اخرى ينهبونهم بدورهم.» وقد أوجدوا في عصرنا وسيلة سهلة للعمل. «منذ ان رأوا إجراء عملية النهب لا ضد القانون، بل باسمه». يمكن ان نوجد تنسيقاً جديداً لأساسية جديدة تختلف عن

القديمة. ويبقى المثال الثوري مثالاً، فالثورة التاريخية المادية ستعيد ما فعله(سيلا)لصالح جيشه فنحن لا نكتشف سوى نظريات جديدة تبرر المناهج التي لا تتبدل.

(ج) يعتبر باريتو (Pareto) عدو الطوباويات، لأنه لا يؤمن بامكانية تحقيق الاهداف المثالية لمثاليتها وعدم خضوعها للتجربة وهو لا ينقضها عن جهل فقد كرس الجزء الاكبر من الانظمة الاشتراكية (Systemes socialistes) لتحليلها عن قرب. تعتقد الطوباوية بامكانية تحويل الانسان والمجتمع، وتغيير الانسان عما كان عليه دائماً. بينما نفتقر حالياً الى الوسائل الكفيلة باجراء مثل هذا التغيير. أما العقيدة فانها تستغل ميزات وعيوب الناس لتحريكهم سياسياً بكلمة اخرى، تعتقد الطوباوية بامكانية تعديل الاساس، وتغير الايديولوجية الاشكال لتحقيق هدف محدد. وهكذا يرد باريتو (Pareto) الطوباويين الى مزايداتهم النظرية باسم التجربة والمنطق. «لا تشكل أل ٢٣٠٠ عام التي تفصلنا عن عصر ديموقراطية أثينا الذهبي شيئاً في تاريخ الانسانية. وهذا صحيح إذا استنتجنا أننا نجهل ما سيكون غليه الانسان بعد عشرة آلاف عام مثلاً. ومثل هذا الاستنتاج مشروع تماماً. لا يسعنا الا ان نلزم الصمت حول هذا الموضوع والاعتراف صادقين بجهلنا الكامل». تقوم الطوباويات بصورة عامة على سفسطة تجمع الافكار أي «كل المنطق الخاطىء». ويشدد بالمقابل على الايديولوجيات وهو يعتبر واحداً من أول علماء الاجتماع الاميركيين

الذين اعترفوا بأهميتها في المجتمع. «تشكل العقيدة جزءاً مكملاً لصفات الرجل المتحضر والرغبة في نبذ هذه المشاعر تماماً، وطرد هذه الايديولوجية، هي وكل ما يرتبط بها، معناها الوقوع في خطأ الذين يعتقدون بامكانية تخلي الانسان عن الديانة واستبدالها بمفاهيم علمية بسيطة». تشكل الايديولوجيات في الواقع أشكال مموهة للاهوت، وهي بالتالي مثابرة مثله. وهي تمنح معنى للحياة، ولاهم إن كان هذا المعنى كاذباً، أو وهمياً لأن «الناس يحبون ان يواسوا بؤس الحاضر ببناء عوالم خيالية»، وتسمح هذه الايديولوجيات بتفسير الامور الغريبة، المعقدة، وغير المتوقعة، ويتذرع باريتو (Pareto) بهجوم الفوضوي لوشيني (Lucheni) على إمبرطورة النمسا اليزابيت ليعلن «ان الاشتراكيين قد تسرعوا باعلانهم ان الفوضويين هم نتاج المجتمع الرأسمالي. ولا يدهش أحد لهذا الاعلان. لأنه من المعترف به ان الرأسمال هو المصدر الوحيد للمصائب والجرائم التي ترتكب ضد مجتمعنا البورجوازي» ويلاحظ ان الرجعيين يحملون مسؤولية ما يجري للأفكار الجديدة. ويضيف ساخراً «انني متذهل لأن النباتيين لم ينتهزوا الفرصة بدورهم للاعلان عن مبدئهم! مع العلم اننا إذا اجبرنا كل الناس على تناول النبات نهدىء من عاداتهم. فنحن إذا انطلقنا من هذا المبدأ يمكننا الدلالة على ان جريمة لوشيني (Lucheni) تعود الى أكل اللحوم». إن العقيدة حتمية طالما ان العمل اللامنطقي متوفر. فهي تستطيع ان تمنح سمة شمولية للمطلب الفردي، وإضفاء الشرعية عليه.

من الطبيعي إذن أن تستغل العقيدة النخبة الراغبة بالاستئثار بالسلطة. وإن لم تؤمن بها: والنجاح يعطي تصديقية أكبر للاشتقاق. لا بد في السياسة من إيجاد مجرمين، والعقيدة تفبرك هؤلاء المجرمين وتخترعهم في الوقت الذي تحث فيه العمل.

(د) السياسة مليئة بالتناقضات. فالنخبة تندد بعنف بتجاوزات أعدائها الحاكمين، ولكنها ترتكب بدورها تجاوزات اخرى بمجرد إستئثارها بالسلطة. وهي تتهم الآخرين بقمع الشعب وتسير على نفس الدرب حينما تتمكن من ذلك. يدعي الجميع أنهم يناضلون من أجل الحق والعدالة، والسلام، والحرية، وتلتقي هذه التناقضات في السياسة الداخلية، كما في السياسة الخارجية. وهو يقارن في مذكراته (Mon Journal)بين خطابين القيا في تاريخ واحد تقريباً، أحدهما القاه رئيس الكابنت البريطاني لويد جورج (Lloyd Geroge)، والثاني القاه رئيس المجلس الالماني فون أرنيم (Von Arnim).. وهما خطابان يدعي فيهما الفريقان بالنضال من أجل الحرية حتى تحقيق النصر، قبل عام ١٩١٤ كان يعتبر بربرياً كل من يجهل الثقافة الالمانية، بعد الحرب اعتبر بربرياً كل من يعجب بهذه الثقافة. والاغرب من هذا ان كل بلد يعتقد بأنه مكلف باداء انبل المهام «كل شعب يدعي واحدة، لا ندري من أين أتى بها، فهو لا يقدم أي دليل عليها ومن هنا استنتاج باريتو (Pareto) «لا شيء يضاهي المهام في القتالية، ولا يمكن ان نقارن بها من هذه الزاوية سوى المصالح الحيوية» مهمة الاشتراكيين قيادة

البرولتاريا نحو النصر، ومهمة اللبراليين تطوير الديموقراطية في العالم الخ.. كل نخبة تدعي العمل باسم الشعب، ولكن هذا لا يبدو في القرارات: فالاقلية أو رجل واحد هو الذي يقرر دائماً لا يقتضي فن السياسة ابتكار الاشتقاق، بل التأثير على الفضالة التي تعطي العقائد محتواها وكما يقول مكيافيلي (Machiavel) يجب دفع الآخرين الى الاعتقاد. «حيث تقوى الفضالة، وتحفظ من قبل حكومة يقظة تجيد استغلالها، يقبل السكان طوعاً حمل أعباء التحضير للحرب وحيث تضعف في ظل حكومة تكتفي بالاهتمام ببعض المصالح المادية دون القاء نظرة على المستقبل، برفض السكان عبء الدفاع الوطني.

(هـ) تشكل السياسة قضية طرفية أكثر مما تشكل قضية مبادىء وعقائد.. فالاسس تساهم بصورة أساسية في إثارة رضى المحكومين والتحامهم. وهذا لا يعني انتهاج سياسة عمياء او ضيقة في رؤاها، بل يقتضي استغلال الظروف في توطيد السلطة وضمان حماية أعضاء المجموعة. ومن هنا يبرز دور التجربة الاساسي، ذلك بسبب وجود أوليات لا بد من إتقانها. «يعتقد عدد كبير من المفكرين الاشتراكيين انه لا يمكن نشوء أي تجاوز أو قمع عند اختلاط ميزات الحاكم وصفات المحكوم. وكان بوسعنا الاخذ بهذا الاقتراح قبل تجربة الحكومات النابعة عن الاقتراع العام. ولا يمكننا بعد هذه التجربة نكران إمكانية حصول تجاوزات وقيام الطغيان حيث يكون المرء حاكماً ومحكوماً فهناك أوالية

تقوم بين المحكوم الذي يمثل وحدة، والحاكم الذي لا يملك سوى جزء بسيط من السيادة».

أن يشغف غالبية الاشخاص بالسياسة على أساس الاشتقاق، فهذا الواقع يجب الا يمنع عالم الاجتماع، أو عالم السياسة ، من البحث لمعرفة طبيعة السياسة التي تخفيها الايديولوجيات، إذن يجب ان نفهم في الدرجة الاولى ان السياسة تحتاج الى التمويه، والاختفاء لتعمل بفعالية، لكن العالم لا يؤخذ بتصريحات رجال السياسة. ولا يقع في مصيدة بلاغتهم. نلاحظ إذا سبرنا الاشتقاق وكشفنا الايديولوجيات، وقارنا الاعمال بعد تجريدها من بهرجها التبريري، نلاحظ ان السياسة تبقى مشابهة لذاتها. مهما اختلفت الانظمة، أو الاحزاب فانها تؤكد كلها بأنها ستعمد الى تطبيق سياسة جديدة، أكثر عدالة، وأكثر تجرداً، سياسة مستجدة، ورغم التجربة نجد ان المحكومين يحافظون على ثقتهم بهم. هل هذه مفارقة؟ كلا، بما ان غالبية الاعمال والنشاطات لا منطقية، لذا يمكنها ان تغني ذاتها بالحجج اللامنطقية، من سفسطة وأساطير، ونظريات تتجاوز التجربة والايديولوجيات. لا بد من تخطي الكليات، والبحث عن الحقيقة التي تخفيها، ذلك انه بالامكان اطلاق كلمة اخرى على التسلط، مناطق النفوذ مثلاً. ويخطىء عالم الاجتماع اذا ثار أمام مثل هذه الاساليب لأنها طبيعية وحتمية. إنها جزء من جوهر السياسة بكلمة اخرى إن العالم الذي يرغب في امتهان السياسة مرتكزاً على العلم يفشل في مهمته.

في الوقت الذي اعترف فيه باريتو (Pareto) بأهمية الانظمة والاحزاب، لم يولها أهمية كسائر معاصريه الا للكشف عن العمق السياسي الكامن في الاشكال. كان يعتبر من اللغو التساؤل عن أفضل أشكال الانظمة، رغم إعادة طرحها مجدداً تحت تأثير الماركسية، بعد ان حل التفسير الاقتصادي للأنظمة مكان التفسير السياسي التقليدي. ونجد في الواقع ان مثل هذه التفسيرات تتابع إيلاء الافضلية للأشكال وبالتالي للاشتقاق. ويضيف باريتو (Pareto) «تعود دراسة أشكال الانظمة السياسية الى علم الاجتماع المختص لا الى علم الاجتماع العام». علم الاجتماع العام الذي يهدف الى تحليل العوامل الاساسية والعامة في التوازن الاجتماعي.

حين نتعرض لأساس المسألة، نجد ان السياسة تخضع بدورها الى قانون الاهتزازات قد أطلق علم السياسة إسم الانحطاط على هذه الظاهرة. وهكذا نجد ان باريتو (Pareto) قد أحيا مفهوماً تميز بأهميته في علم السياسة اليوناني، وبدا انه فقد كل معناه منذ قرن الانوار. فقد إعتقدنا واهمين ان أفضل ما أنتجته الانسانية سيتقدم ويتحسن باستمرار باتجاه الكمال العقلاني فيما تسقط العناصر التي أهملت لارتداديتها. وقد جاء باريتو (Pareto) ليبرهن من الناحية المنطقية التجريبية، ليبرهن ان ما نعتبره متقدماً لا يشكل سوى حكم ذاتي لعصر معين وانه لا يبدو كذلك في حقبة لاحقة، بينما يجد ما اعتبرناه إرتدادياً حيوية جديدة، فكل الظواهر الاجتماعية تخضع الى التغيير. ويعود

باريتو (Pareto) مراراً الى هذه النقطـة ، الا ان هذا التغيير ليس تخطيطياً ، ولا مستمراً كما تقول نظرية التقدم . فهو يمكن ان يتم عبـر التعاقب. إذن هو لا يضع أمام مفهوم التطور الذي يعتبر ان الظواهر الموصوفة بالمتقدمة تسير نحو كمالها ، لا يضع أمامها مفهوم الانحطـاط الذي يناقضها ويؤكد ان الانسانية تنهار بالتـدريج ، بمعنـى الانهيار المستمر، ولكنه يعتقد انه يمكن لكل ظاهرة إجتماعية ان تزول وتختفي لتولد من جديد تحت شكل آخر. يمكن ان تعقب مرحلة من التطور، مرحلة اخرى من التقهقر، وان يعقب المفهوم الفردي ، مفهوماً دولياً ، وفي الواقع لا يوضـح هذا التفسـير فكرة باريتــو (Pareto) فيما خص الانحطاط، ذلك ان فلسفة ليست فلسفة العودة الخالدة ، فمفهومه ليس دورياً ، بل كما يؤكد هو، ايقاعياً ، موزوناً .

وتحمل نظريته حول الانحطاط مفهوماً ، مزدوجاً .. فهي تنم من جهة عن نمو الحركة الاجتماعية وتراجعها ، وتشير من جهة اخرى الى الانبعاث في مرحلة لاحقة . ونحن نسيء فهم نظرية باريتو (Pareto) ان فصلنا بين هذا المعنى المزدوج . ونقدم مثلاً على ذلك . إن النظـام السياسي الجديد يتضح ، يركز أسسه ، ويتطور طالما ان النخبة التي تدعمه تحافظ على حيويتها ولا تصطدم بمعارضة نخبة اخرى أكثر عدوانية وبصورة عامة ان النخبة التي تختلج بسبـب إنحطاطهـا ، تخلي مكانهـا لنخبة ثانية تضع نظاما جديداً ، الى ان تضعف بدورها وتفتح المجال أمام نظام ثالث ، وهكذا الامر المهم ، هو ان انهيار النخبة يرافقـه بسبـب التبعية

المتبادلة، صعود نخبة اخرى. وهكذا نجد ان انحطاط البورجوازية التدريجي. يتم بصورة مترافقة مع صعود الاشتراكية. ففي الوقت الذي تهدم فيه البورجوازية نفسها، «بالاحاسيس الحمقاء. فان الطبقة العاملة التي تولد فيها في الظل النخبة الجديدة، تجهل مثل هذه الاحتفالات الانسانية، وإذا ما إطلعت عليها فلتظهر احتقارها لها وتقززها منها. فهي تشعر بقوتها تنمو يوماً بعد يوم ولا تحتاج الى مثل هذه التسالي». ولا يعني خسوف البورجوازية هذا، وسقوط الافكار التي تثبتها في عظمتها انها انتهت وزالت بصورة نهائية، فهي يمكن ان تولد من جديد في ظل أشكال جديدة، أشكال غير منتظرة غالباً بسبب الاشتقاقات الجديدة التي ستظهر معها. ونحن نجد ان الاشتراكية التي تعتبر نظرية عمومية خلاصية جديدة، كالمسيحية العمومية الخلاصية، تنقسم الى نحل تتناحر فيما بينها. صحيح ان الاشتراكية تختلف عن النصرانيةالا ان الانقسام الذي يميز الواحدة يظهر في الثانية. بكلمة اخرى ان انهيار نظام أو فكرة مرتبط بشكل عكسي مع صعود نظام آخر أو فكرة اخرى الا ان الفكرة المنهارة أو النظام المتداعي يمكن ان يبرز في شكل آخر ويؤدي الى إسقاط النظام أو الفكرة التي حلت مكانه. فمع انهيار أثينا شهدنا تفتت فكرة الديموقراطية، هذه الفكرة التي بعثت من جديد في مناطق اخرى. لقد اعتقدنا بسقوط الطغيان نهائياً، ولكنه ظهر على شكل ديكتاتوريات حديثة، هذه التي تساهم في انحطاط الديموقراطية وانحلالها. إذن تبقى السياسة على حالها، ولكنها تقدم

وجوهاً مختلفة، تبرز تباعاً في ظل مظاهر اخرى عبر التاريخ نظراً الى التفاوت وفق الحالات في طول الاهتزازات وكثافتها.

كما رأينا مراراً، يلاحظ باريتو (Pareto) إنهيار البورجوازية، ويعترف بأن الحظ يدعم الاشتراكية. الا انه لا يثق قط بهذه العقيدة الاخيرة، ليس لأنه بقي في أعماقه رجل إقتصاد، ليبرالي، بل لأنه يجد ان النخبة الاشتراكية تعاني من التردد والشك، هذان الامران اللذان قد يدفعانها الى التطرف البعيد عن الثورية. وإذا قرأنا مؤلفاته الاخيرة يتبين لنا ان الامور ليست بمثل هذه البساطة، ولا تشتمل قط على صعود نخبة وإنهيار اخرى فهو يعجب تارة بالاشتراكيين لطاقاتهم، ويتخوف منهم تارة اخرى لأنه يشكك بقدراتهم. ونجد ان الوضع أكثر تعقيداً مما ورد في مبحث علم الاجتماع العام (Traité de sociologie générale). مهما يكن لا يسعنا ان ننكر على باريتو (Pareto) نفاذ بصره حين توقع ان يرافق أفول البورجوازية انهيار بعض الافكار مثل الديموقراطية الليبرالية، والحقوق الفردية. ويبدو انه يرد إنحطاط الليبرالية الى النظام البلوتوقراطي (Ploutocratique) الذي نتج عنها أكثر مما يرده الى هجوم الاشتراكية، بكلمة اخرى ان النخبات تضمحل بسبب منطقها، أو منطق نظامها أكثر مما يضعفها أعداؤها. بمعنى ان ضعفها هو الذي يسبب قوة أعدائها. ومهما يكن لقد توقع باريتو (Pareto) تصاعد أعمال العنف والديكتاتوريات، والدولتية وخصوصاً الدولتية

الاقتصادية فقد حلت مكان النخبة التي حاولت الحكم بواسطة الخداع نخبة اخرى تلجأ طوعاً الى القوة.

ويمكن تفسير حذره من الاشتراكية - الامر الذي كشفه ر. ميشال (R.Michel) - بخشيته من ان تحولها غريزتها التنظيمية نحو مجتمع بيروقراطي. وكان يقارن طوعاً الحقبة الحالية بنهاية الامبراطورية الرومانية التي ولدت في الشرق النظام البيزنطي. الذي هيمن فيه التنظيم الذي يدعمه الازدهار النسبي. «من السهل ان نرى بأننا نتحرك في منحنى شبيه بذلك الذي سلكه المجتمع الروماني بعد إنشاء الامبراطورية، والذي استمر حتى الانحطاط بعد ان شهد حقبة من الازدهار. وينتهي مبحث علم الاجتماع العام (Traité de sociologie generale). بهذا التوقع المتردد». حين كنا نعيش منذ قرن تقريباً المرحلة المتنامية للحرية، كنا ننتقد مؤسسات الامبراطورية الرومانية المبكرة، المحدودة واليوم ونحن نعيش مرحلة الانحدار في الحرية والتصاعد في التنظيم، نعجب بهذه المؤسسات ونمدحها، ندعي ان الشعوب الاوروبية تدين بالجميل للامبراطورية البيزنطية التي حمتهم من الغزو الاسلامي، وننسى ان جنود أوروبا الغربية قد تمكنوا وحدهم مراراً من طرد العرب والاتراك، وأنهم كانوا أسياد القسطنطينية قبل الشعوب الآسيوية. وتبين لنا بيزنطية الحدود التي يمكن ان يبلغها المنحنى الذي تسير عليه مجتمعاتنا. وكل من يعجب بهذا المستقبل يندفع بالضرورة الى الاعجاب بهذا الماضي و« والقضية المطروحة أخيراً هي

معرفة ما إذا كانت الاشتراكية لم تتحول الى عقيدة منحطة في مرحلة الانحطاط، لأن نخبتها تعمل على وضع الخطط لمواجهة تدابير البورجوازية. في هذه الحال سيأتي التجديد الحقيقي، من مكان آخر، سينبعث من عقيدة قادرة على الجمع بين الاشتراكية وفضالة الفصيلة الثانية. على كل حال ان قراءة آخر مؤلفات باريتو (Pareto) لا تستبعد مثل هذا التفسير.

الفصل الخامس

هو فيلسوف رغماً عنه

كان باريتـو (Pareto) كما يقـول رارون (Raron) لا - فيلسوف -. ويمكن ان يكون قد رغب في اقامة مخالفة للفلسفة بالبرهان على إقامة نظرية عامة للمجتمع، نظرية تبقى ضمن حدود التجربـة الضيقة بعيداً عن اي مفهوم او تصور فلسفي. على كل حال إنه لا يمل تكرار ترفقه في الاهتمام بالفلسفة وقد فشل في هذا رغم كل نواياه. فقد استخدم دائماً الفئات الفلسفية التي امتنع عن تحديدها علمياً كفئـة الشكل، والأساس كذلك لم يعِ بوضـوح الافتراضيات الفلسـفية لفكرته، مثل تماثل الطبيعة الانسانية عبر العصور، او البعد الفلسفي للتفسير التاريخي. أخيراً نجد ان الفلسفة تتلألأ في صفحات عديدة، ويسعنا القول بوجود عدة فلسفات: الاسمانية (مذهب فلسفي يقول بأن المفاهيم المجردة، او الكليات ليس لها وجود حقيقي، وانها مجرد أسماء ليس غير): المذهب الطبيعي، الوصفية، العقلانية، الخ.. على كل هو يعترف بالاسمانية مع بعض التحفظ «يمـكن القـول بأننـا نبلـغ حد الاسمانية المتطرف. شرط ان نجرد هذه اللفظة من ملحقاتها الماورائية» لكن هل يمكن استخـدام عقيدة فلسـفية بعـد تجريدهـا من بعدهـا الماورائي؟ من الصعب كتابة الفلسفة دون فلسفة. ويوحي لنا باريتو (Pareto) بأنه يخلـط بـين الفلسفـة والماورائيات كما لو كان ينـكر الاسهام الايجابي لمبحث العلوم مثلا. علماً انه كان مطلعاً على الفلسفة، كما تدل بعض إنتقاداته على تمعنه في قراءتها. ويمكننا ان نتساءل ان لم تكن عدائيته للفلسفة ناتجة عن عجزه عن التحليق في الفئات الفلسفية لافتقاره الى الدراسة المسبقة لهذه المادة. ويمكن ان يكون فكره التحليلي

هو الذي منعه من التفكير المنهجي الذي يميز الفيلسوف الحقيقي.

إنني اعتقد شخصياً بأن غالبية الاعتراضات عليه تنبع من ضعف مؤلفه من الناحية الفلسفية ويبرز ضعفه في تفاصيل الفقرات لا على مستوى فلسفته أو رؤاه العامة للاشياء، هذا اذا لم نرغب بالاكتفاء بالنقد التحليلي الصرف. فمن الغريب ان يبين هذا الكاتب الذي ينادي بمثل هذه القوة بالمنهج التجريبي المنطقي، ان يبين هذا المنطق الضعيف في عرض افكاره، وان يبرز مثل هذا الانعدام في التلاحم في الكتابة العامة. واعتقد انه يتوجب علينا ان نرد هذا الضعف الى غياب الفكر الفلسفي القادر على منهجة التأمل الكلي. إن افكاره مبتكرة فريدة، ولكن افتقارها الى الاعداد التأملي والمبحثي يبقيها متفرقة، دون ان ينجح في اقامة الرابطة التي تتيح إدراك بعدها. اننا نجد لديه عناصر الفلسفة التي لم يعرف، او لم يرغب في عرضها بشكل تصوري. لنأخذ عدة امثال على ذلك، انه يتبنى أحياناً اسلوباً تعريضياً، وموقفاً موضوعياً حين يطلب تحديد علم الاجتماع بالمنهج المنطقي التجريبي، لكنه يتجنب الوقوع في العلموية الضيقة المتزمتة علموية هؤلاء الذين لا يعتبرون صحيحاً الا ما يمكن تبريره علمياً. فنحن لا نجد لديه تغير العلم، الذي كان سائداً في اوساط المثقفين في عصره. الم يعلن ان المسلك الذي يتوافق دائماً مع العلم هو مسلك عبثي؟ من المؤكد اننا نجد في مؤلفاته توجهاً «طبيعياً» لكنه عرف بشكل افضل من ماركس (Marx) كيف يحذر من عقبة الطبيعية

الجوهرية ، لأن مذهبه الطبيعي لا يحمل سوى معناه المبحثي . إننا لا نشهد في مؤلفاته الفكرة القائلة بأن الوعي هو انعكاس للظروف المادية ، كذلك لا يقول باستقلالية الفكر. وتتميز اقواله بالحذر العلمي . كذلك نجد ان عقلانيته لا تقبل الاعتراض ، وتمنع من الاستنتاج السريع بالقدر الذي يحذر منه القارىء من ضلال العقلانية التي تنكر قوى اللامعقول . من الخطأ القول بأن باريتو (Pareto) هو صاحب مفهوم حول « اللاعقلانية الاساسية » . لماذا يصار الى تفسير الأهمية التي يوليها الى الاعمال اللامنطقية والاشتقاق بشكل مناقض وتخفيضي في الوقت الذي لا تشكل فيه سوى ملاحظة عادية ؟ هل يكفي إبراز دور اللامعقول في النشاط الانساني للتحول الى مؤيد « للاعقلانية » ؟ لقد لاحظ باريتو (Pareto) واقعاً ولم يؤيده . للأسف نجد أن أعداءه لا يجارونه في حذره العلمي وهم ينشدون العقلانية وحدها .

اننا نقف بصورة عامة امام اسمانية تحذر من الكلمات ، امام وصفية تتخذ احتياطاتها من العلموية ، امام طبيعية تقف ضمن حدود المنهجية . أمام عقلانية تبرز اهمية اللامعقول . إذن هناك عدة تيارات فلسفية تلتقي في مؤلفاته ، الا ان باريتو (Pareto) يعطيها معنى يبتعد عن مفهومها العادي . ولكنه للأسف لم يعمد الى تحليلها ، كما يمكن ان ينتظر منه ، لمنحها دقة تجريدية . بكلمة اخرى ان هذه المواقف لا تتعارض فيما بينها ، لكنها تعاني من النقص في البناء الفلسفي الذي كان ليتيح لها تجاوز التشعب المبحثي ، واعطاء وحدة اكبر وتلاحم أمتن لفكرته . ذلك

ان مهمته لا تفتقر الى الجرأة، ولا تخلو من الصعوبات الداخلية، لأنها تفترض كما يقول ر. أرون(R.Aron) تفسير الأعمال اللامنطقية، منطقياً وعلميا وبالتالي توضيح الاشتقاق عقلانياً. توضيحه بهذه الطريقة هو وكل اللامعقول الذي يلخر به. لقد خاض المغامرة. صحيح ان التجربة تضم بعض النقص والتقصير والثغرات والأخطاء، ولكنها تساهم في توضيح سياق النشاط الانساني وعدم التلاحم في العلاقات الاجتماعية بصورة عميقة، مثيرة. ان مفهوم «اللامنطقي» (Non logique) وحده يشكل أداة تقصي عظيمة يمكن لعلم الاجتماع الاستفادة منها. لقد شق طريقاً جديداً يشكل وفق تعبيره، اقتراباً من الحقيقة بواسطة التحليل التأسيسي، والدراسات الدائرة حول الظروف الخارجية من جغرافية واقتصادية وغيرها. صحيح ان الأداة صعبة الاستعمال، لاننا نتعرض للوقوع في النفسانية التي استطاع باريتو (Pareto) التخلص منها باصطناع مفهوم الفضالة، وتمييزه عن مفهوم الغريزة ومفهوم الأحاسيس. ذلك ان قيمة الفضالة تكمن في أنها أداة كغالبية المفاهيم العلمية.

يشير ماكس ويبر (Max Weber) الى تناقض العمل، ببرهانه على ان النتيجة تتعارض غالباً مع النية الأساسية. ويحاول باريتو (Pareto) ان يوضح ويفسر العمل بفضل مفهومي الفضالة والاشتقاق، وبإظهار - ان التفاوت بين الهدف المعلن، وسياق العمل والواقعي يعود الى اللامنطق - دون ان يكون الفاعل سيء النية. على

العكس من ذلك، يعترف بأنه يكون في اغلب الأحيان حسن النية باستثناء هؤلاء الذين يمتهنون الخبث. وهو لا يشيد بهذا التباين، كما ان ويبر (Weber) لا ينفي هذا التناقض، بل يلاحظه ويحاول تحليله كعالم إجتماع. وهكذا لا نستطيع ان ننسب اليه فلسفة: تتحول العقلانية المفروضة على بنية العمل بصورة تدريجية الى مخالفة العقلانية المبدئية . ولا ان نرد له «نظرية العنف التي تحدد طبيعة فلسفته التاريخية الحقيقية». صحيح ان باريتو (Pareto) يهزأ من مؤيدي التقدم، لكنه لم ينكر ابداً التقدم في العلوم، وفي الاقتصاد، ويعتقد بانه حقق تقدماً كبيراً لعلم الاجتماع. وتصريحاته حول هذه النقطة كثيرة الى درجة لا تستدعي التأكيد عليها. ما يرفضه بالمقابل هو فلسفة التقدم، اي المفهوم الذي يعتبر الأكثر هو الأفضل، اي ذلك الذي يتوهم اتجاه الانسانية بمجموعها نحو الكمال بصورة تدريجية ولا ضرورة للعودة هنا الى تمييزه بين العنف والقوة، والى موقفه من القوة. الصحيح هو ان باريتو (Pareto) لم يتمكن رغم الجهود التي بذلها من الافلات من الفلسفة. وقد توهم حول هذه النقطة. انه يملك نظرة فلسفية، لكنها تختلف عما ينسبه اليه ج. بيرين (G. Peroein) وغيره.

تشتمل مناهضة بعض الكتاب للماورائيات، مثل كومت (Comte) وماركس (Marx) على مواقف ماورائية ولكنها غير واعية، وتدل التصريحات المناوئة للفسلفة على فلسفة كامنة. ولا نجد أية صعوبة في السخرية من باريتو (Pareto) في هذا الخصوص هو

الذي هاجم الفلاسفة وهزأ منهم. لن نطيل الـكلام في هذه النقطـة وسنوجه جهودنا لابراز فلسفة باريتو (Pareto) الكامنة، وتقديمها على افضل ما يمكن من التلاحم منتبهين الى عدم تجاوز فكرته. ونجد ان نفس المشكلة تطرح بالنسبة لغيره من علماء الاجتماع مثل ماكس ويبر (Max Weber) الذي لم يكن يقل عنـه قسـاوة في حكمـه على الفلسفة، هو الذي كان يعلن في مجالسه الخاصة ان الفلسفة لا مجدية دون المنطق.

لن نطيل الوقوف امام العلاقة بـين ويبـر (Weber) وباريتو (Pareto). لنلاحظ التقارب في افكارهم، فنقاط التلاقي كثيرة.

(أ) كانا يزدريان الأدب في المواد العلمية. وهذه نقطة بسيطة تدخل في مجال الحرب الكلامية لن تستوقفنا طويلاً.

(ب) طرح كلاهما قضية العمل ضمن الفاظ العقلانية والمنطق. ولاحظا دور اللامعقول في المسالك الانسانية. واذا تشابهت الموضوعية لديهما، فانهما يختلفان احياناً في المسألية. كلاهما ينطلق من مثال النشاط الاقتصادي (درس كلاهما علم الاقتصاد قبل علم الاجتماع) لتحديد العمل المنطقي، والعمل العقلاني قصدياً. ولكن الصيغتان لا تكتملان تمامـاً. فالعمـل العقلانـي لدى ويبـر (Weber) لا يتعلـق سوى بالتنسيق بين الوسائل والهدف، فيما يوجب العمل المنطقي لدى باريتو (Pareto) الا يتعدى العامل شروط الانطلاق التجـريبية. إذن لا يعتبر باريتو (Pareto) العمل العقلاني بقصده منـطقياً في الوقـت

الذي يعتبر فيه ويبر (Weber) ان العمل يمكن أن يكون عقلانياً بقيمته ، وهو نموذج يستبعـده باريتـو (Pareto) .

أضف أن باريتـو (Pareto) يقسم الأعمال ويصنف من جهة الأعمال المنطقية ومن جهة أخرى الأعمال اللامنطقية (تضم الأعمال المنافية للمنطق)بينما يعد ويبر (Weber) نموذجية ويميز بالاضافة إلى الأعمال العقلانية بنهايتها والأعمال العقلانية بقيمتها ، يميز بالاضافةاليها العمل المبني على أساس العواطف والعمل المتوافـق مع التقاليد. رغم ان باريتو (Pareto) لا ينبذ قط قيمة العمل المنطقي - باعتبار أن القائد الذي يستطلع العرافين دون الوثـوق بتكهناتهم - ليرفـع معنـويات جنـوده يتصرف بصـورة منطقية - فإنه يرى أن العمل العقلانـي بقيمتـه لا يمـكن أن يكون منطقياً . ينتج الخلاف ويتولد عن كون باريتو (Pareto) يعود إلى البرهان والدلالة المنطقية ، وعن كون ويبر (Weber) يعود إلى المنطق بصورة عامة وليس فقط إلى البرهان وحده . ويحتل اللامعقول مكانـاً كبـيراً لديهما في الحياة الانسـانية ، وهـو يصبـغ العيش لدى ويبـر (Weber) بالتراجيديا الأمر الذي لا نراه عند باريتو (Pareto) الذي لايستعمل مثل هذه الألفاظ والعبارات الكبيرة . ونجد أنهماكلاهما يقلقان ويحيران أمام سخرية الظروف ، فنادراً ما تتوافق الغاية المرجوة مع النتيجة الفعلية . ولا شك أن مفهوم باريتـو (Pareto) يتفـوق بإدراكه العمل في تطوره الداخلي إلى الحد الذي يؤكد فيه على الفضالة والاشتقاق أي الدوافع العميقة .. فيما يتمز مفهوم ويبر بليونة وتنوع أكبر .

(ج) وضع كلاهما علم الاجتماع العقائدي، فاستعمل الأول لفظة الاشتقاق فيما استخدم الثاني لفظة المعتقدات وهما يحترمان المسلك الذي يبقى اميناً لمعتقداته، كلاهما ليبرالي مؤمن بالليبرالية، ويتملكه الشك حول مستقبل الديموقراطية ويؤمن بفرص النجاح المتوفرة للاشتراكية، رغم ان باريتو بدا أكثر إنتقاداً لهذه العقيدة باعتبار ان مؤيديها هم من الاشخاص الذين تتغلب لديهم فضالة الفصيلة الاولى. رغم أنهما يتركان للعقائدية مكانتها فانهما يعتقدان بوجوب إقصاء الاعتبارات الأخلاقية عند تحليل الظاهرة السياسية. إذن كلاهما مكيافيلي من هذه الزاوية.

(د) يبدو التشابه بارزاً في مفهومهما للمنهجية. فكلاهما من مؤيدي التعددية السياسية، ومن المطالبين بالتجرد الخلاق في تحليل الوقائع. وهما يعارضان الماركسية لهذه الأسباب. وهما يريان وجوب تحليل كل ظاهرة ضمن ظروفها الخاصة، والعودة اذا اقتضت الحاجة الى الجدول النموذجي (لم يضع باريتو (Pareto) نظرية بهذا الخصوص على خلاف ويبر (Weber)): والحذر من إعطاء التبرير بعداً يتجاوز المعطيات والافتراضات التي كانت متوفرة عند الانطلاق. وهكذا يرفضان رد الظواهر الى الموجب الاقتصادي المؤثر لدى ماركس (Marx) رغم ديالكتيكية البنى، والبنى الفوقية. وهما يشتركان في الدعوة الى الموضوعية، رغم ان مفهوم بارتيو (Pareto) أكثر تصلباً ولا شك ان السبب يعود الى افتقاره الى التأمل العميق في علم المبحث لدى

كانت (Kant) . فهو يتوقف لدى الوقائع ضمن الاطار التجريبي المنطقي في الوقت الذي يكتفي فيه ويبر (Weber) بتحظير التقييم الشخصي وينتج عن ذلك ان ويبر (Weber) يدخل ، ويمكن ان يدخل القيم في البحث على شكل العلاقة بالقيم فيما ينبذ باريتو Pareto) مبدئياً كل اعتبار تقييمي أياً كان . ويبدو موقف ويبر (Weber) أيضاً حول هذه النقطة اكثر تنوعاً باعتبار انه اعد نظريته مرتكزاً على مبحث العلوم .

(هـ) المدهش هو وحدة الأساس الفلسفي واللاهوتي لفكرهما ، اي مذهب التعدد الالهي . لنذكر بالفقرة الشهيرة من « المعرفة كمهنة » (Wissenschaft als Beruf) التي يقول فيها ويبر (Weber) ان فئات الحقيقة والجمال والخير ليست متماثلة ، وانها قادرة على التناقض والتنازع فيما بينها . كما في احدى فقرات « السياسة كمهنة » Politik (als Beruf) التي يعارض فيها مبدأ فورستر (Forester) الخير لا يمكن ان يولد سوى الخير . والشر لا يمكن ان يولد سوى الشر ، لو كان الأمر كذلك لانتفت المشاكل . ليس فقط كل سياق التاريخ العالمي وحده هو الذي ينبئنا بالعكس . بل كل تمحيص متجرد للتجربة اليومية . يقوم تطور كل المذاهب في العالم على حقيقة الرأي المعاكس ! ونجد نفس الافكار لدى باريتو (Pareto) حين يعلن ان الشيء يمكن ان يكون صحيحاً دون ان يكون مفيداً والعكس بالعكس ، وان ما هو عبثي من الناحية المنطقية يمكن ان يكون مفيداً من الناحية الاجتماعية .

وتعتبر صحة النظرية التجريبية ومنفعتها الاجتماعية امران مختلفان يمكن للنظرية التجريبية الصحيحة ان تكون مفيدة للمجتمع او مضرة به ، كما هو الحال بالنسبة للنظرية التجريبية المغلوطة ، وهو يوضح نظريته المتعلقة بالأسطورة بصورة أفضل يمكن للنظرية ألا تتوافق مع وقائع موضوعية ، وان تكون نزوية من هذه الناحية ، وأن تتوافق مع وقائع ذاتية عظيمة الأهمية في المجتمع.

إن من يرى أهمية الميثولوجيا الاجتماعية يريدها ان تكون حقيقية ايضاً ومن ينكر وجودها ، ينكر ايضاً اهميتها الاجتماعية . وتدل الوقائع على العكس من ذلك ان الميثولوجيا لا تملك أي واقع ، لكنها تملك أهمية إجتماعية كبيرة «وهو يعتقد مثل ويبر (Weber) بأنه يمكن ان تنتج عن الشر والخطأ آثار سعيدة ، كما يمكن ان يتولد عن الخير آثار مسيئة ، لامنطقية . » إن عمل الكنيسة إزاء السحر الأسود هو عبثي ببساطة ، وكل الحكايات عن الشياطين تافهة . وبعد ان يتبين لنا هذا الأمر نجد ان الكثيرين يستنتجون من هذه المقدمات المنطقية ان ديانة الكنيسة عبثية بدورها ، وأنها مضرة بالتالي بالمجتمع . هل يسعنا الأخذ بهذا الرأي ؟ لنلاحظ أولاً ان البرهان لاينطبق على الديانة الكاثوليكية وحدها بل يسري على كافة الديانات ، وكافة الماورائيات . بكلمة واحدة ، يسود كل ما يخرج عن نطاق العلم المنطقي التجريبي . من المستحيل القبول بهذا الاستنتاج واعتبار الجزء الاكبر من حياة المجتمعات الانسانية حتى يومنا هذا عبثياً . فما زال العدد الكبير من الآلهة

والشياطين يعمل ويؤثر على الانسانية ويحدد خصوصية الوقائع الاجتماعية. ومن المثير للعجب ان يستخدم كل من ويبر (Weber) وباريتو (Pareto) نفس المثل لتوضيح هذه النظرية، مثل التناقض بين الثقافة الألمانية، والثقافة الفرنسية، او اللاتينية. ونقرأ لدى ويبر (Weber) «أجهل كيفية التصرف لتحديد قيمة الثقافة الفرنسية علمياً ومقارنتها مع الثقافة الألمانية. فهنا ايضاً نجد آلهة مختلفة تتصارع، وبلا شك الى الأبد.»

ان الامور لا تجري بشكل مختلف عما كان يدور في العصور القديمة التي كانت خاضعة الى سحر الآلهة والشياطين ولكنها تتخذ اتجاهاً مختلفاً. كان اليونانيون يقدمون الذبائح والقرابين الى أفروديت (Aphrodite) اولا، ثم الى ابولون (Apollon) والى كل إله من آلهة المدينة. وما زلنا نسير على هذه الخطة في عهدنا هذا، رغم ان سلوكنا قد ابطل السحر وتخلص من الأسطورة التي ما زالت تعيش في اعماقنا. ان القدر هو الذي يسيطر على الآلهة لا العلم. كل ما نستطيع هو ما يعنيه الاله بالنسبة لمجتمع معين، او ما يعتبره هذا المجتمع او ذاك». ويكتب باريتو (Pareto) «اذا كان البعض يفتقر الى الذكاء والمعرفة إلى حد لا يرى معه ان من يود إحراق الآخرين الذين يملكون - وقد تعرضوا لسر الثالث المقدس -. هؤلاء الآخرين الذين يملكون رأياً مخالفاً لما هو مأخوذ به، إن مثل هذا الشخص هو جانٍ، لا يزيد فضلاً رغم عجزه عن إحراق الناس، لا يزيد فضلاً عن ذلك الذي يود

رغم جهله معنى الحضارة، ان يلقى في السجن كل فرد ولا يعترف بأن الحضـارة الألمانية لا تدانـى الحضـارة الـلاتينية فيمـة او من يتجرأ الادعاء بأن الثقافة الألمانية تتفوق على الحضارة اللاتينية. ان قداسة «الحضارات» و«الأوطان» لا تختلف عن قداسة الآلهة المتعددة التي اوجدها الانسان. يمكن لهذه المعتقدات ان تكون مفيدة من النـاحية الاجتماعية، وهي كذلك ضمن بعض الحدود، ولكن هذا لا يجعلها اقل ضرراً حين تتجاوز هذه الحدود، ولا اكثر فهماً من الناحية التجريبية». نضيف القول بأن هذين النصين قد كتبا في نفس السنة . وهذا عام ١٩١٨.

يعبر باريتو (Pareto) عن تعددية الآلهة هذه في غالبية مؤلفاته. ولعل حدة ذهنه تبرز افضل ما يكون في الفقرة التالية: «يقف مبدأ الشر أمام مبدأ الخير، الذي كان في الماضي الديانة الحقيقية، والذي هو اليوم العلم. وتحيط به اليوم الآلهة الثانوية مثل الديموقـراطية، والنزعة الانسانية، والسلام والحقيقة، والعدالةوغيرها من الكيانات التي تستحق صفة التقدمي. وكما تحارب ملائكة النور ملائكة الظلمات، كذلك تناضل هذه الكيانات ضد تلك المسماة بالرجعية وتحمي الانسانية وتنقذها من أحابيل هذه الشياطين».

يجب عدم الاعتقاد بأن باريتو (Pareto) كان يندد بهذا الصراع بين الآلهة، ذلك ان مؤلفه يؤكد أنه كان راضياً عنه إلا انه كان يسر بالسخرية والهزء من المثقفين المعاصرين، الذين يجهلون الرهان لأنهم لا يشعرون بأنهم يهملون هذا التعدد في الآلهة. ولا شك ان علم اللاهوت

هذا كان يتوافق مع طبائعه طبائع الملحد في أعماقه، طبائع العالم الصارم وطالب اللذة في الحياة الذي برز في اسطورة الفضيلة (Le Mythe Vertuiste). وهو يبرر بلا شك عداءه للبروتستانتية وتسامحه مع الكاثوليكية التي تتحسس بصورة افضل مظاهر الحياة المسرة كالأعياد، والبذخ وبعض اللذات التي تحيطها الأسرار بالغموض. كذلك لم تكن نظرته الى العالم تتسم بالمأساوية: فقد كان يحب النزوات والمزاح والمتع المختلفة دون فساد. ونفهم من ضمن هذه الزاوية سبب ربطه بين الانحلال وإنكار الذات:

«من ضمن مظاهر الانحطاط يبرز بالاضافة الى ضعف مشاعر الرجولة الضرورية للنضال من أجل الحياة، يبرز تطور الميول المنحرفة، والمتع الغريبة. من بين هذه المتع هناك واحدة تبرز لدى جنسنا في مراحل الانحطاط.. فالبعض يشعر بلذة غريبة في إذلاله نفسه. والنيل منها، في التهجم على الطبقة التي ينتمي اليها والسخرية في كل ما بدا حتى ذلك الحين جديراً بالاحترام. لقد كان الرومان في مرحلة الانحطاط ينخفضون الى مستوى المؤرخين:

إن العالم المليء بالآلهة يفترض أن لكل مفهوم قيمته ومعناه الخاص، الذي لا يمكن خلطه مع الآخرين. إن الحب يختلف عن السلام؛ والسياسة تختلف عن الأخلاق والعلم يختلف عن الدين، لذا يهاجم باريتو (Pareto) العقائد التي تخلط بين العلم والدين، وتحول العلم الى عقيدة جديدة، أو تلك التي ترد مختلف الظواهر كالماركسية

مثلا إلى مصدر أو سبب واحد. أو تلك التي تعزو كل الصفات الحسنة إلى شكل إجتماعي واحد كالاشتراكية مثلا، وتسند كل المساوىء إلى شكل ثان كالرأسمالية. هناك تعدد كاذب للآلهة، إنه ذلك الذي يدعي ان إحدى الآلهة قادرة على حل مشاكل آلهة اخرى، أو القيام بوظيفتها، وملء مهمتها. إن عقيدة التقدم متعددة الآلهة من ضمن هذا المنطلق حين نعتقد أنها قادرة على إضفاء السلام، والعدالة بالاضافة إلى السعادة، كذلك هو الأمر بالنسبة للإشتراكية حين تدعي وضع حد لكل الحروب، والدعارة، والجهل، والجريمة، والكسل، كما هو الحال بالنسبة للعلم حين يعتقد أنه قادر على نشر الديموقراطية، والعدالة الاجتماعية، والتضامن بين الشعوب.

تشكل فلسفة باريتو (Pareto) فلسفة القطيعة. باعتبار أنها تفصل وفق نظام الأشياء بين ما يعتبره علم اللاهوت والماورائيات مختلطاً. فالعمل المنطقي هو شيء، والعمل اللامنطقي هو شيء آخر مختلف كذلك هو الحال بالنسبة للمشاعر والمنطق، والغريزة والمنطق. ولا تنكر هذه الفلسفة إمكانية إقامة علاقات بين هذه المفاهيم، وكذلك لا تعتبرها ضرورية ولا نهائية: فهذه الأعمال تتعلق على العكس من ذلك بالعقائد، والإشتقاق وتكون لذلك دائمة او مؤقتة. على كل حال انها جائزة وهي قادرة لنفس الأسباب على تبني اكثر الأشكال تنوعاً. الغريبة أحياناً، والمتناقضة أو المتنازعة أحياناً والحتمية والمتوافقة أحياناً أخرى. رغم كل العلاقات المتضافرة، والتشابه والتماثل والقياس، فان

الفن يختلف عن العلم، ولا يمكن لأي من هذه النشاطات أن يحل مكان الآخر. كذلك تختلف التجربة عن الماورائيات ويختلف العلم عن علم اللاهوت. من الطبيعي ان تبحث الفلسفة المسيحية عن أصول الحق الطبيعي في الارادة الالهية. ويمكنها ان تكتفي بذلك لتقدم نظرية تشتمل على عنصر علم اللاهوت وحده.

ولكن من الملاحظ انها تبحث عن سند عنصر الماورائيات ولربما عن سند العنصر التجريبي ايضاً: الأمر الذي يؤكد مجدداً ان شكل مثل هذه النظريات لا يرتبط بجوهرها بالقدر الذي يرتبط بالمفهوم السائد في المجتمع. ويرفض غالبية الناس الإكتفاء بعلم اللاهوت وحده. ولا بد لإقناعهم من تأمين دعم الماورائيات والتجربة. ويطالب باريتو (Pareto) بتحديد كل لفظة نستخدمها في العلم لتجنب مثل هذا الابهام وهذه الادعاءات الكاذبة. إن الأمر لا يتوقف على إدراك ظاهرة وفق تحديداتها الخاصة، ودون استعمال تحديدات واقع آخر، سواء كان إقتصادياً أو علمياً لاهوتياً. بل يقتضي أيضاً استعمال بعض التصورات الملائمة والألفاظ المحددة، لا المبهمة منها أو الملتبسة ويحتاج العمل لأنه يتم نتيجة إختيار اي نتيجة تردد وغموض، يحتاج إلى الابهام في الكلمات.

يعتبر باريتو (Pareto) أن وحدة الانسان تكمن في الإنسان، في طبيعته، وفي كل واحد من نشاطاته الخاصة ولا تتوفر هذه الوحدة لا في الاقتصاد، ولا في العلم، ولا في الدين، فهذه النشاطات رغم رغبتها في

توحيد مجموعة بقية النشاطات في ظلها فانها لا تشكل سوى بعض المظاهر والتعابير. وهي تعجز لذلك عن إدراك الانسان الذي يتجاوز كل هذه النشاطات مجتمعة. إنها دلائل على وجود طبيعة تعجز عن الحلول مكانها. لم يعمد باريتو (Pareto) للأسف، بسبب عدائه للماورائيات والفلسفة إلى تحديد مفهومه للكائن، واكتفى بالايحاء والقول إن الطبيعة الانسانية تبقى مطابقة لذاتها عبر الزمن، أي انها إذا ما تعدلت فبيطء وبشكل بسيط لا يذكر. وبصورة أدق يردنا إلى أساس تُعتبر كل النشاطات أشكالاً له: «يختبئ في ظل المظاهر المختلفة أساس مشترك. ان الأمر لا يتعدى بعض التحولات المختلفة لشيء واحد لايتغير». «أو اننا نعجز عن التأثير على أساس الظاهرة، ولا تتمكن جهودنا إلا تعديل بعض هذه الأشكال». ويدور تحليله حول التلاحم المنطقي للنظريات التي تدرك هذه الأشكال، وتحاول ترجمة هذا الأساس، أو التعبير عنه بطريقة. أو بأخرى ويمكن وصف فلسفته بانها انتقاد القول؛ رغم انه يحدد في نطاقه باهماله القيم والمعاني. إنه يكتفي بتقييم صحة العلاقات المنطقية التي يبرزها القول، ليعرف ما إذا كانت تتجاوز التجربة أم لا، وإذا بقيت وفية لمعطيات الانطلاق، أم انها تدخل بعض العناصر الغريبة عنها. هذا هو سبب تعدد الأمثلة المذكورة لتحديد تجاوز النظريات للتجربة أو التزامها بها؛ ومعرفة طبيعتها وما إذا كانت علمية مموهة: وإذا كان البرهان منطقياً أم لا ... ومن هنا تولد إهتمامه بالقياس المتسلسل، وغيره من براهين المنطق المنتحل.

تعبر نظرية الاهتزازات التي تشكل نظرية التغيير لدى باريتو (Pareto)، تعبر عن هذا الاستمرار النسبي للطبيعة الإنسانية عبر الأزمنة. فالاهتزازات تدل على أن الاشكال وحدها تتبدل، أي ما ان يصل المنحنى إلى ذروته حتى تبدأ الحركة في الاتجاه المعاكس، كذلك تبين إمكانية زوال هذه الأشكال لوقت معين قبل أن تبرز من جديد تحت أشكال ثانية. ويعكس التاريخ هذا التعاقب، هذا التعاقب الذي يتميز بحركته الايقاعية لا الدورية، أي انه غير منتظم لشموله على الانقطاع وعدم الاستمرار. وهذا هو السبب الذي يدفعه إلى الامتناع عن تأييد نظرية ج. فيراري (G. Ferrari) في نظرية الحقب السياسية (Polilique Theorie des Periodes)، ذلك ان انتظام الاهتزازات التي يدعي هذا الأخير اكتشافها في التاريخ يتجاوز ملاحظة الوقائع. ويكتب باريتو (Pareto) قائلاً. يكمن خطأه الأساسي الرائج لدى غيره من المؤلفين في أوضاع مماثلة، يكمن في رغبته في إخضاع الوقائع إلى قواعد جامدة، وهمية بدقتها. ويبدو أكثر صرامة إزاء فيكو (Vico) في مبحث علم الاجتماع (traité de Sociologie). منه في تحول الديموقراطية (La transformation de la democratie)، أو في وقائع وأحداث (Fattie teorie). فهو يلفظ في المؤلف الأول بكل بساطة مبدأ فيكو (Vico)، ويصفه «بالماورائي» الذي يساوي نظريات أفلاطون (Platon)، الخيالية. ولكنه يبدو اكثر تفهماً في تحول الديموقراطية (la transformation de la democratie)، حيث يعترف بانها تعبر عن بعض مظاهر

الواقع. حين ندرس تاريخ الحقب والبلدان المختلفة نجد حقب متشابهة سميت بالمجاز المرسل إقطاعية بعد ان عمل بالجزء بدلاً من الكل وأخذ به. لقد لاحظنا بأنها تبرز ثم تنهار، وبكلمة اخرى، هناك بعض الظواهر الميكانيكية وبصورة اوضح بعض الاهتزازات. هذا هو الصحيح الذي ورد في نظرية فيكو (Vico)، حول عودة «الاقطاعيات» ولكنه يخطىء حين يعطي أشكالا متشابهة لمختلف الاهتزازات وفي التفاصيل التي اطلق فيها العنان لخياله الذي يقودنا خارج نطاق التجربة ما يزعجه لدى فيكو (Vico)، هو دورية الاهتزازات الكاملة.

إن التاريخ لا يكرر ذاته، لأنه يعكس حركة الأشكال المتبدلة، وبالتالي الاهتزازات التي لا تتشابه قط فيما بينها عبر الأزمان. فهي لا تظهر بصورة منتظمة.

كذلك ترتبط في كل مرة بالظروف الجديدة التي تعيشها الإنسانية. اضف أنها ظاهرية فقط. لنبحث عن اهتزازات الفضالة لدى مجموع السكان، وينتج عن هذا أن الاهتزازات التي تشهدها الطبقة المثقفة من الأدباء والفلاسفة والعلماء لا تملك أية قيمة بيانية؛ فهي لا تعني شيئاً بذاتها، لا بد ان يقبل بها السكان لتعبر عن مشاعرهم . إذن لا يمكن الاعتماد على نظرية الاهتزازات في التنبؤ والتوقع. وهذا ما فعله فيكو (Vico) في نظريته التي تستجيب لبناء الدورات الخيالي اكثر مما تتفاعل مع واقع الأحداث. باختصار لا تتعدى النظرية التموجية الافتراض الذي تؤكده بعض الوقائع، لكنها لا تملك قيمة الاطراد المنطقي التجريبي. ولا يسعنا رغم التماثل بين العصر الحاضر،

والامبراطورية الرومانية المنهـارة، لا يسعنـا التنبـؤ بشـكل الاهتـزاز الجديد، لأنه يتوقف على الظروف الثقافية والأخلاقية الحالية، التـي تختلف عن تلك التي كانت سائدة في عصر الامبراطورية الرومانية.

إن التاريخ لا يعيد ذاته أبداً، ومن غير المحتمل، إلا إذا كنا تؤمن بالخطر الأصفر، من غير المحتمل ان تتولد حقبـة الازدهار الجـديدة والمستقبلية عن غزو بربري آخر. فالاحتمال اكبر بأن تتولد هذه الحقبة عن ثورة داخلية، تمنح السلطة لأفراد يملكون الفضالة من الفصيلـة الثانية، ويعرفون، ويستطيعون ويرغبون إستعمال القـوة. إلا أن هذه الأحداث البعيدة وغير الأكيدة تدخل في ميدان النزوات والأهواء أكثر مما تدخل في ميدان العلم التجريبي. ولا شك ان باريتو (Pareto) متردد حول هذه النقطة، ولا يمكننا أن نأخذ عليه حذره ونعتبره نقصاً في التلاحم. ذلك أن هذه التأملات تتجاوز إطار التجربة، وهو يعترف بهذه الحقيقة على خلاف هؤلاء الذين يقدمـون معتقداتهـم على أنهـا من الوقائع. يمكننا اعتبار نظرية الاهتزازات هذه على أنها فلسفته التاريخية، شرط التأكيد بأنه لم يعتبر قط أنها تمثل الحقيقة. والواقع التاريخي، بل رأى أنها إفتراض يساعد على مزيد من الاقتراب. على كل حال إن تفسير التغيير بالاهتزازات والحقب لا يقل عقلانية عن التفسير الذي يقول بالتقدم التخطيطي المستمر.

يرفض باريتو (Pareto) نظرية العودة الدائمة، لأنه يلاحظ على ضوء التجربة صعود الأفكار البطيء العارض نحو المنطق. فالتقدم ممكن

بالقدر الذي تكون فيه الفضالة غير جامدة، وقادرة على التحول بهدوء عبر الزمن، وإن تباينت الوسيلة بتباين المجتمعات. ويعترف باريتو (Pareto) بهذا الأمر بوضوح اكثر حين يعلن في النص الذي ذكرناه، وجود بعض الصحة في الفكرة القائلة بتزايد نسبة المنطق في النشاطات الإنسانية. وهو يؤكد بأن الوقائع تعزز هذه الفكرة. بالطبع يمكن تفسير هذا المقطع بعقلنة الحياة التدريجية، التي لا تفرض تقدماً بالمعنى الخلاق. علماً أن باريتو (Pareto) لا يوضح كيفية إدراك فكرته حول هذه النقطة. ولكن ما هم، فطالما ان التقدم ممكن لا يسعنا القبول بفكرة العودة الخالدة والدائمة التي لا تقبل بالتقدم إلا من دورة إلى اخرى، باعتبار ان الانسانية تعود إلى ما كانت عليه بعد بلوغها القمة صحيح أن باريتو (Pareto) رفض إبداء رأيه حول التقدم ولكنه استند في ذلك الى غموض المفهوم. ولا يسعنا الاستنتاج من هذا بأنه يرفض كل تقدم، فقد كان لا يرغب في الانضمام الى دعاة التقدم الالة. إنه يعترف ان الانسانية قادرة على التطور نحو عقلانية اكبر، ولكن ضعفها يكمن في إبهامها، رغم تصريحات أصحاب النزعات الانسانية. ويمكن للايمان ان يؤدي الى اليقين الموضوعي القابل للتيقن ومن المناسب عدم القضاء على هذا الخط الهش بادعاءات التقدميين الزائفة.

هذا هو الخط أو الفرضية التي رغب في المحافظة عليها. ويعجز المنادون بالمنهجية العقلانية عن فهم الأمر لأنهم باهمالهم ثقل اللامعقول، يعرضون الانسانية للوقوع في الارهاب. ان اللامعقول يدخل في طبيعة

الانسان لأنه مزيج من الغريزة والعقل. انه حيواني وهم يفسحون المجال واسعاً امام العنف لاهمالهم هذا الواقع؛ بل اكثر من ذلك انهم يهيئون للعنف. فالقوة التي تشكل نوعاً من التوازن والمنطق لا يمكنها سوى الخضوع لوحشية العنف، هذا العنف الذي يتخذ عند الحاجة مظاهر العقلانية. هذا هو برأيي الخوف الذي ملأ باريتو (Pareto).

إن المنطق المتطرف يختلط بالغريزة المنفلتة. إن العقلانية العليا هي دعوة إلى البرابرة، ونداء لهم، وأكثر من هذا إن باريتو (Pareto) يرفض الطوباويات، ذلك ان الانسان بتغييره بصورة أساسية أي ان تغير عما هو عليه أو ما كان عليه بدخوله الى مجتمع ثان تسود فيه العدالة والسلام، والحرية، والمساواة، والسعادة، في تناسق وانسجام يتطابق مع هذه المبادىء، يجعل من التاريخ الانساني الذي عاشه الناس حتى اليوم خديعة ومحاكاة ساخرة. إذا كانت الطوباوية حقيقة، فان المجتمع الذي نملكه لا يشكل سوى شذوذ، ويكون للعنف الذي يود تعديله كل الحق في الانتشار والهيمنة. ولكن من يحكم على الانحراف والفساد التاريخي. إنهم الطوباويون أي دعاة التقدم والمنطق. لنفترض انهم محقون. عندها تكون كل اجيال البشر التي لم تعش لحظة ولادة المجتمع الجديد السعيدة، تكون أجيالاً من الملعونين. سنكون نحن وكل من سبقونا ملعوني الأرض، وسيوجد الجحيم، سيكون التاريخ الانساني حتى لحظة انتصار الطوباويين. لم يكن باريتو (Pareto) يقبل بأن يكون من الملعونين والمعذبين. فقد كان يؤمن بحياة متعددة الامكانيات، ولم يكن ليقبل أن يتحول الى عبد للامكانية

الواحدة. منذ زمن غير بعيد كان القانون ينزل في عدة بلدان العقاب بالكاتب، الذي ينال بمؤلفاته من مبدأ الملكية الفردية، ومن الممكن في عهد قريب، أن يعمد القانون في نفس هذه البلدان إلى معاقبة الكاتب الذي يتجرأ ويسيء القول بالملكية الجماعية،اليوم يمكننا التعرض بحرية لكليهما . يوجد الكثيرون الذين يدعون اليوم باسم العقائد المختلفة، والاشتقاقات المتنوعة، إن باريتو (Pareto) يفتقر إلى بعد النظر! أوليست الطوباوية هي الأخرى اشتقاقاً؟.

كان باريتو يقول ان الملكية الخاصة مستمرة بفضل «الاعتداءات المستمرة». ويمكننا برأيي نشر هذه الملاحظة لتشمل مفهومه للحرية، والدافع في الصراع الانساني. وفي الواقع يرغب الطوباويون ومنهجيو التقدم إجبار الانسان على خيانة الانسان. ولا بد لنا من الاعتراف لباريتو (Pareto) رغم كل عيوبه، بالجلاء والوضوح: «يتطلع الناس بصورة عامة إلى الحرية ويخشون الاكراه ونجد أن الكلمة الأولى ترتبط لديهم بأفكار جميلة، فيما ترتبط ثانية بأفكار تعسة، لذا لا بد لدفعهم إلى القبول بالاكراه من إطلاق اسم الحرية عليه». إن الديكتاتوريات الحديثة تدعي كلها تحرير الانسان، إن الاستعباد طوعي في عصرنا الحالي.